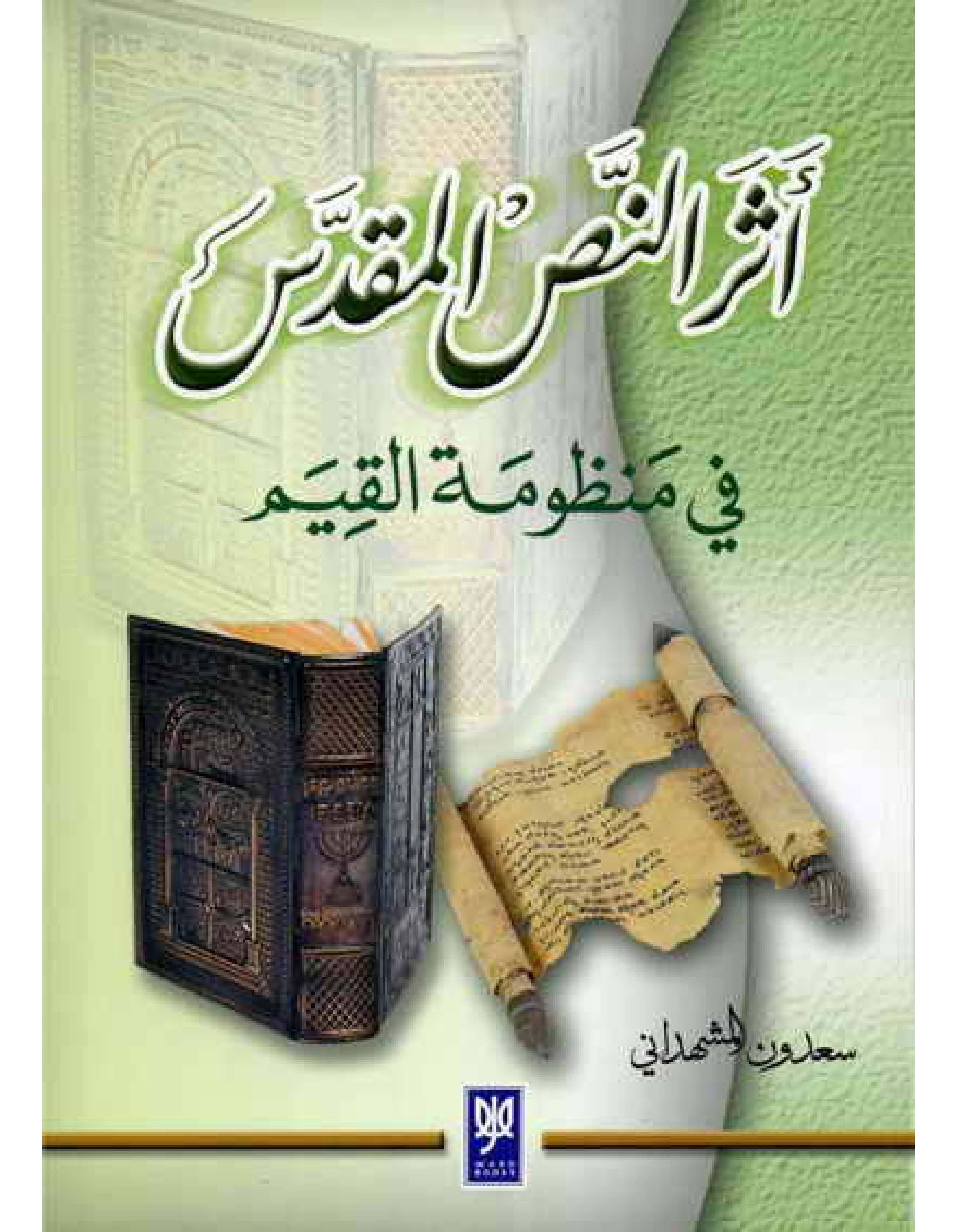


أثر النص المقدس
في منظومة القيم
سعدون المشهداني

أثر النص المقدس
في
منظومة القيم

أثر النص المقدس
في
منظومة القيم

سعدون المشهداني



• **أثر النص المقدس في منظومة القيم / دراسة**

• **سعدون المشهداني / مؤلف من العراق**

• **الطبعة الأولى** 2010

• **حقوق النشر والتوزيع محفوظة:**





P.O. Box 927651 Amman 11190 Jordan
Tel. +962 6 5606 263 - Fax + 962 6 5606 362
E-mail : wardbooksjo@yahoo.com

• الإشراف الفني : **محمد الشرقاوي**

• تصميم الغلاف : **عفاف أبو حسين**

• رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية 2010/4/953

تجدون كتبنا على الموقع التالي

www.darwardjo.com

الإهداء

إلى دار السلام

يوم كانت داراً للسلام

أملي أن تعود

إلى ديارها بسلام

الفهرس

مقدمة الكتاب

لم تكن فكرة جمع ونشر مجموعة المقالات التي سبق وأن كُتبت ونُشرت من اهتماماتي الرئيسية، إلا أن هناك عوامل تضافرت لتحّول ما كتبتُ إلى سلسلة متتابعة من الأفكار والمضامين، منها رغبة المتابعين لمعرفة سلسلة الأفكار التي قُدمت على شكل مقالات قصيرة، والتي يجمعها قاسم مشترك واحد، هو أثر النص في منظومة القيم.

والأمر الآخر كون النص اليهودي المقدس (الدين)، أنتج دولة ذات تكوين ديني بحت، وكون النص المقدس أنتج سلوكاً له أثر عدواني، وكون النص شكّل غطاء شرعياً لكل الممارسات المغلوطة داخل الكيان اليهودي، لذلك كانت مقالاتنا بحثاً في هذا المجال، وليس في كل المجالات، فما قدمناه كان يعبّر عن مدى اطّلاعنا ومعرفتنا.

كما لا نخفي أن هناك مقالات كثيرة تتحدث عن مواضيع الساعة، ولكنها لم تخرج عن السياق العام، إلا وهو أثر النص.

مثال ذلك حادثة قتل المصلّين في الحرم الإبراهيمي من قبل مستوطن متطرف، أو قتل الطفلة إيمان حجو على يد جندي إسرائيلي، والموقف الثأري من العراق عبر التاريخ اليهودي، متمثلاً للدلالة عليه ببابل.

كما أن جمع هذه المقالات في مؤلّف متواضع الغرضُ منه طرح متكامل للمضمون الفكري لما تمت كتابته، ولما نحمل من هموم قومية، أكثر منه محاولة للمقارنة بين الأديان، فليس من مهامنا الولوج في علم مقارنة الأديان، ليس بخساً، أو تهويناً لمثل هذا الباب الواسع الجليل، بقدر ما هو تقدير لموضع موقفنا، فموقفنا قومي، وننطلق من بعد قومي حقيقي، إلا أن هذا لا يمنع من وجود مفردات إسلامية، وخلفية أخلاقية لمنظومة القيم التي نتحلى بها، ألا وهي الإسلام، فهذا لا يمنع ولا يلغي علمانيتنا، ويبقى الإسلامُ بعدنا الثقافي وهويتنا التاريخية، الذي نعتز به ونؤمن به إيماناً راسخاً.

لذا، فلماذا لا تشكل استعانة اليهودي بنصوص التوراة لتبرير وجوده وسلوكه العسكري أو سلوكه العدواني اتهاماً دينياً له، ويبقى الإصرار كون الكيان اليهودي ظاهرة علمانية، وإن تحلّت بكل أبعاد التدين، بل هو تدين يصل إلى حد التطرف، وهو تطرف منظّم يظهر من خلال حركات أصولية، وتسنده تيارات أصولية أخرى خارج الدولة الصهيونية من اليمين المسيحي المتصهين.

ونرى الإعلام لا يتحدث عن كل هذه الأصوليات (داخل الكيان اليهودي، أو خارج الكيان اليهودي وما ينتج عنها، بل الحديث، كل الحديث، عن كل ظاهرة عربية ذات بعد سياسي.. بل الحديث والمتابعة عن أي ظاهرة عربية علمانية كانت أو إسلامية، والتي على الأغلب توضع في سلّة واحدة كون النضال العربي هو نضال إرهابي ذو خلفية أصولية، حتى بدا الصراع العربي الإسرائيلي، وكأنه صراع بين قوى علمانية حداثوية (دولة اليهود)، وقوى أصولية متخلّفة لا تعرف غير الإرهاب (أصحاب الأرض، والذين هم العرب المسلمون). كما لا نخفي تخوّفنا من الهجمة الشرسة التي تنال تاريخنا العربي والإسلامي والحق الفلسطيني في الأرض والحياة، لما يسمّون بـ "المحافظين الجدد" والذين أصبح لهم مروّجون ومثقفون عرب وأقلام عربية تدافع عن أفكارهم، وعن منظومة القيم للفكر الصهيوني، بحجة دفاعها عن التجربة الديمقراطية الأمريكية، ويتناسى هؤلاء المروّجون أو يحاولون التجاهل، أن التكوين الفكري والبعد العقائدي لليبرالي أمريكا، والعالم الغربي عموماً، يحمل في طياته أجندة صهيونية.

قد تفسر مقالاتنا على أنها ردٌّ فعل دفاعي، أو أنها لم تتحرر من سقفها الأصولي، وإنها لا تزال تغرد خارج السرب دون النظر إلى المتغيرات في العالم.

حقيقة الأمر أن أهم تغيير حاصل ونحن نعي حقيقته أن الأصولتيين الأنجلو- سكسونية، واليهودية الغربية تلاقت مفاهيمهما، وتطور التلاقي في المفاهيم بينهما إلى تحالف، ومن ثم إلى تزاوج في المصالح والمعتقد حتى ليبدوان وكأنهما واحد. وبعد أن حدث التزاوج بينهما الذي أنتج دولة إسرائيل، فلا ينظر الآن إلى سوء فعلهما، لكونهما مالكي قرار ويمثلان سلطة دولية.

قد تكون إحدى أهم المشاكل الرئيسية لدينا نحن العرب هي التخلف والأصولية، إلا أن الاحتلال الاستيطاني الإسرائيلي، والعدوان الإسرائيلي المستمر على أهلنا في فلسطين، وما فعله المحافظون الجدد، ويفعلونه في أفغانستان والعراق، كل ذلك هو السبب الحقيقي لطبيعة الموقف الرافض للمثقف العربي تجاه كل ما يصدر عن المشروع الغربي عموماً.

نعم، ليس ما تطرقت إليه بجديد، فهناك من هم أكفأ وأجدر مني تناولوا مثل هذه المواضيع بإسهاب، وربما أكون أنا قد تناولتها تناولاً مختصراً وسريعاً.

إلا أن شفيعي في ذلك هو إحياء الذاكرة الجامعة للبعد التاريخي وفاعليته، من دين إلى موروث شعبي تحول مع مرور الزمن إلى فعل له قداسته، واجب التحقيق مثل ما يُفعل ويتم تحت أنظار العالم المتحضّر في فلسطين، و لمواضيع بدت مهملة وفي طريق النسيان بحكم العولمة والثورة المعلوماتية، واستثمار هاتين الظاهرتين لخدمة المشروع الإمبريالي الصهيوني.

أقدم اعتذاري عن كل خلل في سياق الأفكار، فأنا لست في الأصل من حملة القلم اختصاصاً، ولكني حملته هماً من همومي العربية.

وأقدم شكري لكل من ساهم معي بالمتابعة، وأخص بالذكر صديقي الدكتور عبد الكريم الغبان بمساهماته نقداً ونقاشاً وتنقيحاً، مع جزيل شكري إلى صديقنا العزيز المهندس أعياد العبيدي لمساهمته على إله الحاسوب وما قدم من جهد، وشكري أيضاً لكل من قدم ملاحظة أو فكرة بما يخص هذا الجهد المتواضع، وكلي أمل أن أكون قد حققت أمراً، وساهمت بخدمة متواضعة لقضيتنا العربية.

المؤلف

اثر النص المقدس ومجمع القيم

للنص المقدس أثر، وللنص المقدس فاعلية.. وأثره وفاعليته في تكوين سلوك الفرد، وباجتماع المؤمنين بالنص تتشكل ظاهرة مميزة تحسب على النص نفسه. فللمسلمين نص هو القرآن الكريم وصحيح حديث رسول الله، وهذا النص أنتج سلوكاً يتميز به المسلم بحكم التزامه بذلك النص مع طول تعامله معه. وجيلاً بعد جيل تشكلت الظاهرة الاجتماعية للمجتمع المسلم.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الظاهرة اليهودية التي مرجعيتها التوراة، وأسفار بني إسرائيل، والتلمود. والظاهرة المسيحية ومرجعيتها الأناجيل وأعمال الرسل ثم العهد القديم، والذي أطلق عليه المسيحيون اسم "الكتاب المقدس"، وأصبح صفة ملازمة له.. وكل من هذه الظواهر والكتل الاجتماعية ذات البعد الديني شكّلها وكوّنها النص المقدس.

ونحن لسنا بصدد تصويب النص أو تبيان صحته من خطئه، فهذا من حق المؤمنين بهذه النصوص المقدسة، ولهم حق الاختيار لما هم عليه. إلا أن سعينا يتركز على تبيان أثر النص بتشكيل سلوكية جامعة للظاهرة الاجتماعية، وكثيرة هي تلك الظواهر الناتجة عن النص المقدس، والتي تشكل ظواهر عديدة في السلوك، لا ظاهرة واحدة، كالموقف من الكذب، والسحر، والزنا واستغلال المرأة جنسياً.

سنتجاوز عند التحليل ظاهرةَ ما يسمّى بـ "التراث الشفهي الشعبي المتناقل"، فكثير من السلوكيات، وإن أخذت شكلها الديني، إلا أن أصولها وجذورها عقائد تناولها الناس وتآلافوا معها، وشكلت نمطاً لظاهرة اجتماعية ذات أثر ديني مرافقة له. إلا أن أصلها ليس من النص المقدس لأيٍّ من الأديان السماوية الثلاث. وسنحاول قدر المستطاع رصد بعض منها، أي بعض مظاهر النص، حيث تبرز وبشكل فاعل كثير من السلوكيات والتي مرجعيتها النص المقدس.

وقبل الدخول في كل مفصل من مفاصل ما ذكرنا، من المهم جداً معرفة من هو اليهودي.

من غرائب التوراة اليهودية أنها لا تتحدث عن اليهود بقدر ما تتحدث عن الآرامي الذي تحول إلى عبراني. و كيفية تحول هذا العرق إلى عرق آخر هي أيضاً من عجائب التوراة، فالآباء الأوائل كانوا آراميين، وعبّر العهد القديم عنهم بصيغة المفرد للدلالة على الجمع بقوله "آرامياً تائهاً كان أبي" (سفر التثنية: ٢٦-٥). ويعقوب هو حفيد العائلة الآرامية المتجولة من أور الكلدانية ومناطق حرآن إلى أرض كنعان. وبعيداً عن التكرار، والذي يهمنا من هذه العائلة هو تحولها على إثر حدث تم للحفيد، إذ بموجبه تحولت العائلة الآرامية إلى عائلة عبرية، ثم تبلورت هذه العائلة لتشكل لنا الوجود اليهودي، وما يحمل من مفاهيم. إذن الركيزة في التحول هو الحفيد يعقوب، وأساس التكوين اليهودي هو يعقوب، فما الذي حدث ليعقوب حتى يتم على يديه كل هذا التحول، في الأصل، والنوع، واللغة؟.

بهذا الصدد يذكر لنا سفر التكوين، ما نصه: "فبقي يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقوى على يعقوب في هذا الصراع، ضرب حق وركه فانخلع. وقال ليعقوب: طلع الفجر فاتركني. فقال، يعقوب: لا أتركك حتى تباركني، فقال الرجل: ما اسمك. قال: اسمي يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك يعقوب بعد الآن، بل إسرائيل، لأنك غلبت الله والناس وغلبت. وسأله يعقوب: أخبرني ما اسمك. فقال: لماذا تسأل عن اسمي. وباركه هناك. وسمّى يعقوب ذلك الموضع فنوئيل، وقال: لأني رأيت الله وجهاً إلى وجهه ونجوت بحياتي".(سفر التكوين: ٣٢-٢٢،٣٢).

إذن هو الذي صرع الله، وهو الذي صرع الناس، هو القوة المطلقة، و لكن على شكل إنسان جديد، وهذا الإنسان الجديد هو اليهودي الذي لا يقهر، يشرع له رب التوراة ما يريد هو، وتعمل له الطبيعة ما يرغب هو، فهو والطبيعة والإله شيء واحد. إن الحكمة من أسطورة مصارعة الرب ليست وضع ميثولوجيا للرواية والسرد، بقدر ماهية تعزيز لمفهوم يتمثل في كون قوة اليهودي غالبة لقوة الله، أو مكافئة له، وبما أن الإنسان "السوبر" اليهودي بهذه الملكة والقدرة، فله تشريع يختلف عن باقي التشريعات، وله منظومة قوانين تختلف عن باقي القوانين، إنها شريعة اليهود الخاصة بهم لأجل الغلبة على كل البشر، كما كان لهم من الأسطورة ما غلبوا به الإله.

ولم يكتفوا بذلك، بل جعلوا منظومة القيم هذه تتأتى من إلههم يهوه، فهو القدوة في مجموع القيم الجديدة.

يذكر محرر التوراة في (سفر التكوين، الإصحاح ٣١: الفقرة ٩): "فقد سلب الله مواشي أبيكما وأعطاني"، في حديث ليعقوب مع زوجاته، فما على اليهودي إلا الرضا والقبول بهذه السرقة التي قدمها رب التوراة لإسرائيل، وما على اليهودي إلا المزيد من السلب لتحقيق النموذج الذي قدمه الله بسلب مال الآخرين من أجل يعقوب.

والنماذج على مثل هذا السلوك بتحميل الله مساوئ الفعل اليهودي كثيرة، سنراها من خلال مداخلاتنا، وأمام هذا التكريس لهذه المفاهيم عبر سلسلة تشريعات وأحكام وقصص أصبح لدى المؤمنين بهذا الكتاب قناعات بتفرد العنصر اليهودي وخصوصية قوانينه بدءاً بالتوراة وأسفار بني إسرائيل، وانتهاءً بالتلمود.

إضافة لذلك إن مشكلة النص اليهودي أنه لا ينظر إليه باعتباره نصاً تاريخياً، بل اعتقاداً لا يمكن تغييره، وعلى التخصيص الرواية التاريخية للحراك الإنساني والتي يغلب عليها في التوراة الطابع الأسطوري والمبالغة في تصوير الأحداث.

فبين نص تبريري للفعل المغلوط اجتماعياً، إلى قداسة للرواية التاريخية القابلة للنقض العقلي، مع مسحة حلولية من خلال عشرات النصوص التي تكرس مفاهيم لتعطي صورة عن سلوك وشخصية اليهودي المتشدد الذي يعيش تحت ظلال النص.

ومن خلال جولتنا في قنوات النص وتشعباته، نجد التكرار في أكثر من موقع، وهو تكرار ليس من باب الإعادة، بقدر ما تفرضه الضرورة لسياق الموضوع.

مثالنا على ذلك، أن الحديث عن الفوضى الجنسية يتطلب الاستشهاد بنص، وأن الحديث عن تدين الصهيونية اليهودية يجعل النص نفسه يفرض نفسه على البحث، وأن الحديث عن إرهاب الدولة يجعل النص الذي ذكر سابقاً يكرر نفسه.. وهكذا. وفي الجانب الآخر هناك قيم فكرية روحية تفرض نفسها على اليهودي، مثل كون اليهودي لصيق إلهه يهوه. وكون اليهودي يؤمن إيماناً مطلقاً بمبدأ حلول الله به، فعند الحديث عن الاستيطان نرى مثل هذه الآيات تذكر، وعند الحديث عن التدين تكرر، وإلى غير ذلك من المواضيع.. فلم يكن في الأمر تكرار، بقدر ما فرضت القيم التوراتية نفسها على الباحث.. وهذا مبلغ علمنا.

لقد حاولنا جاهدين لتوضيح ما كتبناه للتعامل مع النص على محورين:

المحور الأول: التعامل مع النص عند التأسيس الأول، حيث فترة البداوة انتقالاً الى تشكيل المملكة اليهودية، وما لهذه الفترة من قيم وتعامل مع الآخر عبّر عنها النص الذي أصبح دالة لدى اليهودي يتعبد بها.

المحور الثاني: نتاج النص بعد مرور ثلاثة آلاف سنة عليه، حيث عبّر المستوطن الإسرائيلي الحالي عن سلوكية دينية، إذ كان النص المقدس غطاء له في كل ممارسة عدوانية يقوم بها.

فالمقالات التي بين أيدينا حالياً تعبير عن أخلاقيات النص بالتعامل، بعد أن حولت الأصولية اليهودية المتحالفة مع الأصولية الإنجيلية الغربية الحديثة هذه النصوص إلى كيان مادي، هو ما يعرف بـ "الدولة اليهودية".

وكثير من الممارسات التي تتم داخل الكيان الصهيوني، وإن أخذت بعداً سياسياً، إلا أن مرجعيتها هي التوراة وأسفار بني إسرائيل. ولا يعني هذا تفرد الكيان الصهيوني بالظاهرة، فبعض منها ظواهر عامة، أو سمة من سمات العصر الحديث، إلا أن الفعل على الدوام، داخل التكوين اليهودي والكيان الصهيوني وراءه النص المقدس.

فوضى النشوء التاريخي لملكة الوهم اليهودية

هناك ثوابت تاريخية لا يمكن تجاوزها، ولا يمكن نفيها بالكلية، إلا أنه يمكن الاختلاف حولها.. ومنها ظاهرة الخروج من مصر، وظهور شخصية شاؤل كأول ملك على إسرائيل.

ويحدد كثير من علماء الشرق القديم والمهتمين بالتاريخ العبري أن الخروج تم في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ومنهم من يحدد التاريخ بسنة ١٢١٤ قبل الميلاد. وكذلك تاريخ تعيين شاؤل كملك على بني إسرائيل، ويحدد العلماء التاريخ بسنة ١٠٢٠ قبل الميلاد.

والفارق بين الخروج وتعيين شاؤل هو (١٩٦سنة)، والأحداث التي تمت وفق الوثيقة اليهودية هي بين هذين التاريخيين. وما حدث في سفر الخروج والتيه وسفر يوشع وسفر القضاة وبعض من سفر صموئيل يقع بين هذين التاريخين، وأي اختلاف في البعد الزمني لحدثٍ ما يتحمل مسؤوليته كتبةُ الوثيقة اليهودية.

لذا يبدأ عهد المماليك في التكوين العبري القديم بتعيين شاؤل ملكاً على بني إسرائيل، على أمل الخروج من استعباد وسيطرة الفلسطينيون لليهود، وكان الرد حاسماً من قبل اليهود أنفسهم، وفيه من الشك والريبة وعدم القناعة بمثل هذا الفعل.

"وأمكاأصم.بليعال، فقالوا: كيف يخلصنا هذا، فاحتقروه ولم يقدموا له هدية. فكان كأصم". (صموئيل أول الإصحاح: ١٠ – ٢٧)، إنه لأمر يلفت الانتباه. ول اليهود لمثل هذه العبارة، ولأول ملك يتم اختياره لهم، والذي يسبر غور الوثيقة اليهودية (العهد القديم)، تحديداً سفر القضاة الذي يسبق ظاهرة الملك والمملكة، يرى الحق في قول بني بليعال، فمنذ خروجهم من مصر وإلى حد النقلة اليهودية بتشكيل ظاهرة المملكة والملك في التكوين اليهودي، أي عند بدء الحالة مع شاؤل والتي بلغت لأكثر من مأئتي سنة منذ خروجهم من مصر لحد تعيين شاؤل، نرى أن القسط الأكبر والحظ الأوفر خلال هذه الفترة ليس لهم، بل هو لتسلط الفلسطينيون عليهم، فهم مجموعة خرجت من عبودية المصريين لتسقط في عبودية الفلسطينيون.

١ - سفر الخروج - الإصحاح ١٦ - ٢٦، ٢٤، كان التيه في سيناء ٤٠ سنة.

٢ - سفر القضاة - الإصحاح ٣-١٤، تسلط عليهم الفلسطينيون لمدة ١٨ سنة.

٣ - سفر القضاة - الإصحاح ٣ - ٨، تسلط عليهم الفلسطينيون لمدة ٨ سنوات.

٤ - سفر القضاة - الإصحاح ٤ - ٢٠، تسلط عليهم الفلسطينيون لمدة ٢٠ سنة.

٥ - سفر القضاة - الإصحاح ٦ ٧-، ١، تسلط عليهم الفلسطينيون لمدة ٧ سنوات.

٦ - سفر القضاة - الإصحاح ١٠ - ١٨، تسلط عليهم الفلسطينيون لمدة ١٨ عاماً.

٧ - سفر القضاة - الإصحاح ١٣ - ٤، ١، تسلط عليهم الفلسطينيون لمدة ٤٠ عاماً.

٨ - سفر القضاة - الإصحاح ١٤ - ٤، ١ تسلط عليهم الفلسطينيون لمدة ٢٠ عاماً.

إذن المجموع هو ١٧١ سنة، فترة سيطرة الفلسطينيون على اليهود باعتراف أسفار بني إسرائيل، وهو رقم مرجح، إن لم نكتشف خلال البحث أرقاماً مضافة تغير القيمة.

علماً أن فترة موسى ويوشع كانت فترة قتال وسعي لاختراق الكيان الفلسطيني بزرع كيانات يهودية أو تجمعات سكانية هنا وهناك، وفترة سيدنا موسى تحمل سفر الخروج و أحداثه مع تيه بني إسرائيل، علماً أن فترة حاكمية وحروب يشوع، فترة غير مستقرة انتهت بقرعة على أرض الآخرين: "فدعا يشوع جميع إسرائيل وشيوخه ووزراءه وقضاته وعرفاءه وقال لهم: أنا قد شخت تقدمت بي الأيام، وأنتم قد رأيتم كل ما عمل، انظروا قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكاً حسب أسباطكم". (سفر يشوع:٢٣-٥)[(١)].

حيث تمت القرعة، وتم توزيع بعض الأراضي في عهد يوشع، وكذلك كانت هناك المصادمات العسكرية القوية لتعطي تأكيداً وانطباعاً أن الوجود الفلسطيني قوي، وما هذه القرعة أو (الكيانات) إلا فعل طارئ، إذ كثيراً ما تذكر التوراة عن إبادة كاملة تصل إلى حد حرق المدن وسبي الموجودات، ثم يبرز بعد أسطر أو إصحاحات الكيان الفلسطيني ليقاتل في الأماكن نفسها التي ذُكرت، ومثال على ذلك: ما جاء في (سفر القضاة: ١ - ٨): "وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار. وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين"، ثم تتراجع المعلومة لتقدم لنا أمراً آخر يختلف في (سفر القضاة:

(١) في النص نزعة استعمارية عالية في عملية توزيع الارض، وفي طريقة حديث يوشع بقوله أرض هولاء الشعوب، وبطريقة القرعة، مما يدل على الاستخفاف بشعوب الارض.

١ - ٢١): "وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنياميين في أورشليم إلى هذا اليوم". ففي النص إقرار لملكية اليبوسيين لأورشليم، ونقض لما ذُكر في أول الإصحاح، ومثل هذه الحوادث كثيرة جداً، مما يدلل على عدم القدرة لإلغاء الوجود الطبيعي للشعب الفلسطيني.

إنه لمن الخطأ اعتبار سفر القضاة دالة على ظاهرة الاستقلال السيادي لليهود، فهم تكوين قبلي لهم مشيختهم القبلية (أي مرجعيتهم القبلية) سميت "القضاة"، أنما حقيقة الأمر أن الفترة من حيث التكوين السياسي فلسطينية.

وعند الحديث عن الدولة أو مملكة أو هيكلية دولة يتسارع إلى الذهن فعل مرادف لهما، هو البنية التحتية للدولة، أو مفهوم السيادة. وقد كانت الهيمنة الفلسطينية من القوة والأثر مما ترك أثراً فلسطينياً واضحاً على كل معالم السيادة اليهودية، فلم تكن هناك سيادة فكرية، وسيادة عسكرية، وسيادة استقلالية، للكيان العبري العابر خلال تواجده الطارئ في فلسطين.

أولاً: السيادة الفكرية: إن الاستقلال الفكري دالة على السيادة، وليس هو كل السيادة، ورغم هذه الجزئية المهمة إلا أنها كانت ملكاً للفلسطينيين، وكان الأثر لأبناء البلد واضح المعالم خلال تاريخ اليهود العابر في أرض فلسطين.

لقد بينا في بحوثنا السابقة أن الدالة الثقافية لشعوب الشرق قديماً هي الأديان، وكانت الآلهة المعبودة هي تعبير عن شخصية وحضارة تلك الشعوب، وأي تغير في الإله المعبود هو تغير في منظومة القيم الثقافية لهذه الشعوب ، وعلى الرغم من البعد الاقتصادي للحروب، فإن زعامة إله ما كانت ضرورة من ضروريات الحرب، وعليه فمقياسنا للبعد الفكري لليهود هو بقدر ما حرصوا على إلههم يهوه. وكتاب "العهد القديم" كوثيقة تاريخية يهودية هو تعبير عن الحالة اليهودية، وهو يزخر بكم هائل من المعلومات عن الارتداد والخروج عن طوع يهوه، حتى بدا "العهد القديم" كتابَ سجالٍ بين شعب متمرد ومعبود تائه يبحث عن من يعبده.

ومنها:

١ - سفر القضاة: ٢ - ١١: "وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم، وتركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب

الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب ".

٢ - سفر القضاة: ٣ - ٦ : "فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم ". وهو نص يوضح قوة التسلط الفلسطيني وبيان الأثر الديني لأبناء البلد على الوافد الغريب.

٣ - في قصة جدعون بن ليواش دالة على ما نذهب إليه، فجدعون ذو مزايا:

أ- "فظهر له ملاك الرب وقال له الرب معك يا جبار البأس.القضاة: ٦".

ب - هو الذي كلم الرب، مما اضطر رب التوراة إلى التفاته إلى جهة:

"فالتفت إليه الرب وقال: إذهب بقوتك هذه وخلّص إسرائيل من كف مديان". (القضاة: ٦).

ج - ثم تلقى أمراً من يهوه بهدم معبد للأوثان كان عند أبيه: "وكان في تلك الليلة أن الرب قال له خذ ثور البقر الذي لأبيك وثوراً ثانياً ابن سبع سنين واهدم مذبح البعل الذي لأبيك واقطع السارية التي عنده". (القضاة: ٦). ففعل كل ما طلب منه حرر.. بني إسرائيل من مديان، وهدم معبد البعل الذي لأبيه، وبعد تحقيق نصركاسح على بني مديان وسلب ما عندهم من حلي وذهب ، يرتد جدعون.. والتعبير التوراتي عن الرد هو الزنا.

"فصنع جدعون أفواداً وجعله في مدينته في عفرة وزنى كل إسرائيل وراءه هناك". (سفر القضاة٨). ثم يأتي التبرير المعهود للانحراف: "فكان ذلك لجدعون وبيته فخاً": (القضاة:٨).

وعلى الرغم من الأوصاف التي منحت لجدعون بعد زنا جدعون وشعب إسرائيل وراءه، استقرت إسرائيل أربعين عاماً، وخلفه ولداه، ورغم طول الفترة وحالة الاستقرار التي دامت أربعين عاماً كانت الردة أشد وأعنف.

"وكان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزنوا وراء البعيلم وجعلوا لهم بعل بريث إلهاً. ولم يذكروا الرب إلههم الذي أنقذهم من يد جميع أعدائهم من حولهم". (القضاة: ٨ - ٢٢)، فأين الأثر الديني والثقافي لليهودية على اليهود. والد جدعون يمتلك معبداً لآلهة غريبة ، وبعد وفاة جدعون ارتداد على يهوه إله جدعون.

إن كل أسفار بني إسرائيل هي تأكيد لحقيقة ثقافية عالية الوضوح في الوثيقة اليهودية، هي الأثر الفكري والديني للكنعانيين و اليبوسيين والفلسطينيون، مع أثر لكل التنويعات العربية المتواجدة في وقتها على القبيلة العبرية.

بل إن الفوضى والتمرد والعصيان الديني وعدم وجود رابط ديني عبّر عنه آخر سفر للقضاة بآخر جملة للسفر نفسه بقول السفر: "في تلك الأيام لم يكن لبني إسرائيل ملك، وكان كل واحد منهم يعمل على هواه". (سفر القضاة: ٢١ - ٢٥).

ثانياً: سيادة استقلال البلد: إن ما قدمناه من نماذج على سيطرة الفلسطينيون على القبيلة العبرية لم يكن ميزة عهد القضاة، وكذلك في عهد صموئيل أول، تذكر لنا الأسفار ما يلي:

١ - "وخرج إسرائيل للقاء الفلسطينيون للحرب ونزلوا عند حجر المعونة، وأما الفلسطينيون فنزلوا في أفيق... فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته، وكانت الضربة عظيمة جداً وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل، وأخذ تابوت الله ومات ابنا عالي حفني وفيحاس". (صموئيل أول: ٤ ،٨، ١).

٢ - بل إن الأمر يزداد سوءاً، حيث يصاب اليهود بالفزع والخوف من كل معركة، وقبل كل معركة، إذ يصف لنا صموئيل هذه الحالة بقوله: "فسمع الفلسطينيون أن بني إسرائيل قد اجتمعوا في المصفاة، فصعد الفلسطينيون إلى إسرائيل. فلما سمع إسرائيل خافوا من الفلسطينيون، وقال بنو إسرائيل لصموئيل لا تكف عن الصراخ من أجلنا إلى الرب إلهنا فيخلصنا من يد الفلسطينيين"، (صموئيل أول: ٧ - ٨).

٣- وانتهى عهد أول ملك من ملوك إسرائيل قتيلاً بيد أهل البلد، إذ كانت نهاية شاؤل بشكل مأساوي: "وحارب الفلسطينيون إسرائيل فهرب رجال إسرائيل من أمام الفلسطينيون وسقطوا قتلى في جبل جلبوع، فشد الفلسطينيون وراء شاؤل وبنيه وضرب الفلسطينيون يونثان وأبيناداب ومليشوع أبناء شاؤل، واشتدت الحرب على شاؤل فأصابه الرماة رجال القسي فانجرح جداً من الرماة، فقال شاؤل لحامل سلاحه استل سيفك واطعني به لئلا يأتي هؤلاء ويطعنونني ويقبّحوني، فلم يشأ حامل السلاح لأنه خاف جداً، فأخذ شاؤل السيف وسقط عليه"، (صموئيل أول: ٣١ - ٦، ١). نهاية مؤلمة بسبب انتحار مسيح الرب شاؤل لعدم قدرته على تحمل جرح أو تحمل انكسار عسكري وهو ملك.

٤ - وكانت أيضاً حرب بين الفلسطينيين وإسرائيل، فانحدر داود وعبيده معه وحاربوا الفلسطينيين: "فأعيا داود وبشي بنوب الذي من أولاد رافا، ووزن رمحه ثلاثمائة شاقل نحاس، وقد تقلد جديداً افتكر أن يقتل داود. فأنجده أبشاي ابن صروية فضرب الفلسطيني وقتله، حينئذ حلف رجال داود له قائلين: لا تخرج معنا إلى الحرب ولا تطفئ سراج إسرائيل". (صموئيل ثانٍ: ٢١ - ١٧، ١٥).

النص السابق يوضح سطوة الفلسطينيين القتالية، حيث بعد أن أفلحوا بإزاحة شاؤل تكررت العملية من قبلهم مع داود، فينصح رجال إسرائيل داود خشية ضياع الملك من إسرائيل، وفي النص عبارة: "أعيا داود" أي أتعب داود وضربه، ولكن ضربته لم تكن موفقة مثل التي حصلت لشاؤل دليلٌ على مكنة الفلسطينيين في عهد داود، وأفضل تعبير عن حالة عدم التوازن وعدم الاستقرار في عهد داود ما قاله الملك سليمان عن وضع أبيه، ما جاء في سفر الملوك: "فأرسل سليمان إلى حيرام يقول له أنت تعلم داود أبي أنه لم يستطع أن يبني بيتاً للرب إلهه بسبب الحروب التي أحاطت به". (سفر ملوك أول: ٥ - ٤)، فعموم الوضع في المملكة المأزومة، من بدايتها مع شاؤل يشير إلى أنها لم تستقر، وذلك بسبب الاحتراب الداخلي بين شاؤل وداود من جهة، والصراع الدموي حول حيازة الأرض بين شاؤل والفلسطينيين من جهة أخرى. إذ بعد مقتل شاؤل انقسمت إسرائيل إلى قسمين:

أ- يهوذا، الملك عليها داود.

ب - إسرائيل، الملك عليها أبيوشت بن شاؤول.

واستمر الصراع بين أبيوشت وداود سبع سنين. إذن هناك قسم كبير من عمر مملكة داود التي جاءت على أنقاض شاؤول حدثت فيه حرب داخلية، ثم انتقل الصراع إلى أصغر حلقة في التكوين العبري، حرب الأسرة الواحدة، إذ حدثت حرب ضروس بين الابن وأبيه، حيث دارت حرب شديدة بين أبشالوم وداود كادت تنهي المملكة وحياة داود بالمرة، ثم أطلّت حرب داخلية أخرى بين سليمان وأخوته، عندما عين داود ابنه العاشر سليمان ملكاً على بني إسرائيل، وهو لم يتجاوز ١٢ عاماً من العمر فانقسم البلاط الملكي (الأسري) إلى قسمين:

أ- جماعة أدونيا - الابن البكر.

ب- جماعة سليمان الابن الأصغر. وانتهى الصراع بقتل سليمان لأخيه وبقتل يوآب قائد جيش

أخيه عند قرن الدهن في خيمة الرب في قدس أقداس اليهود، وبذلك يكون سليمان أول نبي شرع بجواز قتل الناس في بيوت الله. ولم تكن فترة سليمان بالفترة الساكنة، على الرغم من الحالة التقريرية لما يذكر في أسفار بني إسرائيل لتوصيف الحالة، نورد بعضاً منها:

أ- "وأقام الرب خصماً لسليمان هو هدد الأدومي". (الملوك أول: ك١١- ١٤).

ب- "وأقام الله له خصماً آخر هو رزوق بن اليداع". (الملوك أول:١١-٢٣).

ج- "ويربعام ابن صردة رفع يده على الملك". (الملوك أول:١١-٢٦).

د- ثم تأتي الطامة الكبرى لشدة صراع (الإمارة) وتحولها إلى قسمين، ونلاحظ الغطاء الديني المسبق لها من قبل كاتب التوراة، حيث يذكر لنا أنها كانت ضمن نبوءة إلهية وليست نتاج صراع:

"قال الرب إله إسرائيل هاأنذا أمزق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط، ويكون له سبط واحد". (الملوك أول:١١ - ٣١).

وإذا كان الوضع العام للتاريخ القبلي للعشيرة العبرية على هذه الصورة، فما هي آلية العلاقة بين هذه المكونات، وما هي خصوصيتها، من حيث البناء العسكري الذي هو المقوم الحقيقي لمعيار الدولة قديماً. فالتكوين العسكري أو الظاهرة العسكرية قديماً هي مقياس لطبيعة العلاقات الاجتماعية، وهي كذلك حتى عصرنا الحديث، إذ أن للتشكيلات العسكرية ونموها وطبيعة تكوينها وممارساتها دوراً مهماً في مؤسسة الدولة. فما هي الظاهرة العسكرية في الكيان العبري القديم؟

إن الجواب على سؤالنا هذا يقودنا إلى التبويب الثالث من بحثنا حول السيادة العسكرية.

ثالثاً: السيادة العسكرية: للسيادة مقومات أساسية، ومن أبرزها البنى التحتية، حيث تأتي البنية العسكرية على رأس هذه البنى وتتمثل في الجيش. ورغم فاعليه القوة العسكرية لإظهار السيادة الوطنية في الوقت الحاضر، إلا أن هذه الميزة هي الهيكلية الأساسية لتشكيل الدولة قديماً. فهل كانت الظاهرة اليهودية تتمتع بهيكلية عسكرية أو بنية تحتية عسكرية لليهود، أم كانوا فعلاً هامشياً، حيث تحدثنا الوثيقة اليهودية (العهد القديم) عن

كون التكوين العسكري العبري لم يكن سوى مجموعة عسكرية تحت الطلب لمن يدفع.

من الملاحَظ أن عموم العلاقة التي تربط القبيلة العبرية بعضها ببعض اتسمت بشدة الفوضى والتسلط فيما بين أفرادها إلى أن وصفهم سفر القضاة:

١ - "حينئذ تسلط الشارد على عظماء الشعب". (القضاة: ٥ - ١٣)، أي تسلط عوام الناس من المتشردين والخارجين على القانون، إذ يؤكد السفر نفسه على هذه الميزة بقوله:

٢ - "فأستأجر بها أبيماليك رجالاً بطالين طائشين فسعوا وراءه". (القضاة:٩ - ٦)، فمن نص يصف المتشرد هو بالمتسلط، إلى نص يوضح استئجار اليهود من قبل أحد المغامرين اليهود، لرجال سمتهم البطالة والطيش، وبذلك تقترب التوراة في وصفها أكثر لتوضيح طبيعة التكوين العسكري اليهودي بين (شارد وبطال وطائش وأجير)، فجمع النصان سمات القوة العسكرية الجنينة لليهود.

وأمام ظهور أبيماليك الذي ملك على اليهود بسبب مجموعة من الشاردين والطائشين الذين تم استئجارهم، قام أهل شكيم بسلوك مضاد له، ولكنه يتمتع بالخاصية نفسها.

٣ - "فوضع له أهل شكيم كميناً على رؤوس الجبال، وكانوا يستلبون كل من عبر بهم الطريق". (القضاة:٩ - ٢٥). وهنا تمت إضافة صفة جديدة هي السلب لكل عابر سبيل، وبهذا تتضح الصورة أكثر. حيث يتشكل العنصر العسكري اليهودي من سمات هي كلها قواسم مشتركة لما يعرف بـ "المرتزقة".

وفي سيرة داود في التوراة تتضح معالم الارتزاق بكل أشكالها، مما يعطي انطباعاً عن كون التكوين العسكري اليهودي لم يكن سوى ظاهرة مرتزقة ليس إلا.

٤ -"وقال داود في قلبه إني سأهلك يوماً بيد شاؤل، فلا شيء خير لي من أن أفلت إلى أرض الفلسطينيون، فييأس شاؤل مني فلا يفتش علي بعد في جميع تخوم إسرائيل فأنجو من يده". صموئيل ١: -٢٧ ٣، ١). هنا بداية النخر.. هروب داود إلى أخيش ملك الفلسطينيون، ولم يكتفِ داود بلجوئه إلى الفلسطينيون، بل تجاوز اللجوء إلى التابع المقاتل الذي يفتك بقومه وأهل ملته، حتى ينال رضا الاخرين.

٥- "فقال أخيش إذاً لم تغزو اليوم، فقال داود بلى، على جنوب يهوذا وجنوبي البرحمئيلين وجنوبي القينيين". (صموئيل١: -٢٧ ١٠). ولم يتوقف عند حد الاستجابة لما طلب منه،

بل تجاوزها بأن يغير على أهله في يهوذا، بل وصفت أسفار بني إسرائيل هذه الغارة بقولها:

٦- "فلم يستبق داود رجلاً ولا امرأةً، وأخذ غنماً وبقراً وجمالاً وثياباً ورجع إلى أخيش". (صموئيل ١: ٢٧ - ١٠). عندها جاء الرضا من سيده الجديد الذي يدفع ويسبغ عليه الحماية، فقال الملك أخيش، الذي وجد من يقتل اليهود عوضاً عنه:

٧- "فصدق أخيش داود قائلاً قد صار مكروهاً لدى شعبه إسرائيل فيكون لي عبداً إلى الأبد". (صموئيل ١: ٢٧ - ١٣). ولم يكن هذا السلوك من قبل داود هو سلوك سلالة مالكة، ولا تصرفه تصرف رجل دولة، بل هناك جزئيات في سلوك داود تدعو للدهشة: كيف يقوم نبي وملك بمثل هذا السلوك؟ فحين توجهت له علامات الشك من قبل الفلسطينيون لم يتوانَ عن سلوك مشين لا يليق به كملك أو نبي، فيصف لنا كاتب السفر تصرفَ داود بقوله: "فوضع داود هذا الكلام في قلبه وخاف جداً من أخيش ملك جت، فغير عقله في أعينهم وتظاهر بالجنون بين أيديهم وأخذ يخربش على مصاريع الباب ويسيل ريقه على لحيته، فقال أخيش لعبيده: هو ذا ترون الرجل مجنوناً، فلماذا تأتون به إلي، ألعلي محتاج إلى مجانين". (صموئيل ١: -٢١ ١٥، ١٠). بل لم يتوقف عند حد السلوك الشخصي، بل أصبح حجراً مهماً في الارتزاق، فبدأ يظهر علامات التوسل للقيام بعمل إجرامي بحق قومه ليعبر عن ولائه الجديد:

"فقال داود لأخيش، فماذا عملت وماذا وجدت في عبدك من يوم صرت أمامك إلى اليوم حتى لا آتي وأحارب أعداء سيدي الملك". (صموئيل ١: -٢٩ ١١، ٨).

وبقيت الظاهرة اليهودية تتنقل من صراع إلى صراع آخر داخل القبيلة العبرية، فمن كم هائل من الشخوص في "سفر القضاة "في احتراب دائم، إلى مرحلة صراع حادة بين الملك شاؤل والملك داود، ثم تنتقل عملية الصراع إلى أصغر دائرة هي القتال ما بين أولاد داود، ثم القتال ما بين داود وابنه أبشالوم، وما حدث لداود حدث لسليمان، حيث الصراع على أشده والقتال لم يتوقف بين أنصار سليمان وأنصار أخوته الذين لقوا حتفهم على يد الملك والنبي سليمان، ثم تعقب ذلك مرحلة صراع دامية تنقسم به الإمارة المزعومة بين أولاد سليمان، فتدخل الإمارة في صراع شديد بين الأخوة (يربعام بن سليمان ورحبعام بن سليمان)، حيث تصف التوراة إحدى المعارك بين الأخوة بفقدان نصف مليون مقاتل بمعركة واحدة، (أخبار

الأيام الثاني: ١٧-١٣). وهكذا دواليك بين القوى والشخصيات اليهودية حتى يطوي ذكرها سنحاريب بسبي اليهود إلى بابل، وينتهي ما يسمى بإمارة القبيلة العبرية.

وبالنسبة لما حدث من عودة إلى أرض فلسطين من خلال قورش الفارسي، لم تشكل العودة ظاهرة دولة، ولا حتى مشروع دولة بقدر ما اتسمت بسمة دينية هي تواجد ديني مرافق للأديان المتواجدة في أرض فلسطين.

إن تاريخ فلسطين هو كيان قائم بذاته يزاحم الخيال التوراتي والقصص الشعبية لأسفار بني إسرائيل التي تحولت مع مرور الزمن إلى تاريخ مقدس ثم إلى نص مقدس ذي دلالات إلهية.

وتاريخ فلسطين يقف معه العلم الحديث من علم الآثار إلى المكتشفات الحديثة، ويقف معه الذوق العقلي والعمق التاريخي لابن الأرض الذي لم يرحل عبر تاريخها الطويل.

إن زرع الوهم بثبات الظاهرة اليهودية كدولة خلال التاريخ القديم لفلسطين هو عملية تضليل للحقيقة والتاريخ. و قد آن الأوان على الإنسانية أن تقف وقفتها، خدمةً للعلم والتاريخ والحقيقة، في فضح هذا الوهم.

الجيتو اليهودي بين صرامة النص و غلو الممارسة

الجيتو ليس هو عزل إنساني للوجود اليهودي، بل هو عزل يهودي للظاهرة الإنسانية، ومرجع هذا العزل هو حالة الشعور بالتفوق والأفضلية، وتحول هذا الشعور إلى عقدة هي نتيجة عقدة التعالي اليهودي على النوع الإنساني.

وتعتبر المرجعية الدينية المتمثلة بالتوراة وأسفار بني إسرائيل والتلمود القاعدةَ التربوية للتكوين النفسي والفكري للشخصية اليهودية، حيث الاستعداد للغلو إلى حد العزلة.

لا يخفى أن من سمات سلوك الإنسان التعامل والاحتكاك مع أخيه الإنسان بمجموعة تعاملات لا حصر لها، والرابط في قوة التفاعل بين الإنسان وأخيه الإنسان هو الوفاء بجميع التزاماته، إذن فالوفاء هو مرشد العلاقة بين بني البشر، وانتفاء الوفاء بالعهد هو عزلة الناكث للعهود، لعدم دوام التعايش معه بسبب كثرة الخلل الناتج بالعلاقة معه. والغريب في التوراة أن من لوازم التدين عدم الوفاء بالعهد، يقول رب التوراة في (سفر الخروج: ٣٤-١٢): "أحترز من تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصير فخاً في وسطك". وبعد أسطر يأتي التأكيد الثاني بوجوب التحرز من كل عهد أو اتفاق (سفر الخروج: ٣٤-١٥): "احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض". إنها بذور العزل في العلاقة والتماس فيما بين اليهودي وأخيه الإنسان.

ثم يعقب ذلك تصعيد آخر لمزيد من العزل. يحدثنا (سفر التثنية: ٧-٦): "لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم". أي الدعوة إلى مزيد من التحايل وسوء التعامل يصل إلى حد عدم الإشفاق، وهو تعبير واضح عن العنف، والأدق هو ترخيص باستعمال العنف للتحلل من الالتزام بالعهود، والدين اليهودي هو الدين الوحيد من بين الأديان سماوية كانت أو أرضية، الذي يجيز استعمال القوة لنكث المواثيق المبرمة بين طرفين والتي كان أساسها التراضي والوفاء.

وهذه دالة خطرة على التعالي والاستخفاف ببني البشر من قبل اليهودية، ثم تأتي الرعاية الإلهية لكل عزل، لأن السبب الحقيقي لكثرة عدم الوفاء هو التحصن في قطعة أرض للعيش

في حياة عزلة خارج المجتمع الإنساني، كما نقرأ في (سفر القضاة:٢-٢): "وقلت لا أنكث عهدي معكم إلى الأبد، وأنتم فلا تقطعوا عهداً مع سكان هذه الأرض" فهو ارتباط عقائدي ديني مبني على قاعدة الابتعاد عن الإنسان، وعدم الانفتاح الاجتماعي والفكري والنفسي، لذلك قال رب التوراة ملزماً نفسه إنه لا ينكث بعهدة معهم ما داموا ملتزمين بسياسة النكث للعهود مع بني البشر.

ويستعرض لنا (سفر التكوين، الإصحاح ٣٤) حالة من أول حالات السلوك اليهودي بعدم الوفاء، حيث يذكر لنا علاقة عاطفية بين بنت يعقوب دينة مع حمور ابن شكيم، وبعد تعلق حمور بالبنت طلبها للزواج. وكان مهرها هو الختان، فاختتن بنو شكيم حباً ورضا بما تم من عقد بين الطرفين، فكان جواب بني يعقوب في (سفر التكوين: ٣٤-٢٥ ٢٩) هو: "فحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين أن بني يعقوب شمعون ولاوي أخوي دينة أخذ كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر. وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا. ثم أتى بنو يعقوب على القتلى فنهبوا المدينة. لأنهم نجسوا أختهم. وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في المدينة".

فهو أول إرساء لعملية الغدر وعدم التعايش مع الآخرين، وفيه كان السلوك المتعالي للعائلة اليعقوبية، كذلك كان في سلوك دينة إذ قالت عنها التوراة:"وخرجت دينة ابنة لية التي ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض"، فهي من جنس آخر، هي ليست من الأرض، هي من عالم آخر.وأمام المجزرة التي حدثت كان جواب يعقوب لما حدث: "أنا نفر قليل فيجتمعون علي ويضربونني فأبيد أنا وبيتي"، إذن هو الخوف من رد الفعل، وليس موقفاً أخلاقياً. ولم يكن هناك تحريم أو إدانة أخلاقية كونه كتاباً دينياً. فكانت فعلة يعقوب وأولاده أول (جيتو أخلاقي) بين هذا التكوين والعلاقات الإنسانية.

وقد يتبادر للذهن أن فعل أولاد يعقوب هو تصرف أخلاقي لرفضهم العلاقات الشائنة، إلا أن أسفار بني إسرائيل تقول غير ذلك، ففي سفر صموئيل يقول لنا كتاب أسفار بني إسرائيل في (الإصحاح ٢-٢٢): "وشاخ عالي جداً وسمع بكل ما عمله بنوه بجميع إسرائيل، وبأنهم كانوا يضاجعون النساء المجتمعات في باب خيمة الاجتماع. فقال لماذا تعملون مثل هذه الأمور؟ لا يا بني لأنه ليس حسناً الخبر الذي أسمع". فكل محصلة الأمر هو عدم استحسان، ولا ندري هل عدم الاستحسان مردّه الفعل الجنسي داخل المعبد أو حوله، أم مردّه الزنا

بذاته، والأرجح هو الفعل داخل المعبد لا أكثر. وفي ذلك حالة من حالات العنصرية المبالغ فيها: زواج مشروع بين عائلتين ينتهي بمجزرة، وأولاد عالي يجامعون النساء داخل المعبد، وكل ما تقوله الأسفار المقدسة مجرد عدم استحسان.

وتبرز روح التعالي اليهودية في سلوك يشوع بتعامله مع رحاب الزانية حسب وصف التوراة لها في (سفر يشوع ٦ – ١٧): "أن يشوع قال للشعب اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة، فتكون المدينة وكل ما فيها محرماً للرب. رحاب الزانية فقط تحيا هي وكل من معها لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلناهما". ليس مهماً أن تزني، بل المهم ما فعلت من أجل اليهود، بل وتستمر التوراة بإظهار صفة القداسة على الزانية رغم عدم يهوديتها، ولكن تكتسب شيئاً من ذلك لأنها قد قدمت خدمة لليهود: "واستحيا يشوع رحاب الزانية وبيت أبيها وكل مالها. وسكنت وسط إسرائيل إلى هذا اليوم". (سفر يشوع: ٦ – ٢٥). نبي من أنبياء بني إسرائيل وخليفة موسى وفاتح جزء من أرض الميعاد يقف خجلاً وقد ملأه الاستحياء من رحاب، لا لشيء إلا لكونها قد قدمت خدمة لليهوديين عندما دخلا أريحا. أنه تعظيم لكل فعل من أفعال التعاون والخدمات التي تقدم لليهود. هذا السلوك قديم مرافق للظاهرة اليهودية مع النشأة الأولى لها. فرحاب الزانية بصفتها التي ذُكرت دخلت التاريخ المقدس وأصبحت جزءاً من التاريخ المقدس لأنها فعلت شيئاً ما لليهود.

إذن ما هو اليهودي.. إنه لأمر أكيد هو أعلى من المقدس نفسه الذي يمثله الكتاب المقدس، ومثل هذا الجيتو الأخلاقي في السلوك والتعامل مع الآخر ليس في حادثة (دينة بنت يعقوب) فقط، بل كذلك نرى مثل هذا السلوك بخلق جيتو أخلاقي في السلوك المميز في الحالة الواحدة، وهذا ما نراه في قصة سيدنا موسى في أرض مصر.

من المعلوم عقلاً أن قوة الحق وشدة الذنب وبشاعة الفعل تعطي للعرف الاجتماعي أكان المذنب فرداً أو جماعة قوةً بأن يكون القصاص علناً وأمام الناس، إلا أن النص يوحي للقارئ بأن القتل تم غيلة وغدراً: "فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل". (سفر الخروج: ٢-١٣). إذن هي حالة تربص وحذر للقيام بفعل يستوجب الحيطة. ففي هذا التصرف قوة سلوك عنصري غير مبرر.. قوة الجزاء والعقوبة بالقتل وطمر المقتول سراً بسبب ذنب بسيط وهو الضرب. قد يكون هناك قسوة في الضرب، إلا أن عقوبة القتل غيلة لهذه العلة غير مبررة، وأمام هذا الغلو في السلوك بالقصاص يقابله هناك مشابهة، ولكن عقوبتها عتاب ولين طرف.

حيث يذكر لنا (سفر الخروج ٢ - ١٤): "ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان، فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك، فقال من جعلك رئيساً وقاضياً علينا؟". هنا موادعة وسؤال، بينما في الأولى قسوة وصلت إلى حد القتل، والفعل واحد: هو ضرب إنسان لإنسان. إن هذا الفعل وتراكم هذا الفعل هو جيتو أخلاقي يفرضه اليهودي على نفسه في السلوك والتعامل.

إنه التعالي في السلوك.. هذا التعالي هو الجدار الحقيقي للجيتو، عندما يستعلي إنسان على أخيه الإنسان، أي يتجاوزه ولا يتعامل معه، أي سيكون هو بوادٍ والآخر بواد، فعقدة التعالي هي حجر الزاوية في كل حالة عزل، سواء كانت عقدة فردية من شخص لشخص أو من مجموعة لمجموعة، وهذا ما حدث للظاهرة اليهودية. عقدة التعالي هي نواة العزل.

وتنهال النصوص المقدسة لتكرس ظاهرة التعالي والغطرسة وتأخذ منحى تصاعدياً، ففي الأولى يحدث الاختيار، ثم الحلول، حيث يحل الرب وسط العائلة المختارة، وبعدها تتم القداسة، إذ يصعب التمييز بين ما هو مقدس وبين ما هو مخلوق قابل للتغير، حيث الكل يحمل صفة القداسة مع الإصرار على ديمومة القداسة. رغم ما ينتج من فعل مخالف للقدسية أو لأبسط أمور القيم السامية.

ومن تلك النصوص:

١- "أنا الرب إلهكم الذي ميزكم من الشعوب". (سفر لاوين ٢٠-٢٤). هنا تتوضح مرجعية التميز بقرار إلهي بقول الرب إني ميزتكم. فهو تميز نوع، وتميز في السلوك لهم ما لهم، لا يحاسَبون ولا يُدانون على شيء، فليس لأحد امتلاك أمر حسابهم، لأن الرب ميزهم بميزة خاصة.

٢- "وأتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً فتعلمون أني أنا الرب إلهكم". (سفر الخروج:٦-٧). الميزة المختارة أن يكونوا للرب شعباً.

٣- "وتكونون لي قديسين لأني قدوس أنا الرب. وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي". (سفر لاوين: ٢٠-٢٦). هنا حالة التميز والبحث للاختيار، وبعدها تأتي القداسة مع الاختيار.

٤- كما ورد في (سفر التثنية:١٤ - ١، ٢): "أنتم أولاد للرب إلهكم، لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجهه الأرض".

فهو شعب مقدس، وشعب خاص، وهو كذلك فوق شعوب الأرض. نجد فيما تقدم تعالياً في النص ينتج عنه تعالٍ في التربية الفكرية والنفسية لليهودي، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهل الأثر التربوي للنص في خلق الشخصية العنصرية لليهودي.

وعلى الرغم من تنوع التشريع اليهودي وغرائب تقنينه، نجد أن كل نصوصه تحمل عقدة التميز والتفاضل، فمن مفاصل التعامل المالي بين اليهودي واليهودي أو اليهودي وأخيه الإنسان نرى أن قوانين الربا في التوراة تحمل قوة التعالي، حيث تجيز الشريعة اليهودية استغلال اليهودي للإنسان، وتحرم مثل هذا الأسلوب والممارسة بين اليهود أنفسهم.

١ - جاء في (سفر اللاويين: -٢٥ ٣٥): "إذا افتقر إسرائيلي عندك وقصرت يده عن العيش فأعنه وليعش معك كغريب ومقيم، لا تأخذ منه رِباً ولا ربحاً بل اتق إلهك فيعيش معك، لا تقرضه مالك بربا ولا تطعمه بربح، أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر لأعطيكم أرض كنعان وأكون لكم إلهاً".

٢ - جاء في (سفر التثنية، الإصحاح٢٣ - ٢٠): "لا تقرضوا إخوتكم من بني قومكم بربا يدفعونه إليكم أو طعاماً أو أي شيء آخر مما يقرض بالربا، ولا تقرضوا إخوتكم من بني قومكم فيبارك إلهكم جميع أعمال أيديكم في الأرض التي أنتم داخلون لتمتلكوها".

٣ - ذكر في (سفر التثنية، الإصحاح ٢٣-٢٢): " بل اقرضوا الغريب بالربا ولا تقرضوا إخوتكم من بني قومكم". فهو تأكيد على إلزام اليهودي بإقراض الغريب رِباً، وهو إلزام بعدم إقراض اليهودي بربا.

وفي رق الإنسان لأخيه الإنسان نرى المنهج التربوي نفسه. دليلاً على ازدواجية المعايير، فهناك تعاليم بفك رق اليهودي، وتعاليم بتشديد العبودية على غيره من بني البشر. تقول التوراة في (سفر اللاويين: ٢٥ - ٣٩، ٤٦): "وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد. كأجير كنزيل يكون عندك. إلى سنة اليوبيل يخدم عندك. ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته. وإلى ملك آبائه يرجع. لأنهم عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر لا يباعون بيع العبيد.

وأما عبيدك وإمائك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم. منهم تقتنون عبيداً وإماءً. وأيضاً عندكم. المستوطنين النازلين عندكم... الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون

ملككم. وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك. تستعبدونهم إلى الدهر". التعاليم هنا واضحة بعدم جواز رق واستملاك اليهودي وذلك للسبب نفسه، لأنهم عبيد الرب، فلا يجوز بحقهم أي أمر تؤمر به الإنسانية سلباً، بحكم طبيعة الحياة وتطور الصراع الإنساني، أما بنو البشر فيجوز بحقهم الاستعباد والوقوع تحت الرق، بل يبقى الإنسان الآخر رقاً مملوكاً ما بقي حياً، إذ قال رب التوراة بحقه: "تستعبدونهم إلى الدهر"، أي لا مجال للحرية لبني البشر بحكم الرق اليهودي، بل الحرية، كل الحرية، لليهودي فقط. إنها العنصرية العرقية المبالغ فيها بحق الإنسانية.

من خلال هذه النصوص تنتج منظومتان من القيم:

أ- قيم داخل التكوين اليهودي، حيث العلاقة حميمية مترابطة.. قيم داخلية في صميم التكوين اليهودي لا تخرج إلى الأعلى وكأنها كتلة صلبة صماء.

ب- ومنظومة قيم خارجية مع الإنسانية جمعاء يسودها الجفاف والقطيعة، الرابط الرئيسي بين هذا التكوين والوجود الإنساني هو العامل الاقتصادي، فبقدر المصلحة والتبادل النفعي تحدث العلاقة، فهي علاقات مادية بحتة غير حميمية وغير إنسانية.

وتعبّر لنا التوراة عن أول جيتو في عصر الآباء الأوائل، حيث دخل يعقوب وأولاده أرض مصر، ومثلوا، بين يدي فرعون. يذكر لنا (سفر التكوين: ٤٧: ٤، ٥): "وقالوا لفرعون جئنا لنتغرب في الأرض. إذ ليس لغنم عبيدك مرعى. لأن الجوع شديد في أرض كنعان. فالآن ليسكن عبيدك في أرض جاسان". فأول علامات العزلة طلب العيش في جاسان، إذ لم يندمج التكوين العبري الأول مع المجتمع المصري، بل طلب العزل والعيش خارج التكوين الاجتماعي للدولة المضيفة، ومن جاسان انطلق التكوين الفكري للعزلة، فأصبحت الرغبة النفسية بالعيش في أحياء خاصة باليهود محكومة بالخلفية الدينية، وهذا يتضح لو تتبعنا تاريخياً سلوك اليهود الانعزالي:

١ - "آثر اليهود العيش في داخل أحياء الجيتو، فقد حدث سنة ١٨٠٤ أن ذهب وفد من زعماء اليهود إلى حاكم مدينة (شيبر) وطلبو منه السماح لهم بالإقامة في حي خاص بهم".

٢ - "على الرغم من الحرية المعهودة التي لقيها اليهود خلال الدولة العثمانية وتسلّمهم لمناصب عديدة، نجد في عهد السلطان أورخان (١٣٢٦-١٣٦٠) أن الطائفة اليهودية في

(بروسة) طلبوا أن يكون لهم حي خاص بهم يسكنه اليهود فقط، وفعلاً تجمع اليهود في حي خاص بهم يسكنه اليهود فقط عرف باسم (يهود محلي)".

٣- وفي روسيا وبعد انضمام قسم من بولندا سنة ١٧٧٢، أصبحت الجالية اليهودية من أكبر الجاليات في روسيا، فقامت الإمبراطورة كاترين الثانية (١٧١٢-١٨٠١) بحركة إصلاح وضع اليهود، من أجل تحسين حالهم ودمجهم بالمجتمع الروسي، ثم أعقب كاترين ألكسندر الأول بإصدار مرسوم في عام ١٨٠٤، عُرف بـ "دستور اليهود"، ولم تتوقف ظاهرة معالجة العزلة اليهودية في المجتمع الروسي حتى الثورة البلشفية، إلا أن اليهود كانوا يجابهون ظواهر الإصلاح بمزيد من الانغلاق، وكانت اليهودية، ولا تزال، من أشد التجمعات عداءً للاندماج والانفتاح الاجتماعي، لاعتقادها الراسخ أن الاندماج والانفتاح يقضي على الظاهرة اليهودية.

لذلك كانت مظاهر تقوية الجيتو وترسيخ مفاهيم العزل تتمظهر بأشكال مختلفة بين الحين والآخر لإبقاء الظاهرة اليهودية متميزة بعيدة عن النسيج الاجتماعي ومنها:

أ- القاهال: "كان القاهال يمثل كل أنواع الحياة اليهودية الدينية والتعليمية والقانونية والصحية والمالية والاجتماعية، وكان لدى كبار موظفي القاهال سلطات ضخمة يؤثرون بها على المحاكم وعلى لجان الضرائب، وكان القاهال هو الناطق بلسان اليهود، وكان يسيطر على كل شؤون الحياة الداخلية للطائفة اليهودية، وكان يقوم بجمع الضرائب المفروضة على اليهود".

ب- الحاسيدية: "ومع تداعي سلطة القاهال كإطار تنظيمي في الجيتو، ظهرت الحاسيدية كإطار تنظيمي جديد استطاع أن يحل محل القاهال ليرعى شؤون اليهود داخل الجيتو، وحققت الحاسيدية نجاحاً واسعاً في شرق أوروبا نتيجة الفقر والبؤس الذي كانت عليه الجماهير اليهودية".

ج- حفروت: "وعلى الرغم من إلغاء القاهال فقد كان يوجد داخل الجيتو جمعيات تسمى بالعبرية (حفروت)، وكانت كل جمعية أو حفراة تساعد نفسها بنفسها، كما كانت تلبي عدداً كبيراً من متطلبات الحياة اليهودية والمهنية والثقافية والدينية والخيرية والاجتماعية، فكانت هناك حفراة مختصة بشؤون الدفن، وجمعية أخرى تهتم بشؤون اليتامى وبيوت العجزة والمسنين، إلخ..".

وأمام هذا السرد المتواضع والمختصر يبقى العامل الفكري في تحييد اليهود إلى حد الجمود هو الفاعل والمهيمن، ومن أشد أنواع الجيتوات هو الجيتو الفكري المتمثل بعودة المسيح المنتظر الذي سيخلص الوجود اليهودي. هذا الفكر وهذه العودة اعتبرتا من المسلمات الفكرية لدى اليهود التي لا يجوز تجاوزها، وهو ما يسمى بـ "الجيتو الفكري".

ثم تبع ذلك إضافات الحاخامات من خلال تعاليم ظهرت عبر التلمود والسلوك، فكان هناك نمط للملابس يتميز به اليهودي عن الآخرين، مثلما تميز اليهود بطريقة الذبح وتناول المأكولات، والعبادة، والزواج. كلها أمور حوّرت لتكون مميزة، وبتميزها وبروزها كدالة على اليهودية، فقد كانت هي وسيلة للدلالة على العزل، وهي مظهر من مظاهر الجيتو، ثم تلاها تعاليم متباينة بين بني البشر مما يثبت حاله التعالي النفسي لدى اليهودي تجاه أخيه الإنسان في الفكر وفي السلوك والملبس والمأكل.

إذن، فمجموعة منظومة القيم في التشريع اليهودي التي تتحدث عن مجموع العلاقات الإنسانية يتضح منها أن هناك خطا بيانياً نحوه الأعلى في زيادة عزل اليهودي عن محيطة الإنساني من خلال تعاليم التوراة بمجموع قراراتها التي تعطيه أفضلية نفسية وكبراً ذاتياً مبالغاً فيه، فلا وفاء بعهد لأن اليهودي على الدوام الأفضل والأحسن، لماذا الوفاء مع الأدنى؟ شرعية قتل الآخر لأن اليهودي هو الأفضل. جواز اغتصاب نساء العالم لأنه الأكرم. ولا تعامل اقتصادي نزيه يسري على الجميع، إنها مطبات تتعاقب مع مرور الزمن لتشكل جداراً عالي البناء بين الإنسانية جمعاء.. هذا التكوين القبلي الصغير هو الجيتو الحقيقي، هو العزل الفعلي الذي بناه اليهود عبر التاريخ على أنفسهم وعلى تاريخهم ووجودهم.

يتضح لنا أنه لا يوجد جيتو واحد، بل أنواع من الجيتوات، فهناك جيتو عرقي، وجيتو أخلاقي، وجيتو اجتماعي، وجيتو سياسي، وجيتو فكري. لم تصنعه الإنسانية، بل صنعته العقلية اليهودية على نفسها بنفسها، لعدم قناعتها بالعيش السوي مع مجموع الإنسانية، وعندما فرضت قوى التغيير في العالم بسبب حركة التنوير وقوه الفكر العلماني عُوضت اليهودية عن مجموع الجيتوات المتناثرة في العالم إلى جيتو كبير هو إسرائيل، واهمةً أن في البديل الكبير حلاً للمشكلة اليهودية، إلا أن المنطق والتاريخ يثبتان لنا أن هذا الجيتو المهزوز والمزعوم لن يدوم طويلاً، فقد أخطأ الحل والمكان.

والقتل قد يأخذ صفة تعبدية، إلا أن ما بعدها سعي لتحصين الكيان اليهودي بسياج من أوامر القتل هي النواة الفعليه للاستيطان، والاستيطان قد يبدأ من المعبد ويمتد إلى أعلى لتشكيل ظاهرة المستوطنات منها.

من وصايا الرب لهارون في (سفر العدد، الإصحاح ١٨-٧): "أنت وبنوك تحفظون كهنوتكم مع ما للمذبح، وما داخل الحجاب، والأجنبي الذي يقترب يقتل". وجاء أيضاً ضمن الوصايا لموسى في (سفر العدد، الإصحاح ١: ٥٠): "واللاويين يحملون مسكن الشهادة وكل أمتعته، وهم يخدمونه، وحول المسكن ينزلون. فعند ارتحال المسكن ينزله اللاويين وعند نزول المسكن يقيمه اللاويين، والأجنبي الذي يقترب يقتل". يلاحظ من مجموع هذه النصوص سمة مشتركة هي القتل، ثم التحصين، ويتبعه تصعيد ينتهي بالعزل.

العسكرة سمة توراتية

لكل دين سمة يتميز بها، فعند الحديث عن الإسلام يتبادر إلى الذهن مفهوم العقل ودور الإسلام في ترسيخ العلم والحث عليه، والدعوة إلى العفو كسمة ملازمة للمسلم، وعند الحديث عن المسيحية الحقّة يتبادر إلى الذهن مفهوم التسامح.

أما الحديث عن اليهودية فأوليات الفعل فكراً وممارسةً هو الفعل العسكري، فلا يوجد دين يحث على العامل العسكري، ابتداءً من الظاهرة الفردية كشخص يهودي ثم صعوداً إلى الظاهرة الاجتماعية التي هي المستوطنات، وصولاً إلى الرب المعبود وهو يهوه.

وتتمثل هذه السمة من خلال مواقف التوراة بمحاورها الثلاث:

المحور الأول: الموقف من الإله المعبود.

ويتميز موقف الديانة اليهودية من الإله المعبود بكل سمات الغلو:

لا يوجد دين لا يعبر فيه الرب المعبود عن الرعاية والحماية لمن يطيعه ويقر بالعبودية له، فبين رعاية ووعود إلهية يتنقل العبد لتحقيق مرضاة معبوده.

إلا أن التوراة تنتقل من حالة الاعتدال في العلاقة بين العبد والمعبود، إلى حالة توحد كاملة. فيصبح بها العبد يتحلى بكل صفات الرب المعبود. ومرد هذه الحالة هو الإقرار بمقولة الحلول والاتحاد، ويصل الحلول مداه إلى حد الإطلاق لكثرة النصوص المقرة لهذا المبدأ، بل إن اليهودية تتجاوز في اعتناق هذا المبدأ الأديانَ الأرضية في فرط غلوها في هذا الباب.

للتوراة شطحات: حيث تبدأ الشطحات عموماً بسبب الغلو في كل مفصل من مفاصل العبودية، للتحول إلى سمة إلهية لدى العبد، فهناك غلو في المعية، ينتج عنه غلو في تحدي الإرادة الإلهية، فيكون العبد هو الآمر، ثم يأخذ الغلو مأخذه فيكون هناك الإطلاق في الحلول، أي حلول الله في العبد، كأعلى سمة تتميز بها الديانة اليهودية.

ويظهر الغلو في المعية بقول النبي أشعيا في (سفر الإصحاح، ٤٣): "وهكذا يقول الرب خالقك يا يعقوب وجابلك يا إسرائيل. لا تخف لأني فديتك.. إذا اجتزت في المياه فأنا معك.

وفي الأنهار فلا تغمرك. إذا مشيت في النار فلا تلذع، واللهب لا يحرقك لأني أنا يهوه إلهك قدوس مخلصك". وفي هذا الاستعراض نرى سمات الغلو في المعية الخصوصية.

أما الغلو في تحدي الإرادة الإلهية، فيتضح ما قاله إيليا في (سفر الملوك أول، الإصحاح ١٧: ١و٣): "حي هو يهوه إله إسرائيل... إنه لا يكون طل ولا مطر في هذه السنين إلا عند قولي.. فغضب عليه آخاب فهرب إيليا من وجهه واختبأ عند نهر كريث".

وحول الغلو في الاصطفاء، يقول موسى في (سفر الخروج، الإصحاح ٣٣:١٦): "نمتاز أنا وشعبك عن جميع الشعوب الذين على وجه الأرض"، فهنا يصبح الله وموسى واليهود أمراً واحداً، يتميزون عن باقي شعوب الأرض، فهو حلول في الفرد وحلول في الجماعة، فلا تستطيع تمييز الله عن الفرد اليهودي.

ومرد هذه الخصوصية إلى التمييز المسبق من قبل يهوه لهم، حيث يذكر ذلك في سفر الخروج قائلاً لهم: "أنا يهوه إلهكم الذي ميزتكم من شعوب الأرض".

ويؤكد ذلك في (سفر اللاويين، الإصحاح ٢٠): "وقد ميزتكم لتكونوا لي".

ومن غلو في الخصوصية إلى غلو في حلول الرب في الجماعة، حيث يصطبغ اليهود جميعاً بالقداسة. وهذا المفهوم ليس من المفاهيم العابرة في التوراة، فقد ذكر (سفر العدد، الإصحاح ١٠-٣٦، ٣٢): "وكانت سحابة الرب عليهم نهاراً في ارتحالهم من المحلة، وعند ارتحال التابوت كان موسى يقول قم يا رب فلتبدد أعداءك ويهرب مبغضوك من أمامك، وعند حلوله كان يقول ارجع يا رب إلى ربوات ألوف إسرائيل".

ويأخذ الغلو مأخذه، فيندفع كاتب التوراة ليلعن إمكانية أن يكون الرب كذاباً.

يقول الرب في (مزمور داود ٨٩: ٣٥): "مرة حلفت بقدسي أني لا أكذب على داود"، فهو كذاب، ولكنه أقسم لداود بأن لا يكذب. ثم يؤكد على صفة الكذب في المزمور نفسه: "أما رحمتي فلا أنزعها عنه. ولا أكذب من جهة أمانتي".

المحور الثاني: الموقف من الشعب العابد.

بين الحلول المبالغ والذي ذكرنا القليل منه تقابله قسوة غير مبررة تجاه الشعب المختار. يصعب الجمع بين هذين النقيضين، ولكن رغم ذلك فمردود هذه الإشكالية مرجعيتها كَتَبة التوراة.

على سبيل المثال يذكر لنا (صموئيل الأول، الإصحاح ٦ / ١٩): "إن الله وهو في التابوت الرب كان الشعب ينظر إليه وعند قدوم الناس ليروه وهو جالس في تابوته يغضب غضباً شديداً عندها، فيقتل منهم خمسين ألف وسبعين رجلاً". لتلاحظ هنا الجانب الأسطوري المسرف في الخيال للرب المعبود، حيث تم حصره في حيز هو التابوت، ومن ثم بدأ ينظر بخوف وريبة من المؤمنين به من خلال ألواح تابوته ليقوم بمجزرة ليس لها مبرر عملي أو عقائدي، ومثل هذه القرارات القاسية من قبل إله التوراة ظاهرة مألوفة ومكررة.

"فضرب الرب بنيامين أمام إسرائيل وأهلك بنو إسرائيل من بنيامين خمسة وعشرين ألف ومائة رجل". (سفر القضاة: ٣٥/٢٠)، لذا نلاحظ أنه بعد كل إبادة بشرية يسارع إله التوراة إلى إعادة بناء هيكلية جيشه. إنه سياق مألوف إبادة وإعادة بناء من قبل القائد نفسه. هذه النزعة في البطش الإلهي تورث حالة من البطش الشعبي، تناقلها الأبناء عن الآباء فتكون النزعة العدوانية أكثر بروزاً لدى شعب الله المختار وفق المفهوم الأسطوري لدى اليهود.

المحور الثالث:

بادئ ذي بدء إن لرب التوراة اسماً يتميز به، حيث يذكر لنا سفر الخروج بأن يهوه هو: "الرب رجل حرب". (الإصحاح: ٣/٥)، وتسترسل التوراة في ترسيخ هذه الصفة، لتكون غالبة وعامة، حيث تجاوز ذكر رب التوراة كونه، رجل حرب، رب الجند، رباً مقاتلاً، قائداً عسكرياً، يقوم بمهام قتالية، لأكثر من مئة وخمسين مرة خلال مجموع أسفار العهد القديم، وختاماً بـ (سفر ملاخي، الإصحاح: ٢/٤): "قال رب الجنود فلا يبقى لهم أصل ولا فرع".

وهذا المفهوم العسكري العدواني يعزز موقف اليهود من شعوب الأرض التي جاورتهم. لقد جاور التكوين العبري خلال وجوده العابر في أرض فلسطين، مجاميع سكانية تتجاوز خمس عشرة قبيلة أو مجموعة سكانية، وعلى الرغم من تنوع هذه المجاميع السكانية، لم نَرَ أي رسائل سلام أو رسائل محبة لشعوب الأرض، بل نرى آيات القتل والإفتاء والتحريم بحق كل الشعوب، كل شعب باسمه آيات تتلى على المتعبدين من مريدي التوراة، لتشكل نزعة عدوانية راسخة متأصلة لدى اليهود.

الموقف من بابل

(أشعيا ١٣: ١٤، ١٦): "ويكونون كضبي طريد بلا من يجمعها.. تحطم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نسائهم".

(أشعيا ١٤: ٢٢): "يقول رب الجنود: واقطع من بابل اسماً وبقية ونسلاً وذرية، يقول يهوه (الرب)، واجعلها ميراثاً للقنفذ، واكنسها بمكنسة الهلاك".

الموقف من دمشق

ذكر على لسان (أشعيا: ١٧، ١): "هوذا دمشق تزال من بين المدن، وتكون رجمة ردم".

(النبي أرميا: ٤٩، ٢٤): "ارتخت دمشق والتفت للهرب. أمسكتها الرعدة وأخذها الضيق والأوجاع كمخاض. يسقط شبانها في شوارعها، ويهلك كل رجال الحرب في ذلك اليوم يقول رب الجنود.. وأشعل ناراً في سور دمشق".

(النبي عاموس: ١، ١٤): "قال الرب أضرم ناراً على سورية فتأكل قصورها".

الموقف من مؤاب

(أشعيا:١٥، ١): "خربت مؤاب وهلكت.. على سطوحها وفي ساحاتها يولول كل واحد منها سيالاً بالبكاء". (أشعيا ١٦، ٢): "وتكون بنات مؤاب كطائر تائه كفراخ منفرة".

(أشعيا: ١٥، ١٠): "ويداس مؤاب في مكانه كما يداس التبن في ماء المزبلة. وصرح ارتفاع أسوارك يخفضه، يضعه، يلصقه بالأرض".

الموقف من بني عمون

(أرميا: ٤٩، ٢) "تصير ربة بني عمون خراباً وتحرق بناتها بالنار".

(حزقيال: ٢٥، ٧) "ها أنذا أمد يدي عليك، وأسلمك غنيمة للأمم وأستأصلك من الشعوب وأبيدك من الأراضي".

الموقف من أدوم

(أشعيا ٣٤: ١٣،٦) "إن للرب ذبيحة في بصرة، وذبحاً عظيماً في أرض أدوم، تتحول أنهارها زفتاً وترابها كبريتاً وتصير أرضها زفتاً مشتعلاً ليلاً ونهاراً لا تنطفئ، وإلى الأبد

يصعد دخانها.. إلى أبد الآبدين.".

يقول أرميا عن عاصمة أدوم (٤٩: ١٣، ١٨): "بذاتي حلفت يقول الرب إن بصرة تكون دهشاً وعاراً وخراباً ولعنة، وكل مدنها تكون خراباً أبدية لا يسكن هناك إنسان".

الموقف من الفلسطينيون:

يقول (أرميا:٤٧، ٢): "يصرخ الناس ويولول كل سكان الأرض.. بسبب اليوم الآتي لهلاك كل الفلسطينيون.. لأن الرب يهلك الفلسطينيون".

يقول (حزقيال:٢٥، ١٦): "ها أنذا أمد يدي على الفلسطينيون.. وأجري عليهم نقمات عظيمة".

الموقف من غزة:

(النبي عاموس:١، ٧): "أرسل ناراً على سور غزة فتأكل قصورها، وأقطع الساكن من أشدود، وماسك القضيب من أشقلون، وأرد يدي على عقرون فتهلك بقية الفلسطينيون، قال السيد يهوه": على الرغم من أن النص يتحدث عن غزة إلا أنه اتسع بشراهة ليتحدث عن مدن أخرى تعبيراً عن النزعة العدوانية لكاتب.

الموقف من أشقلون:

(النبي صفينا: ٢، ٤): "يقول يهوه تكون أشقلون للخراب.. وعقرون تستأصل.. يا كنعان أرض الفلسطينيون إني أخربك بلا ساكن".

الموقف من صيدون:

(حزقيال: ٢٨، ٢٣): "أرسل عليها وباء ودماً.. ويسقط الجرحى في وسطها بالسيف".

الموقف من صور:

(حزقيال: ٢٦، ٢١): "تتزلزل الجزائر من صوت سقوطك، عند صراخ الجرحى، عند وقوع القتل في وسطك.. أصيرك مدينة خربة.. أصيرك لهؤلاء، يقول السيد يهوه".

(عاموس:١، ١٠): "أرسل ناراً على صور فتأكل قصورها".

الموقف من حاصور:

(أرميا: ٤٩، ٣٣): "وتكون حاصور مسكن بنات آوى، وخربة إلى الأبد لا يسكن هناك إنسان ولا يتغرب ابن آدم".

الموقف من جبل سعير:

(حزقيال: ٣٤،٨): "ها أنذا عليك يا جبل سعير.. أجعل مدنك خربة، وتكون أنت مقفراً.. وأستأصل منه الذاهب والآئب وأملأ جباله من قتلاه".

الموقف من أشور:

(أشعيا: ١٤، ٢٤): "قد حلف رب الجنود قائلاً: إنه كما قصدت يصير، وكما نويت يثبت، أن أحطم أشور في أرضي، وأدوسه على جبالي".

الموقف من نينوى:

(ناحوم: ٢، ١٣): "فراغ وخلاء وخراب وقلب ذائب وارتخاء ركب ووجع في كل حقو.. ها أنا عليك يقول رب الجنود، فأحرق مركباتك دخاناً، وأشبالك يأكلها السيف، وأقطع من الأرض فراشك"، كذلك في (سفر ناحوم، الإصحاح ٣): "ها أنذا يأكلها السيف يقول رب الجنود فاكشف أذيالك إلى فوق وجهك. وأرى الأمم عورتك والممالك خزيك وأطرح عليك أوساخاً، وأهينك وأجعلك عبرة، ويكون كل من يراك يهرب منك ويقول: خربت نينوى، من يرثي لها.. تأكل النار مغاليقك.. يقطعك سيف يأكلك كالغوغاء".

الموقف من مصر:

(أشعيا: ١٩، ١٠): "وأهيج مصريين على مصريين فيحاربون كل واحد أخاه، وكل واحد صاحبه.. مدينة مدينة، ومملكة مملكة، وتنشف المياه من البحر، ويجف النهر وييبس، وتنتن الأنهار.. وكل مزرعة على النيل تيبس.. وتكون عمدها مسحوقة".

(حزقيال ٢٩، ١٢): "وأجعل أرض مصر خرباً خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان إلى تخم كوش، لا تمر فيها رجل إنسان، ولا تمر فيها رجل بهيمة.. وأجعل أرض مصر مقفرة.. وأشتت المصرين بين الأمم وأبددهم في الأراضي".

(حزقيال:: ٣٠، ١٣): "وأجعل الأنهار يابسة.. أنا الرب تكلمت".

الموقف من عموم الإنسانية!!!

(أشعيا: ٣٤، ٢): "إن للرب سخطاً على كل الأمم، وحمواً على كل جيشهم، قد حرمهم، دفعهم إلى الذبح فقتلاهم تطرح، وجيفهم تصعد نتانتها وتسيل الجبال بدمائهم".

ولم تكتف التوراة بكل هذه الآيات والنزعة العدوانية، بل شملت أقواماً لم تكن تعرفهم أو لم يكن لليهود أي علاقة معهم، فكانت اللعنة شاملة. يقول (النبي أشعيا ٢٤، ٦): "اللعنة أكلت الأرض".

ولم تكتف التربية التوراتية بهذا القدر من العزل للشخصية اليهودية فهي مستعليه بحكم حلول الرب فيها، وكذلك هي عدوانية بحكم الإرث، لموقف التوراة من شعوب الجوار، فلا سلم ولا دعوة سلمية، الكل تحت طائلة العنة، ثم تطل التوراة لتعزيز عامل مهم وجديد يعتبر سبباً مهماً من أسباب الحروب في العلاقات الإنسانية، ألا وهو عدم الالتزام بتحقيق المواثيق والعهود.

تقول تعاليم التوراة بهذا الخصوص بضرورة رفض أي التزام أخلاقي أو ديني أو اجتماعي لأي عهد كان.

والقاعدة الدينية تقول، (في سفر الخروج:٣٤ / ١٢): "احترز من أن تقتطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصير فخاً في وسط".

ثم يضيف في السفر نفسه ٣٤/ ١٥): "احترز أن تقطع عهداً لهم ولا تشفق عليهم".

ثم يؤكد سفر التثنية على هذه المفاهيم (٣/٧): "لا تقتطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم".

إذن لا اعتبار للعهد، أي لا عهد ولا وفاء بالعهد، وفي أي أرض عموم الأرض، ومع أي إنسان عموم الناس. هذه الخلفية الشرعية والسلوك الأخلاقي العام الذي يحكم العقل اليهودي قديماً وحديثاً.

والسلوك العدواني في الشخصية العسكرية اليهودية يجسدها (سفر العدد، الإصحاح ٣٣/١٤،٢٠): "فسخط موسى على وكلاء الجيش رؤساء الآلاف والمئات القادمين من جند الرب ليتلقوا كلمات موسى التي يتعبد بها اليهودي عبر تاريخه يقول فالآن اقتلوا كل ذكر

من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر لقتلوها. لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات"، فكانت نتيجة المجزرة من البنات البواكر اللاتي تم سبيهن في السفر والإصحاح نفسه: "ومن نفوس الناس من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر جميع النفوس اثنين وثلاثين ألفاً".

من خلال هذا العرض نلاحظ ثلاثة مفاهيم من القيم تشكل ضغطاً على الشخصية اليهودية لتشكل مجتمعةً نسقاً نفسياً فيه سلوك من ملامح كل هذه المراكز، فاليهودي شخص نرجسي النزعة إلهي العلاقة خارج حدود البشر، وبالمقابل له حالة من الذعر والشتات يتلقاها اليهودي الذي خبر ربه كونه متمرساً بفعل الإبادة المألوفة له، مع تصعيد غير مسبوق بالعداء للآخرين من خلال موقف النص المقدس للآخر، فمن جاور اليهود كانت عليه العنة، ولم تغادر العنة من تصالح أو من تحارب معهم.. الكل تحت طائلة العنة والعذاب.

ثم تعرج التوراة لتضيف عدم الالتزام الديني بكل المواثيق بإنكارها للعهد، وهذه السمة لازمت اليهود قديماً من خلال أسفار العهد القديم، وظهرت بشكل جلي حينما أصبح اليهود على المحك بعد ثلاث الآف سنة من التباكي، حيث نراهم يتسابقون على نكث كل اتفاق ليكون سلوكهم تعبيراً حقيقياً عن أثر النص فيهم.

مع أوامر وتعليمات لا حصر لها بإبادة وتحريم القرى، وقتل الحيوانات وحرق المزروعات، وغلو مبالغ فيه بعقوبات لا مبرر لها جزاءً على أيّ زلل، صغيراً كان أو كبيراً.

كل هذه المفاهيم تترك ما تتركه من أثر في تكوين نزعة متحفزة، مترقبة، حذرة، كلها تصب في خلق شخصية عسكرية: عسكرية السلوك، وعسكرية النزعة، وعسكرية المفاهيم، وهذا ما نراه في موضوعنا "الاستيطان سمة توراتية"، وهو في حقيقته كان موضوعاً تحت عنوان "العسكرة والاستيطان سمة توراتية"، ولكن تناولنا عنوان "العسكرة" بشكل مستقل جاء لتوضيح مزيد من أثر النص في خلق الظاهرة الصهيونية، حيث أنه بعد مرور ثلاث آلاف سنة على هذه المفاهيم تتضح صورة التربية الدينية من خلال الكيان الصهيوني ببروز المستوطنات كتعبير واضح عن النزعة العسكرية للدلالة على الخزين التربوي للتوراة.

الاستيطان.. سمة توراتية

من الملامح التي تميز التوراة ظاهرة عسكرة المفاهيم، فالذي يعيش أغوار التوراة وأسفار بني إسرائيل يلمس تحويل المفاهيم الدينية إلى مفاهيم عسكرية، فبدءاً من مفهوم الإله إلى المجتمع إلى المدينة إلى الفرد كل الظواهر ذات ملمح عسكري.

فالتوراة منذ البدء حددت مفهوم اللّه بأنه إله شريحة معينة من البشر هم العبرانيون "الرب إله العبرانيون" (سفر الخروج :٩-١٤). وبعد هذا التحديد أصبح اللّه إله إسرائيل، وبعد هذه التخصيص، انهالت الصفات العسكرية على هذا الإله.

فذكر العهد القديم أن اللّه أسمه "الرب رجل حرب"، (سفر الخروج:١٥-٣)، ومن هذا المفصل تحديداً انطلقت التوراة في هذا المفهوم، مروراً بكل أسفار بني إسرائيل إلى آخر سفر هو سفر ملاخي، حيث وصفه السفر بأنه "رب الجنود" (سفر ملاخي: ٢-٥)، فالتوراة كررت كل الصفات العسكرية لأكثر من مائة مرة، وكأن اللّه قائد عسكري لجيش، وبالضرورة سيكون هذا الإله المتعسر رب جيش، ولا يوجد جنود له أفضل من القبيلة العبرانية. إذن هناك قائد عسكري هو اللّه، وهناك جنود له هم شعبه: "وتكونون لي قديسين لأني قدوس أنا الرب وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي". (سفر اللاويين: ٢٠ - ٣٦). عند ذلك تكتمل المعادلة لخصوصية هذا الجيش، فهو جيش الرب لا يعاب ولا يلام ولا يحمل من الإثم والخطيئة شيئاً، فكل قتل يقوم به جائز، وكل مجزرة تحدث مجزرة شرعية، لأن فعلهم فعل اللّه، فلهم قائد ليس مثله كل القواد، وهم جنود ليس مثلهم الجند كافة.

إن هذا المفهوم هو بحد ذاته من أخطر المفاهيم الدينية،إذ سيكون من اليسير، تصريف باقي المفاهيم الجزئية وإيجاد ما يبررها دينياً و إعطاؤها الغطاء الشرعي لها.

إن قسوة الجندي الإسرائيلي هي محصلة قسوة قائده الذي تلقى عنه مفهوم العبادة والإلوهية، لذا نرى اللّه وهو في تابوت الرب ينظر إلى شعبه، وعندما يتقدم الناس ليروه وهو جالس في تابوته يغضب غضباً شديداً "فيقتل منهم خمسين ألف وسبعين رجلاً". (سفر

صموئيل الأول ٦ - ١٩). للنظر إلى الجانب الأسطوري المسرف في الخيال للرب المعبود، حيث تم وضعه في حيز هو التابوت، ومن ثم بدأ هذا الإله ينظر بخوف وريبة إلى المؤمنين به من خلال ألواح تابوته، ليقوم بمجزرة ليس لها مبرر عملي أو عقائدي. ومثل هذه القرارات القاسية لإبادة اليهود من قبل إله التوراة ظاهرة مألوفة ومتكررة: "فضرب الرب بنيامين أمام إسرائيل وأهلك بنو إسرائيل من بنيامين خمسة وعشرين ألف ومائة رجل"، (سفر القضاة:٢٠-٣٥)، لذا نلاحظ بعد كل إبادة بشرية يسارع إله التوراة إلى إعادة بناء هيكلية جيشه، إنه سياق مألوف؛ إبادة وإعادة بناء من قبل القائد نفسه، هذه النزعة في البطش الإلهي تورث حالة من البطش الشعبي، نقلها الآباء للأبناء فتكون النزعة العدوانية أكثر بروزاً لدى شعب الله المختار وفق المفهوم الأسطوري لدى اليهود.

وكذلك القداسة تأخذ منحى تصعيدياً خطراً،حيث يكون الأدنى هو مركز القداسة وهو الفاعل وهو مدار الحدث، وهذا يتضح في الفعل العسكري تحديداً، كما جاء في شروحات الربانيين وإضافاتهم: "بأن الإسرائيليين استولوا على أرض كنعان قبل استيلاء الرب عليها"، والتفسير الذي أعطوه هو الآتي: "طالما أنهم يحتلونها فاحتلالهم يساوي استيلاء الرب عليها، وعندما لم تكن تحت احتلالهم فكأن الرب لم يستولِ عليها"، أي أن خطورة النص والتفسير ندان لله، ففعلهم قد سبق القدرة، ولكن بالوقت نفسه هو مكافأة لها، أي أن العجز البشري اليهودي يقرن إلى الله، ففي حال عدم السيطرة كأن الله لم يشأ، وفي حالة الإخضاع والسيطرة فإن الله شاء، أي أن فعلهم سبق المشيئة الإلهية، فكانت المشيئة تابعة لفعلهم، وهذا هو الغلو بعينه.

لذا فإن ذروة الفعل العسكري وما تحويه من فعل دموي هي تعبير عن مشيئة الله، وبهذا الحلول (أي حلول الله في الجماعة)، فقد اصطبغ اليهود جميعاً بالقداسة، وهذا المفهوم ليس من المفاهيم العابرة في التوراة، فقد ذكر في سفر العدد: "وكانت سحابة الرب عليهم نهاراً في ارتحالهم من المحلة، وعند ارتحال التابوت كان موسى يقول قم يا رب فلتبدد أعداءك ويهرب مبغضوك من أمامك، وعند حلوله كان يقول ارجع يارب إلى ربوات ألوف إسرائيل". (العدد:١٠ - ٣٦، ٣٢)، وفي سفر الخروج: "هكذا يقول الرب إسرائيل ابني البكر" (خروج: ٤-٢٢)، وكذلك قول التوراة: "فقالا إله العبرانيين قد التقانا" (الخروج: ٥-٣)، وأيضاً أصبحوا جيشاً في كل مفرداته، فهم جيش قبل أن يكونوا شعباً، وظاهرة (الجيتو) التاريخية

لليهود تعبير من ضمن ما عبر عنه اليهودي من قداسة كونه الأفضل، فعمل لنفسه سوراً من خلال عزلته، وظاهرة (الجيتوات)رغم ما أشيع عنها وحولها من مظاهر إلا أن بقاءها خلال هذا التاريخ الطويل لم ولن يتحقق لو لم يكن هناك حكم صارم داخل المجموعة اليهودية والذي نعبر عنه بنزعة العسكرة داخل المجتمع اليهودي.

ومن قداسة الشخصية إلى قداسة الظاهرة، عموم الظاهرة اليهودية، لتنتقل بنا التوراة إلى قداسة المستوطنات. ومفهوم المستوطنة هي: غرس كيان بشري في أرض ما؛ أو زرع وجود بشري في أرض ما، وهذا الزرع سواء أكان حلولياً أم استيطانياً يتطلب إخراج مجموعة لتحل محلها مجموعة ثانية.

ومثل هذا الفعل لا يستطيع أن يأخذ صفة القوة والديمومة من دون فعل فكري وجداني محرك لها، وأقوى الأفكار الوجدانية أثراً في حياة البشر هو النص الديني، وقد حفل النص الديني للأصولية اليهودية بإنعاش ظاهرة الاستيطان.

تقول التوراة: "تجيء بهم و تغرسهم في جبل ميراثك المكان الذي صنعته يا رب لسكنك المقدس" (سفر الخروج:١٥-١٧). إذن قدوم اليهود هو قدوم مقدس، لأنه غرس من غرس الرب، وقد عبرت حركة (جوش أمونيم) التي تأسست عام ١٩٦٧، عن هذه النزعة بشكل واضح، إذ اعتبرت أن أرض إسرائيل هي أرض مقدسة، وأن هذه القداسة ليست مردودة فقط إلى الحكمة الإلهية، وإنما إلى الدم اليهودي الذي أهدر فيها بهدف العودة. وكذلك هذا ما فعله المهاجرون الأوائل في أمريكا.. كان قدومهم فعلاً من الرب، إنها قداسة الابتزاز والغطاء الشرعي لفعل الاستعمار الحديث، وعلى هذا المفهوم التوراتي "كانت أولى المستعمرات للمستوطنين الإنجليز في (جمستاون) عام ١٦٠٧م التي أسسها (جون سميث) عند وصوله إلى أمريكا، وبعد مرور ٥٠ سنة قدم ٨٠ ألف مهاجر إنجليزي أسسوا ١٨ جماعة مستقلة مختلفة تتمتع كل واحدة منها باستقلالية وسيادة كاملة على مستعمراتها". بل وتذهب التوراة إلى أبعد من ذلك، حيث تحدد طبيعة هذه المستوطنات فتذكر لنا: "والمدن التي تعطون اللاوين تكون ست منها مدناً للملجأ تعطونها لكي يهرب إليها القاتل" (سفر العدد: ٣٥ - ٦). إذن طبيعتها وحاجتها هي تحصينات للقتل، ومكان حماية لمن يقتل شخصاً.. ولا أدري ما هي طبيعة المستوطنات الحالية وبماذا تتميز عن نصها المقدس.

ولم يتوقف الأمر عند هذا التعليم، بل للأصولية اليهودية روائع الاستيطان الحلولي: "وكلم الرب موسى قائلاً: كلم بني إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتعينون لأنفسكم مدناً تكون ملجأ لكم ليهرب إليها القاتل الذي قتل نفساً سهواً" (سفر العدد: ٣٥ - ٩،١٦). إذن هناك عبور، أي هناك ترانسفير للحلول في أرض جديدة، وكيف يكون السلوك هو إيجاد مدن محصنة لتكون ملجأ لمن يقتل.

والقتل قد يأخذ صفة تعبدية، كما أن تحصين الكيان اليهودي بسياج من أوامر القتل هو النواة الفعليه للاستيطان، والاستيطان قد يبدأ من المعبد ويمتد إلى أعلى لتشكيل ظاهرة المستوطنات منه.

من وصايا الرب لهارون في سفر العدد (الإصحاح ١٨ - ٧): "أنت وبنوك تحفظون كهنوتكم مع ما للمذبح، وما داخل الحجاب، والأجنبي الذي يقترب يقتل"، وجاء أيضاً ضمن الوصايا لموسى في سفر العدد (الإصحاح ١: ٥٠): "واللاويين يحملون مسكن الشهادة وكل أمتعته، وهم يخدمونه، وحول المسكن ينزلون. فعند ارتحال المسكن ينزله اللاويين وعند نزول المسكن يقيمه اللاويين، والأجنبي الذي يقترب يقتل" يلاحظ من مجموع هذه النصوص سمة مشتركة هي القتل، ثم التحصين، ويتبعه تصعيد ينتهي بالعزل.

إن تطور المفاهيم والأساليب لا يلغي الأصول المؤسسة لها، فطبيعة النص وسياق أحداث النص تبين أولويات إنشاء التجمعات الاستيطانية في وقتها، ولذلك فإن ما نراه من أسلوب المستوطنين وتطور الاستيطان حالياً وعدم التطابق الشكلي والحرفي بين التجمع الأولي و الحالي لا يلغي الأثر التربوي للتوراة في عقلية المستوطنين اليهود في المرحلة الراهنة تحت عباءة الصهيونية، لذا نلاحظ أن الصهاينة يقتبسون من التلمود عبارات لتكريس مفهوم الاستيطان مثل "من يقيم خارج أرض إسرائيل هو إنسان من دون إله"، لذا فإن مفهوم الإلوهية مرتبط بالأرض، والتدين دلالته للاستيطان، والاستيطان هو استباحة أراضي الآخرين، ولا تخرج الظاهرة الصهيونية أو الفعل اليهودي في عصرنا الحاضر عن هذه الخلفية وعن هذا الأساس للعقل المفكر لها.

رحم الله أجدادنا الذين حملوا لنا الإسلام وانتشروا في مشارق الأرض ومغاربها، ولم يتركوا لنا مستوطنة، ولا نقول إنهم تبخروا، بل نقول إنهم انصهروا في كل بقعة تواجدوا فيها تاركين لنا ما هو أعز وأجمل من كل المستوطنات.. تركوا لنا الإسلام، فجزاهم الله خير الجزاء، ونقولها مجدداً: ليس في ديننا ما يعيب، وليس في أصوليتهم ما يدعو للفخر.

ظاهرة الغلو في الحدود والأحكام والتعامل معها

إن كل عنف في السلوك و قساوة مبالغ فيها في الأفكار يكون مدعاة لإثارة جملة أسئلة، يسعى الباحثون لمعرفة أسبابها الحقيقية ومرجعيتها.

هل للبيئة دور في خلق مثل هذه الأفكار؟ أم الوضع الاجتماعي لتلك الشريحة المتطرفة؟ أم التعاليم لتلك المجموعة سواء أكانت تعاليم ذات بعد سياسي أم اجتماعي أم ديني؟

وعلى العموم لا يوجد كيان اجتماعي يخلو من ظاهرة الغلو في الأفكار إلى حد الغلو في السلوك، والوجود الإنساني لازمته ظاهرة العنف خلال تاريخه الطويل، وكانت الأديان عامل تهدئة لتهذيب النفس البشرية من سلوك العنف، والسمة المميزة لها هي التعقل في الخطاب الاجتماعي واعتبار العنف آخر الحلول عند وجود الخلل الاجتماعي.

وقد كان الإسلام أكثر الأديان اعتدالاً، فكانت أوامره في إقامة الحدود محدودة، ولا تتجاوز أصابع اليد، وليست كلها على وتيرة واحدة، والتباين والاختلاف في طبيعة العقوبة مرده تقدير الجرم والحالة والظرف، وعلى الرغم من ذلك كان الإسلام أكثر الأديان عرضة للهجوم، كونه من الأديان التي بالغت في قوانينها الشرعية لكثر تشريعاتها وحدودها وعقوباتها، ومن المعلومات الرائجة والمغلوطة في ذات الوقت، هو كون الإسلام ديناً يحمل من العقوبات والمحرمات والموانع ما لا يطاق ولا يسمح للوجود الإنساني بأن يأخذ إبداعاته وحركته لشدة ما نرى في الإسلام من حدود، كحد الزنا، وحد السرقة، وحد الخمر، وحد المرتد.. إلخ.

وهذه الحدود تعتبر من مظاهر العنف ودالة من دلالات الغلو في التشريع، وفي الوقت الذي يتم فيه الترويج عن بشاعة وسلبية هذه العقوبات في الإسلام يتم الإغفال المطلق والمتعمد عن سلسلة من الحدود، نرى فيها عقوبة القتل لأبسط أمر، ونرى الشريعة اليهودية تتجاوز الأوامر في الثواب والعقاب لتحديد بنية المجتمع، إلى الإفراط في التشريع، بحيث يكون الردع بعقوبة القتل واللعنة لأبسط الأمور، مما يخلق مجتمعاً متصلباً وقوة بشرية متطرفة، لكثرة

ما تعاني من أوامر القتل والإبعاد والنفي والتحريم والتجريم!

ومن الأمور التي يعاب عليها الإسلام عقوبة السرقة، واعتبار حد السرقة بقطع يد السارق من أقسى العقوبات التي ليس لها ما يبررها، ولا يعاب على التوراة عقوبة حرق السارق التي فيها إلغاء مشروع حياة إنسان، وفيها غلو بعلاج ظاهرة السرقة كون كل سرقة عقوبتها الحرق، فتذكر لنا التوراة عن سرقة حدثت في بني إسرائيل، ومن ثم تم اكتشاف السارق، فيوضح لنا سفر يشوع العلاج:

١ - الإصحاح: ٧ - ٢٥: "فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وخيمته وكل ماله.. فقال يشوع كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم. فرجمهم جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورمو هم الحجارة وأقاموا فوقهم رجمة عظيمة إلى هذا اليوم، فرجع الرب عن حمو غضبه".

إن في هذه العقوبة من الغلو الشيء الكثير، فلم يكن حد السرقة من نصيب السارق، بل شمل أناساً أبرياء وهم عائلته، والأمر الآخر أن عقوبة السرقة كانت الرجم، الأشد ألماً هو حرق السارق وعائلته، إنها سلسلة من العقوبات التي محصلتها ترسيخ مفهوم الانتقام، أكثر من كونها حداً لحماية المجتمع من الانفلات والضياع.

وقد حرص الإسلام على وضع الحدود لحماية المجتمع من جشع الإنسان واندفاعته، وكان التشريع بحد قطع يد السارق، لأن هناك كياناً قد تم التجاوز عليه، إلا أن الحديث عن حد قطع اليد في اليهودية يسكت عنه. علماً أن عقوبة قطع اليد في اليهودية ليس لها ضرر اجتماعي أو هدم كيان لملكية شخصية للفرد في المجتمع، لكنها عقوبة مفرطة في القسوة لسبب يحدث في أغلب الأحيان من باب الإكراه وعدم السيطرة على الحدث، وبشكل عابر لأي منا دون قصد.

٢ - جاء في سفر التثنية: ٢٥ -١١، ١٢: "إذا تخاصم رجلان بعضهما بعضاً رجل وأخوه وتقدمت امرأة أحدهما لكي تخلص رجلها من يد ضاربه ومدت يدها وأمسكت بعورته، فاقطع يدها ولا تشفق عيناك". فأين الغلو والقسوة، هل في حد لحماية المجتمع كما يسعى إليه الإسلام، أم حد لعارض عرضي يحدث لخصام أو شجار وما ينتج عن هذا التخاصم في حينه من أفعال تنتهي بانتهاء الفعل.

٣ - ومن الأمور التي تعاب على الإسلام ظلماً، كون عقوبة المرتد في الإسلام قاسية وفيها غلو في الحدود، والمرتد هو الخارج بالكامل من الكيان الديني إلى كيان آخر، وبينما لا يعاب على ما في التوراة من قساوة في حد من يسب، يذكر لنا سفر اللاويين (الإصحاح ٢٤ -١٠، ١٥): "وخرج ابن امرأة إسرائيلية وهو ابن رجل مصري في وسط بني إسرائيل وتخاصم في المحلة ابن الإسرائيلية ورجل إسرائيلي، فجدف ابن الإسرائيلية على الاسم وسب. فكلم الرب موسى قائلاً: اخرج الذي سب إلى خارج المحلة، فيضع جميع السامعين أيديهم على رأسه ويرجمه كل الجماعة، ومن جدف على اسم الرب فإنه يقتل".

إن توصيف الحدث كونه شجاراً، علماً أن الشجار والمشاحنات ينتج عنها انفعالات مأزومة وتفلّت والتجديف، وقد يصدر هذا الفعل لقلة تقوى أو لضعف إيمان، بينما الرد هو تصرف إرادي فكري عقائدي لقناعة أو لمصلحة أو لهوى في النفس ينتج عنه تحول الفرد من مجموعة إلى مجموعة أخرى، والسب من الأمور المشينة وغير المستحبة، إلا أنها في كل الأحوال معصية، والمعصية هي أخف سلوكاً من الردة وأقل أثراً منها، ورغم ذلك فإن وتيرة الحدود والقصاص عند اليهود سياقها العام واحد ألا وهو القتل، وهي ظاهرة تعبر عن حالة التطرف في العقاب وغلو في الأصول المؤسسة للعقلية اليهودية. أما عقوبة المرتد فإن التصعيد العقابي أشد فتكاً وأقوى سطوة، وفيها من الغلو الشيء الكثير، تقول التوراة في سفر التثنية (١٣ - ١٢، ١٦: "إن سمعت عن إحدى مدنك التي يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولاً.. قائلين نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفوها، وفحصت وفتشت وسألت جيداً وإذا الأمر صحيح.. فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلاً إلى الأبد لا تبنى بعد". هذا حد المرتد.. قتل بحد السيف، وقتل الحيوانات التي لا تعي، ومن ثمة حرق المدن، وما يمتلك الآخرون من خلال إلغاء دورة الحياة لتكون خربة عبر التاريخ، بقول التوراة "فتكون تلاً إلى الأبد لا تبنى بعد" وليس الأمر مقصوراً على جماعات ومدن، بل إن القتل والإبادة مثلما هما للجماعة كذلك للفرد، وعند الفرد الواحد يصل الأمر إلى عقوبة الرجم والموت بمجرد التفكير وعرض الأمر يذكر لنا سفر التثنية (١٣ - ٦، ١١): "وإذا أغواك أخوك ابن أمك... قائلاً نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت... فلا ترضَ عنه ولا تسمع له ولا تشفق عيناك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلاً تقتله. يدك عليه أولاً لقتله ثم أيدي الشعب. ترجمه بالحجارة حتى يموت".

إن القتل هو محصلة طبيعية للمنهاج التربوي للتوراة، وقد سبق القرار أسلوب تصاعدي في عزل من جالت في خاطره فكرة مغايرة بقول النص: "لا ترضَ عنه، ولا تسمع له، لا تشفق عليه، لا ترق له، لا تستره"، ومن ثمة هناك منحى لا يقل خطورة في خلق النزعة العدوانية في الأصولية اليهودية، وذلك من خلال ترسيخ مبدأ تنفيذ العقاب من قبل عموم الناس، فأغلب النصوص تؤكد على ضرورة قيام الناس، كل الناس، بعملية القتل، من خلال غطاء شرعي واحد على الدوام، إلا وهو إرادة الرب ورضا الرب في كل عملية وعقب كل عملية.

٤ – ولم تتوقف عقوبات التوراة على المرتد، بل أخذ الغلو مأخذه حتى في التقصير في العبادات، أو التجاوز في بعض الشعائر، ومن ذلك عقوبة الرجم حتى الموت لمن تجاوز حرمة يوم السبت، جاء في سفر العدد (١٥ – ٢٦، ٢٣): "ولما كان بنو إسرائيل في البرية وجدوا رجلاً يحتطب في يوم السبت، فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطباً إلى موسى وهارون وكل الجماعة... فقال الرب لموسى قتلاً يقتل الرجل، يرجمه بحجارة كل الجماعة، خارج المحلة. فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الرب موسى".

٥– ومن المعاصي التي بالغت التوراة في أحكامها عقوق الولد لوالديه. يذكر لنا سفر الخروج (٢٠ –٩): "كل إنسان سب أباه وأمه فإنه يقتل".

٦ – ومن غرائب العقوبات أن يقتل الإنسان لشمه رائحة بخور معين، إذ تعتبر التوراة شم رائحة بخور المعبد ذنباً لا يعلو عليه ذنب ولا علاج للأنوف لمثل هذه الحالة إلا القتل. جاء في سفر الخروج (٣٠–٢٨): "والبخور الذي تصنعه على مقادير لا تصنعوا لأنفسكم. يكون عندك مقدساً للرب، كل من صنع مثله ليشمه يقطع من شعبه".

٧ – كذلك في سفر اللاويين (٢٠ – ١٧): "وإذا اضطجع رجل مع امرأة طامث وكشف عورتها عرى ينبوعها وكشفت ينبوع دمها يقطعان كلاهما من شعبهما" وهذا يعني أن جماع الزوج لزوجته خلال فترة الحيض عقوبتها الموت لكلاهما، نعم هناك ضرر صحي من الجماع بين الزوجين خلال الحيض. إلا أن الغلو في العقوبة غلب على التوجيه والرشد لما ينفع الناس.

٨–ذكر في سفر اللاويين (٢٠ – ١٥): "وإذا جعل رجل مضطجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة أنهما يقتلان دمهما عليهما".

٩ - ومن عجائب الغلو في العقوبات والتطرف في التشريع عقوبة الموت لمن يمس الجبل المقدس، قال الرب لموسى في سفر الخروج (١٩ - ١١، ١٣): "احترزوا من أن تصعدوا إلى الجبل أو تمسوا طرفه. كل من يمس الجبل يقتل قتلاً، لا تمسه يد بل يرجم رجماً أو يرمى رمياً. بهيمة كان أو إنساناً لا يعيش".

القتل لمن يمس الجبل، القتل لمن يمس حتى ولو أحد أطرافه، القتل لأمر ليس له ضرر على الإنسانية، والقتل ليس على من هو عاقل مكلف مثل الإنسان، بل القتل للحيوانات التي لا تعي حقيقة التشريع. إنها قسوة التشريع وغلوه أكثر من كونها حدوداً لحفظ الكيان الاجتماعي كما يسعى إليه الإسلام.

١٠ - "وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه، إنهما يقتلان كلاهما" (سفر اللاويين: ٢٠ - ١١). والسؤال الذي يطرح: لماذا لم يطبق مثل هذا التشريع بحق يهوذا عندما زنى بزوجة أبيه.

١١ - وبعد الوصفة المركزة والمتنوعة لصناعة الدهن المبارك يأتي التحذير بالموت عند الخطأ. ورد في سفر الخروج (الإصحاح٣٠ - ٢٠): "هذا لي دهن مقدس للمسحة في أجيالكم. على جسد إنسان لا يسكب، وعلى مقاديره لا تصنعوا مثله. مقدس هو ويكون مقدساً عندكم. كل من ركب مثله ومن جعل منه على أجنبي يقطع من شعبه". وهذا يعني انتفاء البعد الإنساني، فلا مساعدة لأخيك الإنسان، ومن يتجاوز ويقوم بتسريب مثل هذا الدهن المقدس عقوبته الموت.

١٢ - وإذا كان في رجل (أو امرأة) جان أو تابعة، فإنه يقتل بالحجارة يرجمونه دمه عليه (سفر اللاويين: ٢٠ - ٢٧)، علماً أن مسّ الإنسان أو جنونه هو فعل لا إرادي وخارج عن قدرة الإنسان ووعيه.

والإسلام لم يسقط عنه الحد، بل أسقط عنه التكليف أيضاً رحمة به، بحديث رسول صلى الله عليه وسلم: "ثلاث لا يحاسبوا: الطفل حتى يبلغ الحلم، والنائم حتى يصحو، والمجنون حتى يعود إلى رشده".

١٣ - ورد كذلك في سفر اللاويين (٢١ - ٩): "وإذا تدنست ابنة الكاهن بالزنا فقد دنست أباها بالنار تحرق". إذن هناك عقوبة رجم لزنا وهناك عقوبة قتل للزنا وكذلك عقوبة حرق للزنا.

١٤ - ومن عجائب الغلو في التشريع حد الغسل في اليهودية، حيث يصل إلى القتل. والمتابع للتوراة يلاحظ التركيز على الغسول وضرورته، علماً أن أسفار التوراة هي أسفار التيه حيث الصحراء وشح المياه. والإفراط في جانب استعمال المياه دليل على أن كثير من مفاصل هذه الأسفار قد كتبت من بعد التيه بفترة طويلة ومن بعد حدوث الاستقرار، جاء في سفر اللاويين (٢٢ - ٥، ٤) "أنا الرب. قل لهم في أجيالكم كل إنسان من جميع نسلكم اقترب إلى الأقداس التي يقدسها بنو إسرائيل للرب ونجاسته عليه تقطع تلك النفس من أمامي"، ومن تأكيدات النص المقدس على غلوه في الغسول ما جاء في سفر الخروج (٣٠ - ٢٠): "عند دخولهم إلى خيمة الاجتماع يغسلون بماء لئلا يموتوا".

وكذلك هناك عقوبة الموت بحق من مس ميتاً ولم يغتسل غسول طهارة بماء خاص (سفر العدد ١٩ - ١٣): "كل من مس ميتاً ميتة إنسان قد مات ولم يتطهر ينجس مسكن الرب فتقطع تلك النفس من إسرائيل. لأن ماء النجاسة لم يرش عليها تكون نجسة نجاستها لم تزل فيها". بل ويأخذ الغلو مأخذه في علاقة العبد بربه، فلا يقبل الرب من كانت فيه تشوهات خلقية أو مرض أو عيب، بل القبول لمن كان (سوبر مان) خالياً من كل آثار الدهر وعوامل الزمن.

١٥- وكلم الرب موسى قائلاً (سفر اللاويين:٢١-١٦، ٢١): "لأن كل رجل فيه عيب لا يتقدم. لا رجل أعمى ولا أعرج ولا أفطس ولا زوائدي ولا رجل فيه كسر يد ولا أحدب ولا أكتم ولا من في عينيه بياض ولا أجرب ولا أكلف ولا مرضوض الخصى، كل رجل فيه عيب لا يتقدم ليقرب وقائد الرب. فيه عيب لا يتقدم ليقرب خبز إلهه". إنها تعاليم تزيد المعوق عزلة، فإن أشد أنواع العزل هو العزل العقائدي الناتج عن مفاهيم دينية، وعلى الرغم من أن كثيراً من الصفات المرضية غير مسؤول عنها الإنسان، إلا أن التوراة تحمّل الإنسانية ما لا يطاق، ومن غلوها في تصنيف بعض الصفات واعتبارها مانعة وحاجبة للعبودية ما ذكر في سفر التثنية (٢١ - ١): "لا يدخل مرضوض الخصيتين ولا مقطوع العضو التناسلي جماعة المؤمنين بالرب".

وعلى خلاف ذلك نرى العذر يتبعه العذر في الدين الإسلامي تجاه المعوق بقوله تعالى ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما﴾ (سورة الفتح، الآية ١٧). إذن هي الطاعة، وليست الإعاقة.

كذلك نرى العذر واضحاً في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: "ما أحد من المسلمين يصاب ببلاء في جسده إلا أمر الله الحفظة الذين يحفظونه قال: اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة مثل ما كان يعمل وهو صحيح، ما دام محبوساً في وثاقي". لكن الإسلام حين يخفف عن أصحاب العذر ويجعل لهم رخصاً، فإنه لا يحجر على صاحب الطاقة؟

ولم تكتفِ تشريعات التوراة بغلوها في الأحكام والعقوبات لما يحدث داخل الكيان الاجتماعي عند اليهود، بل نراها تبالغ أشد المبالغة في تحديد العلاقات الزوجية داخل الأسرة اليهودية، ومقياسها الرئيسي هو الزواج داخل الكيان اليهودي، وأي زيجة خارج هذا الكيان هي خروج على إرادة الرب، ويعتبر هذا الموضوع من أكثر الموضوعات التي ذكرت في أسفار بني إسرائيل تحذيراً وعقوبةً وتنفيذاً للعقوبة.

ونظراً لطول وكثرة النصوص التي تعاملت مع هذا الجانب من الحياة اليهودية نذكر نتيجة من نتائج العقاب التوراتي لمن خالف قانون الزواج في الشريعة اليهودية.

١٦- جاء في سفر الملوك الأول (١١ - ١٠١): "وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال الرب عنهم لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم... وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداوود أبيه... فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل". نبي ومؤسس وباني دولة دينية يموت نتيجة فعله يموت موت الكافر وغضب الرب قد حل عليه، لأنه تزوج من أجنبية، فإذا كان هذا هو حال نبي اليهود وملكهم، فكيف بأنواع العقوبات التي تحل على عوام الناس. إنها صفحات من الغلو في التشريع، وغلو في توصيف النتائج، وغلو في السلوك، وغلو في العلاقة مع الآخرين لا تتوقف عند حد.

إن هذا الغلو في التشريع والحدود والعقوبات، ثم الغلو في علاقة الرب بشعبه، حيث قاد حملات تصفية ضد من يؤمنون به، كلها أعطت سلوكاً متطرفاً لدى اليهودي، بل وحتى نزعة عدوانية، ومن آثار ذلك الإرث المتراكم من تشريعات الأصولية اليهودية على اليهودي الأثر الانساني، حيث كان الغلو في النذور يصل بالفرد إلى أن يقدم ابنته للحرق والقتل نذراً، والغلو في النذور والإيفاء بها هو وجه من أوجه الغلو في العقلية اليهودية.

١٧ - ومن الأمور التي يصعب تفسيرها علمياً أو دينياً التمييز بين نار ونار، وكأن هناك ناراً مقدسة وناراً غير ذلك، إلى حد أن تكون عقوبة عدم التمييز بين النارين الموت، وإن كان في الأمر إشارة مفرطة في تقديس النار، وكأن هناك أثراً مجوسياً في اليهودية، تقول التوراة في سفر اللاويين: (٣ -١، ٣): "وأخذ ابنا هارون ناداب وأبيهو كل منهما مجمرته وجعلا فيهما ناراً ووضعا عليها بخوراً، وقربا أمام الرب ناراً غريبة لم يأمرهما بها. فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما فماتا أمام الرب"..

١٨ - "فكان روح الرب على يفتاح... ونذر يفتاح للرب نذراً قائلاً. إن دفعت بني عمون ليدي فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقائي عند رجوعي بالسلامة من عند بني عمون يكون للرب وأصعدة محرقة، ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته وإذا بابنته خارجة للقائه بدفوف ورقص. وهي وحيدة. وكان لما رآها أنه مزق ثيابه وقال آه يا أبنتي قد أحزنتيني حزناً لأني فتحت فمي إلى الرب ولا يمكنني الرجوع.. ففعل بها نذره الذي نذر".

إن النصوص الدالة على الغلو في الحدود والقصاص من التوراة والعهد القديم، كثيرة، وهي تتجاوز أضعاف ما ذكرناه، بل إن الإكثار منها يولد الملل بسبب الإطاله في الاستشهاد، فهناك غلو في الذبائح، وغلو في العبادة، وغلو في العقوبات بأن يكون الحرق والقتل سمة مميزة للحدود الشرعية، وغلو في النذور يصل إلى حد حرق الأب لابنته.

كلها نصوص مقدسة ووصايا توراتية لا يمكن إغفالها، والمهم في ذلك أنه لا يمكن إنكار أثر هذه النصوص في عقلية المتلقي المتدين، ومن ثم لا يمكن إغفال توابع هذا الأثر من خلال إنكار الأصولية اليهودية في سلوكها المتطرف والمتميز بالغلو والعنف في إلغاء الآخر.

وأمام هذه الحدود ذات السمة المغالية المتطرفة يقف الإسلام شامخاً وهو يضع أوامره بإقامة الحد بسياج من الضوابط الحاكمة، مما يجعل تحقيق الحد أمراً ليس بالهين إن لم يكن من المستحيل، مثل شروط حد الزنا، وكذلك هناك ظاهرة العفو التي رسخها الإسلام مع ترسيخ قيم الإحسان والتوبة من أجل خلق مجتمع متوازن فيه البعد الروحي والأثر الإنساني، بخلق أجواء إيمانية وأجواء محبة من أجل إنسان أكثر كمالاً.

إنه البون الشاسع على الدوام بين دين له الكمال ويسعى لأن يأخذ بيد الإنسان للوصول للكمال، وأصولية تنتج الغلو في السلوك كاليهودية. نقولها على الدوام؛ لا يوجد في ديننا ما يعيب، ولا يوجد في أصوليتهم ما يدعو للفخر.

النص المقدس ومجامع القيم
بتثبيت ظاهرة السحر

من الملفت للنظر أنه مع توسع الظاهرة العلمانية في العالم الغربي الحديث واتساع مفهوم العلمانية ليشمل كل جوانب الحياة، لا زالت ظاهرة السحر وقراءة الكف والبخت و معرفة طالع الشخص، من السمات المرافقة والشائعة في المجتمع الغربي.

ومثال ذلك ما صرح به أندريه سانتبتي، حيث يقول: "إن شخصاً من كل خمسة أشخاص في فرنسا حالياً يلجأ إلى السحر، فمن الطبيعي أن يلجأ بعض سياسيي فرنسا إلى السحرة والمنجمين، ومثال ذالك رئيس جمهورية فرنسا السابق ميتران، وكذلك كان الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية ريغان الذي له سحرة ومنجمون يستعين بهم في اجتماعاته وجولاته.

قد يبدو للناظر أن هناك تناقضاً بين الظاهرتين، إذ كيف يكون هناك إنسان علماني، وفي الوقت نفسه يؤمن بخرافات أسطورية (مثل السحر) وكأن الضدين قد اجتمعا في نفس الزمان والمكان.

إن تحليل الظاهرة التي ذكرناها بهذا الوجه والتوقف عند هذا الحد يوحي بمثل تلك الرؤيا، إلا أن المزيد من تفكيك الحالة وإيضاح القاسم المشترك بين الظاهرتين، يلغي اللبس في اجتماعهما.

إذ أن أهم ملامح الفكر العلماني هو فك العلاقة بين الدين والدولة، ثم أصبحت الممارسة العلمانية تسعى إلى فك الارتباط بين الإنسان والدين، وبعد تراكمات فكرية في بناء مفهوم العلمانية مثلها مثل أي ظاهرة فكرية تنمو وتتطور، ومع تصاعد مفهوم العلمانية، أصبح المنحى إلى إلغاء العلاقة بين الإنسان والله السمة المميزة للفكر العلماني، وأصبح مسعى العلمانية الحديثة أن تجعل من الإنسان هو البديل عن الإله، وتدفع بالإنسان للتدخل في قوانين الطبيعة ونواميس الكون لزحزحة الغيب المطلق (الله).

والساحر ببساطة يختزل هذا الجهد وهذا المفهوم ليقدم صورة للإنسان المتحكم في قوانين الطبيعة من خلال التعاويذ والتمائم وترديد بعض الكلمات لتحقيق غاياته.

فظاهرة السحر، إذا جاز لنا التعبير عنها، علمانية جنينية، فهي تحمل بين طياتها بذور العلمانية بخلق إنسان يزاحم الغيب المطلق (الله)، والعلمانية الحديثة تسعى أيضاً لخلق إنسان يزاحم الغيب المطلق (الله)، فالظاهرتان تسعيان لخلق إنسان مرتبط بالمادة مؤثراً في قوانين الطبيعة عائداً إليها من خلال إلغاء الغيب المطلق، إحداهما من خلال التمائم والتعاويذ، والأخرى من خلال تسطيح التمايز بين الله والإنسان والطبيعة.

ومن السمات المشتركة بين السحر و العلمانية الغرور، "فالسحر تعبير عن الغرور الإنساني، إذ يجسد اعتقاد الإنسان بأنه قادر، بجهده الخاص، على التحكم في الظواهر الطبيعية، وبالمقابل يعبر الدين عن التواضع الإنساني، إذ يجسد اعتقاد الإنسان بأنه أضعف وأضأل شأناً من أن يتحكم في ظواهر الطبيعة أو يستغل مرونتها وقابليتها للتعديل، لصالحه، بجهده الخاص، وهو اعتقاد يجعله يتنصل من غرور السحر والاكتفاء بمحاولة الوصول إلى القوى العليا بالصلاة".

وبالمقابل نرى النزعة نفسها لدى العلماني بسطوة وجبروت، حيث يلغي كل ثنائية في الوجود، فالإنسان هو مدار الكون، والأمور كلها تبدو مسطحة، فالكل في الكل وحدة متماسكة لا تنفك؛ الإله والإنسان والطبيعة والمادة، وهذه المفاهيم هي عين الغرور.

"إن الثنائية الفضفاضة - ثنائية الخالق والمخلوق والإنسان - الطبيعة - ليست إثنية أو ثنائية صلبة، لأن الإنسان من خلال النزعة الربانية داخله، ينفصل عن الإله وعن الطبيعة، ولكنه يتفاعل ويتجاوب معهما، والوجود الإنساني الأمثل ليس محو النزعة الجنينية والتعبير الخالص عن النزعة الربانية، ولا هو محو النزعة الربانية والتعبير الخالص عن النزعة الجنينية، وإنما التكامل والتقابل بينهما،.بينما في المقاييس العلمانية الحديثة ترجع العلمانية كل شيء إلى الطبيعة – المادة، وتعتقد وتروج إلى أنه لا يوجد سوى جوهر واحد في الكون، هو مادة واحدة يتكون منها كل شيء، فهي المرجعية المطلقة المكتفية بذاتها".

وهذا عين الغرور الإنساني الذي يتطابق مع السحر في غروره ورفضه للتجاوز الإنساني بمعرفة الغيب المطلق (الله).

مفهوم السحر اليهودي، هو التدخل لإيقاف المشيئة الإلهية أو التدخل بها. وسنرى عند استعراض بعض النصوص التوراتية المسعى السحري لإيقاف أمر إلهي أو العمل السحري لتعطيل قوانين الطبيعة ولإظهار صورة الإنسان المتعالي على الطبيعة وقوانينها وصورة الإنسان المتفوق على الدين، إنها العلمانية الأولى التي ولدت مع الإنسان البدائي ضد مفاهيم التدين من خلال السحر، هذه الصور المزدوجة هي السمة الملازمة للتوراة، وعندما غضب الرب على اليهود أرسل إليهم حيتان فكان كل من لدغ بأحدها يموت، فطلب الشعب من موسى أن يفعل شيئاً.

"فقال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ ونظر إليها يحيا. فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية فكان متى لدغت حية إنساناً ونظر إلى الحية يحيا". (سفر العدد: -٢١ ٨، ٩). لقد تحولت قطعة النحاس إلى قوة خارقة فاعلة تشفي من يصاب بلدغة الحية الحقيقية المميتة فيتجاوز المصاب حالة الموت، وهذا يعني قدرة قطعة النحاس على منح الحياة لمن شارف على الموت بمجرد النظر إليها، ومن لم يسعفه النظر مات، وقد يفسر بعض الأتقياء أن فعل الحية النحاسية كان استجابة الرب لطلب موسى، إلا أن الذي نميل إليه أن هذا الطلب محشور في النص لتبيان شرعية وجود الحية النحاسية، إذ أن الله القادر الذي أرسل الحيات لعقاب بني إسرائيل بقدرته وبأمره يوقف الحيتان عن الفعل، مثلما أمر الحيتان بعقاب بني إسرائيل يأمرها بالتوقف عن لدغ بني إسرائيل، فلا حاجة لحية نحاسية، إلا أن للحية سحرها وأثرها في العقائد اليهودية لما لها من أفعال سحرية مؤثرة، حيث نراها ناصحةً آدم في الجنة لأنها تعرف الأسرار الإلهية:

"وقالت المرأة للحية.. وأما ثمر الشجرة التي وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منة تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر.. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل... وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار واحداً منا عارفاً الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد". (سفر التكوين:٣ – ٧، ٩، ٢٢).

إذاً الحية أعلم بمقاصد الله الخفية وعلمت بعلمها أن الله قد أخفى شجرة المعرفة عن آدم، فكانت هي أكثر نصحاً وأدق إرشاداً، فكان لها القدسية والأثر، من قبل حادثة الخروج

في سفر العدد مع موسى، إذ أن لها المكانة السحرية عند أول الخلق. هذا ما يؤكده سفر التكوين، والأثر يتبعه الأثر، والممارسة تتبعها الممارسة. أصبحت للحية مكانتها في الكيان النفسي والعقائدي لليهود، وأصبحت لها قدسية عليا وذلك بتحولها إلى آلهة تعبد، حيث كانت من ضمن معبودات اليهود والتي سميت فيما بعد (تخشتان). ولم تتوقف عباده الحية حتى مجيء الملك حوقيا ابن آحاز، حيث قام بإحراق معبدها وهدم هيكلها وذلك لإلغاء عبادة الحية: "وعمل المستقيم في عيني الرب حسب كل ما عمل داود أبوه. هو أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها تخشتان". (سفر الملوك الثاني:١٨ ٤، ٦)، فكانت الحية هي أول رموز السحر والدلالات السحرية عند اليهود.

وكذلك نرى الفعل السحري يتواجد في النباتات عند اليهود، حيث كان بني إسرائيل في برية شور وشربوا من ماء ماره لأنه ماء مر، ولأجل تحويل الماء المر إلى ماء حلو المذاق: "فصرخ إلى الرب فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذباً". (سفر الخروج: ١٥ - ٢٣، ٢٥)، وبهذا الفعل اكتسبت النباتات صفة سحرية بقابليتها على تحويل خواص المياه المرة إلى مياه عذبة، ومع تراكم الأسطورة والخيال الشعبي اليهودي أخذت النباتات مكانتها السحرية وأصبحت النبتة أداة من أدوات السحر مثلما أخذت الحية مكانتها.

والمتابع لأسفار اليهود يلاحظ عقب كل تمرد وتذمر من اليهود عقاباً، ويعقب هذا العقاب علاج، ففي سفر العدد (الإصحاح ١٦)، تذمر الشعب فكان جواب الرب: "فكلم الرب موسى وهارون قائلاً اطلعا من وسط هذه الجماعة فإني أفنيهم بلحظة، فخرا على وجهيهما، ثم قال موسى لهارون خذ المجمرة واجعل فيها ناراً على المذبح وضع بخوراً واذهب بها مسرعاً إلى الجماعة وكفر عنهم لأن السخط قد خرج من قبل الرب. قد ابتدأ الوباء، فأخذ هارون كما قال موسى وركض إلى وسط الجماعة وإذا الوباء قد ابتدأ في الشعب، فوضع البخور وكفر عن الشعب ووقف بين الموتى والأحياء فامتنع الوباء، فكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفاً وسبع مائة عدا الذين ماتوا بسبب قورح، ثم رجع هارون إلى موسى إلى خيمة الاجتماع والوباء قد توقف". (سفر العدد ١٦: ٤١، ٥٠). إن أهم ما يلاحظ على هذه القصة أن غضب الرب -أي أرادة الرب- قد أوقفه قليل من البخور، والأمر الأهم أن العملية تمت من قبل موسى، أي ليس بسبب دعاء تمت الاستجابة له حتى يقال إن هذا الفعل رباني ثم

التبس على اليهود، كما في غيره مثل استجابة الرب لموسى يصنع الحية النحاسية، ثم تحول الحية مع مرور الزمن إلى معبود جديد ثم أداة من أدوات السحر كما هو في النباتات، لكن البخور له استقلاليته ومكانته فاستعان به موسى لإيقاف غضب الرب وقد أفلح، هكذا يروي لنا النص.

ومن الدلالات والرموز القوية المعبرة عن السحر والساحر، خاصية استعمال الدم في الجلسات الروحية والأعمال التعبدية لدى اليهود، حيث يأخذ الدم دوره في الدائرة الدينية. فهو وجه من أوجه التعبد وعلامة من علامات الرضا للقوى الخفية، فبدايةً الطقس الدموي عقيدة راسخة في أذهان اليهود عند أول الخروج، حيث تذكر التوراة لنا قصة لقاء موسى بالرب. فجاء في سفر الخروج: ٤ - ٢٤: "وحث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله. فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها ومست رجليه. فقالت إنك عريس دم لي. فانفك عنه". إذن بداية التعبد والتقرب إلى الرب كانت طقساً دموياً، ونحن هنا لسنا بصدد نقد الحادثة وما تحوي من تجسيم أو تشبيه، ولكن المهم في النص أنه قدم صورة من طقس وثني لممارسة السحر لرضا قوى خفية.

ومن الطقوس الدموية، طقس العهد بين الرب والشعب، فجاء في سفر الخروج: (٢٤-٦،٨):

"وأرسل فتيان بني إسرائيل فأصعدوا محرقات وذبحوا ذبائح سلامة للرب من الثيران. فأخذ موسى نصف الدم ووضعه في الطسوس. ونصف الدم رشه على المذبح. وأخذ كتاب العهد وقرأ في مسامع الشعب. فقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له. وأخذ موسى الدم ورشه على الشعب وقال هو ذا دم العهد الذي قطعه الرب معكم". ويلاحظ نفس الممارسة الدموية، ولكن النص أسبغ عليها صفة عهد بين الشعب وربه.

ومن غرائب الطقوس ما ذكر في سفر اللاويين، ولطول النص نكتفي بالإشارة إلى ما فيه، والخطاب موجه إلى هارون:

أ- ويأخذ التيسين ويوقفهما أمام الرب لدى خيمة الاجتماع. ويلقي هارون على التيسين قرعتين؛ قرعة للرب وقرعة لعزازيل. ويقرب هارون التيس الذي خرجت عليه القرعة للرب ويعمله ذبيحة خطيئة، وأما التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حياً أمام الرب ليكفر عنه ويرسله إلى عزازيل إلى البرية.

ب- ثم يذبح تيس الخطيئة الذي للشعب ويدخل بدمه إلى داخل الحجاب ويفعل بدمه كما فعل بدم الثور ينضحه على الغطاء وقدام الغطاء.

ج- يأخذ من دم الثور ومن دم التيس ويجعل على قرون المذبح مستديراً. وينضح عليه من الدم بأصبعه سبع مرات.

د- ويضع هارون يديه على رأس التيس الحي ويقرأ عليه بكل ذنوب بني إسرائيل ويجعلها على رأس التيس ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية ليحمل التيس كل ذنوبهم إلى أرض قفرة فيطلق التيس في البرية.

ويشير سفر اللاويين:(١٦ ٢، ٣٤) إلى أن :

هـ - "وثور الخطيئة وتيس الخطيئة اللذان أتى بدمهما للتكفير في القدس يخرجهما إلى خارج المحلة ويحرقون بالنار" على الرغم من الإشراك الواضح في النص والخروج من دائرة التوحيد بأن يكون هناك شريك للرب في غفران الذنوب، وهو (عزازيل) ولا ندري من هو، أهو صنم أم قوة سحرية يتقرب إليها المتعبد بالتوراة، كذلك نرى السخف بحقوق الإنسان بأن يهدر حق مغتصب وجريمة ما من قبل الإنسان لأخيه الإنسان بأن يتحمل هذه الذنوب حيوان من حيوانات البراري. إذن نم بهناء يا شارون فهناك من التيوس من يحمل خطيئة صبرا وشاتيلا وجنين ونابلس وغيرها. والذي يهمنا هو ظاهرة تكرار طقس الدم، وقد حوت أسفار التوراة الكثير من هذه الطقوس، طقوس رش الدم حول الحضور وحول أركان المعبد أو الأركان الأربعة للمكان الذي يتم فيه الذبح...

ومن غرائب الطقوس أن يترك رب العزة أمور عباده ويهتم اهتماماً بالغاً في تفصال وتطريز جبة الكاهن، ويوحي رب التوراة إلى موسى إصحاحاً كاملاً حول جبة الكاهن، فيذكر لنا سفر الخروج (الإصحاح ٢٨) حول هذا الموضوع. "وتصنع جبة الرداء كلها من أسما نجوني. وتكون فتحة رأسها في وسطها، ويكون لفتحتها حاشية حواليها صنعة الحائك. كفتحة الدرع يكون لها، لا تشق، وتصنع على أذيالها رمانات من أسما نجوني وأرجوان وقرمز. على أذيالها حواليها، وجلاجل من ذهب بينها حواليها، جلجل ذهب ورمانة جلجل ذهب ورمانة على أذيال الجبة حواليها فتكون على هارون للخدمة ليسمع صوتها عند دخوله إلى القدس أمام الرب وعند خروجه لئلا يموت". (سفر الخروج ٢٨:٣١، ٣٥)، وهذا مقطع من إصحاح مما يدفع المتعبد إلى حيرة من أمره، هل هو أمام تعبد أم أمام شعوذة وطقوس

سحرية؟ ولماذا كل هذه الممارسة من أجل أن يعبد الإنسان، وهل رب العزة بحاجة إلى كل هذه الجلاجل والأجراس لينتبه حتى يعلم من القادم ومن الخارج، أم هي ممارسات سحرية وأفعال ذات أثر سحري؟؟ ولم تكتفِ التوراة بذلك، بل راحت تكرس مفهوم القداسة للظواهر المادية البالية، حيث جاء الأمر بالتوريث للملابس السحرية، وكأن القداسة أزلية في الظواهر المادية، يؤكد سفر الخروج (الإصحاح ٢٩): "والثياب المقدسة التي لهارون تكون لبنيه بعده ليمسحوا فيها ولتملأ فيها أيديهم، سبعة أيام يلبسها الكاهن الذي هو عوض عنه من بنيه الذي يدخل خيمة الاجتماع ليخدم في القدس". (الخروج: ١٩ - ١٩).

وبهذا التيه تحولت العبادة إلى طقس، واجتمعت أركانه من دلالات ورموز وكلها تدفع باتجاه واحد، كونها بديلاً عن الرب، ومانعة لفعل الرب، وشريكة لفعل الرب، من حية نحاسية إلى نبتة سحرية وبخور خارق يوقف الأمر الرباني ودم هو أساس التعبد، وجبة سحرية تصدر أصواتاً وذات أشكال هندسية ومطرزات وأفعال وخوارق. ثم تراكم الفعل من مفردات وأرقام وأصبح للحرف أثر، وللرقم قوة، وللصوت وكيفية الترنيمة فاعليه، وعلى الرغم من هيمنة هذه المفردات في حياة اليهودي، إلا أن التوراة لم تخلُ من التحذير والتنفير من مخاطر السحر الذي ابتلع الدين الحقيقي، تقول التوراة منبهة لمثل هذا الموج الكاسح: "لا تأكلوا بالدم. لا تتفاءلوا ولا تعيفوا. لا تقصروا رؤوسكم مستديراً ولا تفسد عارضيك. ولا تجرحوا أجسادكم لميت وكتابة وسم لا تجعلو فيكم أنا الرب"، (سفر اللاويين:-١٩ ٢٦، ٢٨). وعلى الرغم من ذلك، فقد استعان النبي شاؤل بالسحر والساحرة، وفي هذه الاستعانة دليل قوي على سيطرة فكرة السحر على المعتقد التوراتي:

"فقال شاؤل لعبيده فتشوا لي عن امرأة وصاحبة جان فاذهب إليها واسألها". (سفر صموئيل ثانٍ: ٢٨-٨)

"فمات شاؤل بخيانته... لأجل طلبه إلى الجان للسؤال، ولم يسأل من الرب فأماته وحول المملكة إلى داود". (أخبار أيام أول: ١٠ - ١٤). أمام هذا الكم من التعليم الديني والرواية الدينية التي حوت بين طيات نصوصها الأسطورة والخرافة والتي هي من أهم عوامل إنعاش مفاهيم السحر، يضاف إليها أرث شفوي لا يقل فعلاً وأثراً عن قداسة النص الديني، تشكلت مع عامل الزمن بالقبول المتبادل بين الدين اليهودي أو الظاهرة اليهودية والسحر، وأصبح السحر والساحر سمة يهودية، وأصبحت مصادر التعبد اليهودية دلالات للسحر من العهد القديم إلى التلمود إلى الزهار إلى الجمارا،

ومن آثار ذلك تعايش ظاهرة السحر في المجتمع الحديث، لأن خلفية هذا المجتمع ومرجعيه عموماً الكتاب المقدس، وأهم عامل مؤثر فيه وناقل للفكر اليهودي سلباً وإيجاباً هو العهد القديم.

نعم التعبد سمة من سمات الدين، والعبودية تدين، إلا أن تشريع العبادة هو للأثر الذي فيها، وما لها من خصال حميدة لفائدة الإنسانية والمجتمع، والعبادات التي لا تحوي على أثر تربوي وأخلاقي لبناء الإنسان تكون مجرد طقوس وطلاسم وليست عبادات، هكذا علمنا الإسلام فلا توجد شعيرة من شعائر الإسلام إلا ولها فائدة تعود على الشخص وعلى المجتمع، فليس في ديننا طلاسم وحمامات دم لرضا الرب، ولا تيوس تذبح بعد اغتصاب حقوق الآخرين، بل توبة وعودة الحقوق إلى أصحابها، هذا هو ديننا الإسلام، فليس فيه ما يعيب، وليس في أصوليتهم ما يدعو إلى الفخر، جزى الله عني الإسلام خير الجزاء.

المعلومة الدينية
بين الخيال والأسطورة والخرافة

الخيال سمة ملازمة للتكوين الإنساني، و هي ظاهرة تمر على جميع البشر، ويكاد لا يخلو فرد من معايشة لحظاتها، والخيال أداة تعبير داخلية عن الرغبات بين الفرد والآخرين، فهو مرحلة، وهو كذلك واحة راحة للعقل البحت المجرد من كثرة معادلاته الرياضية.

إذن هناك تباين بين ما هو فعل عقلي بحت وبين ما هو حالة استرخاء للخيال لحالة من حالات الراحة أو حالة من حالات الهروب من الفعل العقلي، كالعجز عن تحليل الظاهرة، فيأخذ الفكر بنا مأخذه إلى عالم الخيال، وكثير من البشر لا يعتبرون ما يقوم به العقل هروباً، بل يصرون على اعتبار وضعه فعلاً عقلياً.

والخيال ليس ممقوتاً بالمطلق، فهناك الخيال الأدبي الذي لا بد منه لإنعاش النفس والفكر بالعبارة الفاعلة التي تأخذ مأخذها في النفس البشرية، وهناك الخيال العلمي الذي أصبح ظاهرة ملازمة للمخترعات والمشاريع العلمية، بل هناك الخيال الفقهي الذي يقدر الحالة قبل وقوعها ثم يفترض أحكاماً فقهية على ضوء ذلك، كما أن هناك الخيال الجمعي، الذي يأخذ شكل الأسطورة، وهذا الخيال المشترك يدعم القناعات المتواجدة بين أفراد المجموعة، وقد كانت الأسطورة إحدى إبداعات الأدب القديم وإحدى إبداعات الخيال الجمعي للشعوب في العصور القديمة، وهناك عبر التاريخ القاص الشعبي الذي يمتلك خيال خصب لإنعاش المستمع بما لذ وطاب من خيالاً مترفاً وانسيابية في الأفكار والحدث.

وبعد التطور العلمي الهائل حلت السينما لتقدم لنا الخيال السينمائي لتعوض عما فقده العنصر البشري من رواد الخيال بسبب الزحمة العلمية.

ورغم الحاجة إلى الخيال إلا أن العقل البشري اتخذ موقفاً حاسماً أمام ظاهرة الخيال بحيث لا تتمادى، والسبب في ذلك هو سبب عقلي يعود إلى حاجة النوع الإنساني للمعلومة العقلية من أجل تطوير مناحي الحياة، لا بل والأهم هو حاجة النوع الإنساني للمعلومة

الخالية من الخيال التي تخضع للعقل، ليعلم الصواب من الخطأ، وليميز بين المعلومة الكاذبة والمعلومة الصادقة.

ويستمر موقف العقل بالتحدي تجاه المعلومة، بل ويزداد صرامة مع المعلومة كلما زادت أهميتها ومصدرها ليفرغها من كل شائبة. ولن يقف العقل مكتوف الأيدي أمام الإفراط في الخيال إلى حد خروج المعلومة من الخيال الفطري العفوي إلى حالة من حالات الهلوسة المفرطة التي تضع المعلومة في مصاف الأسطورة، بل وتدفعها دفعاً إلى الخرافة.

وتعتبر المعلومة الدينية من أخطر المعلومات لما لها من أثر وتداعيات على المتلقي حيث تشكل نسقاً أخلاقياً، وتكويناً نفسياً، بل هي أم الظواهر والكيانات الاجتماعية، ونظراً لما تمتلك المعلومة الدينية من أثر وخطر نرى الفعل العقلي يتدبر، ويمحص، ويشك، ويراجع، حتى يطمئن عقلاً لما يقرأ.

ومن نماذج الخرافة ما ذكر في العهد القديم لما حدث بين صفين من التواجد اليهودي حيث استعانت إحدى الكتل البشرية العبرية برب التوراة، وأخرى كانت على معصيتها، فحصلت معركة انتهت بمقتل ما بين ٥٠٠ وألف عنصر، حيث ذكر في سفر أخبار الأيام الثاني (١٠ ١٩-، ١٣): "وكان يربعام أرسل بعضاً من جيشه فداروا حول رجال يهوذا وكمنوا وراءهم. وبقي هو وسائر جيشه في مواجهتهم، فالتفت رجال يهوذا، فصرخوا إلى الرب ونفخ الكهنة بالأبواق، وهتف رجال يهوذا. وعندما هتفوا وهجموا بقيادة أبيا، ضرب الله جيش إسرائيل أمامهم فانهزموا وأسلمهم إلى أيديهم، فضربهم أبيا وجيشه ضربة عظيمة سقط فيها خمسمائة ألف رجل من خيرة جيش إسرائيل، فخضع شعب إسرائيل في ذلك الوقت وانتصر شعب يهوذا"، والذي يهمنا في هذا النص هو صولة أبيا العسكرية وقيامه بقتل ٥٠٠ ألف شخص بلمح البصر، وفي منطقة محدودة، وبأدوات عسكرية بدائية، والتكوين اليهودي لا يمتلك رصيداً بشرياً يساعده على تقديم مثل هذا العدد في أوائل تكوينه، مما يخرج النص من الخيال الممكن إلى رحاب الأسطورة ليعبر بها مسرعاً إلى الخرافة. إذ لم يحدد النص البعد الزمني للفعل، وكل أدوات العمل العسكري هي صرخة بني يهوذا ومن ثم النفخ في أبواق الكهنة، فهل الصرخة والنفخة كافية لقتل خمسمائة ألف رجل حاملي السيف؟.

ومن هذه الملكات الخيالية التي تملأ التوراة والعهد القديم، تم البناء القصصي والمعلوماتي للحدث.

لذلك نرى أن العهد القديم يتنقل بين خيال مبالغ فيه إلى أسطورة واضحة المعالم في أسفار بني إسرائيل، ثم سقوطها في الخرافة بين موقف وموقف أو بين نص ونص.

ونظراً لاتساع المواضيع وتعددها وتداخلها، تم اختيار جانب واحد من جوانب عديدة منها، إلا وهو الجانب العسكري وكيفية التعامل مع الأرقام الوارد ذكرها.

إن الفعل الرئيسي للتوراة وأسفار العهد القديم مبني على عنصر واحد، هو امتلاك الأرض، وما بعده لواحق ولوازم للظاهرة اليهودية. وفي هذا الجانب تحديداً صالت وجالت التوراة لتبين الفعل العسكري وما تمتلك من قدرات عالية الفعالية في امتلاك الأرض.

والذي اعتمدنا عليه هو المصدر اليهودي الوحيد بين أيدينا؛ العهد القديم (التوراة وأسفار بني إسرائيل)، إذ أن عملية العبور التي تشمل بعض الكيلو مترات كلفت البشرية مئات الآلاف بل ملايين البشر، وفي معارك عناصرها الرئيسية، الخيال، والأسطورة، والخرافة.

ومن شطحات الخيال ما ترويه أسفار بني إسرائيل في معركة أدوم مع ملك بني إسرائيل (يوشافط)، ففي البدء يقدم السرد القصصي المقومات العسكرية لهذا الملك فيعدد قواته. "وازداد يوشافط عظمة وبنى يهوذا أبراجاً ومدناً للخزن جمع فيها كمية كبيرة من المؤونة، وكان له قادة جبابرة أشداء في أورشليم وكلهم قادة ألوف من المحاربين.

أ - فمن يهوذا عدته ومعه ثلاث مئة ألف مقاتل.

ب- ويليه يونثان ومعه مائتان وثمانون ألفاً.

ج- ويليه عمسيا بن زكريا ومعه مئتا ألف.

د- ومن بنيانين الجبار ومعه مئتا ألف مسلح بالأقواس، (٢٠٠ ألف)

هـ- ويلية يوزاباد ومعه مائة وثمانون ألف مجهزون للحرب. (سفر أخبار الأيام الثاني: ١٧ ١٨ ، ١٠)، وبحساب بسيط يكون مجموع قوات يوشافط مليوناً وستين ألف مقاتل.

لذلك دب الرعب في صفوف الشعوب المجاورة، مما دفع بالعرب إلى إرسال غنائمهم إلى ملك إسرائيل: "وكذلك العرب جاؤوا إليه بسبعة آلاف وسبعمائة تيس" (سفر أخبار الأيام الثاني: ١٧ - ١١). وأمام هذه القوة الجبارة لهذا الملك وسطوته وسلطانه تحدث معركة لم يشارك بها، بل كل الذي فعله هذا الجيش الجرار هو جمع الغنائم وسبي ما بقي من الجيش المهاجم.

"وبعد ذلك جاء بنو مؤاب وبنو عمون ومعهم المعونيون لمقاتلة يوشافط" (أخبار أيام ثانٍ:-٢٠ ١) قام يوشفاط بطلب العون من يهوه فكانت النتيجة: "أرسل الرب من يدب الفوضى في بني عمون وبني مؤاب وأهل سعير الزاحفين على يهوذا، فهجم بنو عمون وبنو مؤاب على أهل جبل سعير وأبادوهم، ولما فرغوا منهم تقاتلوا وأهلك بعضهم بعضاً". (أخبار أيام ثانٍ ٢٠ – ٢٣، ٢٢). نعم هناك نيران صديقة تحدث إرباكاً عسكرياً إلا أن هذا لا يبرر مقتل جيش جاء ليواجه قوة ذكر تعدادها بمليون وستون ألف، ثم تستعرض الرواية حجم القوة القادمة من خلال الغنائم التي خلفتها وسباها بنو إسرائيل.

"فاقبل يوشافط وجيشه لأخذ غنائمهم، فوجدوا ماشية كثيرة وأمتعة وثياباً وأشياء ثمينة وبقوا ثلاث أيام يجمعون الغنيمة لأنها كانت كثيرة، بل أكثر مما أمكنهم حمله، وفي اليوم الرابع اجتمعوا في وادي البرية حيث باركوا الرب فدعي ذلك المكان وادي البركة إلى هذا اليوم". (سفر أخبار اليوم الثاني: ٢٠ ٢٦، ٢٤)، وهذا يعني ببساطة شديدة أن القوة القادمة التي ألزمت ملك إسرائيل وجيشه البالغ مليون وستين ألفاً أن لا يقاتل، ضعف القوة اليهودية، بل أضعاف التكوين العبري، مما يدل عل ضخامة العدد القادم للقتال وإن لم يذكر. وأقل ما يمكن أن يقال إن عدد الجيش المقتول أو المباد إن لم يتجاوز الضعف فهو مليون. وسعت جيوش بني إسرائيل لنقل غنائم السبي لمدة ثلاثة أيام من دون انقطاع، بل و تؤكد الرواية أن الغنائم كانت أكثر مما يمكن حمله، وعملية إبادة هذه الجيوش بهذه الطريقة الركيكة لا تعبر عن ملحمة بطولية، ولا مأثرة حتى تعد ضمن أفعال الأسطورة بقدر ما هي سرد خرافي يفرغ النص من فاعليته وأثره الأدبي.

ومن غرائب الخرافة اليهودية ما ذكر بمعركة أريحا، إذ أن الحصار المفروض لم يحقق نتائجه المرجوة ولم تستطع جيوش يشوع فتح مدينة أريحا، ولم يكن من بد إلا اللجوء إلى المألوف من تخريجات كتبة أسفار بني إسرائيل، إلا وهو الحرب بالإنابة، فكان الحل في سفر يشوع على الشكل التالي: "وكانت أريحا مغلقة بسبب إسرائيل لا أحد يخرج ولا أحد يدخل. فقال الرب ليشوع، انظر، قد دفعت بيدك أريحا وملكها جبابرة البأس، تدورون دائرة المدينة جميع رجال الحرب، حول المدينة مرة واحدة، هكذا تفعلون ستة أيام، وسبعة كهنة يحملون أبواق الهتاف السبعة أمام التابوت، وفي اليوم السابع تدورون دائرة المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالأبواق. ويكون عند امتداد صوت قرن الهتاف عند استماعكم صوت

البوق أن جميع الشعب يهتف هتافاً عظيماً فيسقط سور المدينة في مكانه ويصعد الشعب كل رجل مع وجهه، فدعا يشوع بن نون الكهنة وقال لهم." (سفر يشوع: ٦ – ٦، ١" . ويستمر الإصحاح بتوضيح الصورة وينتهي بتنفيذ ما أوصى به الرب، وتم فتح أريحا بسبع دورات، وسبع صرخات، وسبع نفخات بالأبواق السحرية، وكفى يهوه اليهود القتال.

إن من الصعوبة الولوج في كل الأرقام المذكورة عبر التوراة وأسفار بني إسرائيل، لأن ذلك يعني الخروج من هيكل المقالة والبحث الموجز إلى تصنيف مؤلف أو يزيد، ولكن سنسعى جاهدين توفير أوسع معلومة دون إجهاد المتابع.

في العهد القديم أنواع من الحروب وتخريجات عديدة هي في حقيقتها غطاء للنزعة الدموية، التي تمتلك التكوين النفسي والفكري للكيان اليهودي، لذلك نجد أن لكل مجزرة من المجازر الدموية سياقها وتبريرها المسبق ومثال ذلك:

أ – هناك حروب بالإنابة يقوم بها رب اليهود عن اليهود.

ب– وهناك حروب غضب رب اليهود على اليهود عند قطع أوصال الود بين الاثنين.

ج – وهناك حروب من قبل اليهود تجاه اليهود أنفسهم لاختلاف بين أسباط بني إسرائيل.

د– وهناك حروب من قبل اليهود على سكان الأرض الأصليين أو دول الجوار.

وتعتبر الأقسام الثلاثة الأولى من تصنيفات الحروب حروباً داخلية، والملاحظ أن عموم المجازر الداخلية والخارجية، ذات طبيعة دموية، وأن كل أزمة داخلية في التكوين العبري تتحول إلى مجزرة تنتهي بتصفية مؤلمة، وأن كل خلاف مع عابر سبيل من دول الجوار ينتهي بحرب دموية تنتهي بتصفية مؤلمة، والبناء الخرافي للسرد التوراتي مكمنه في المبالغة بعدد القتلى سواء أكان المقتول من التكوين اليهودي أم غيره، بسبب عدم تحمل المنطقة والتجمعات البشرية المتواجدة فيها في حينها، وهنا نأتي لشرح هذه الحروب بالتتابع:

أ- حروب الإنابة من قبل رب اليهود.

١ – إذ ذكر في سفر ملوك الثاني (١٩ – ٣٦، ٣٥): "وكان في تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفاً. ولما بكروا صباحاً إذ هم جميعاً جثث ميتة. فانصرف سنحاريب ملك آشور وذهب راجعاً وأقام في نينوى" . معركة تنتهي بنصر سريع ودون جهد يدفع ثمنها سنحاريب مع مئة وخمسة وثمانين ألفاً من جنوده.

٢ - كذلك في سفر القضاة: (١ - ٤، ٢): "فقال يهوذا لشمعون أخيه اصعد معي في قرعتي لكي نحارب الكنعانين، فأصعد أنا معك في قرعتك، فذهب شمعون معه، فصعد يهوذا. ودفع الرب الكنعانيين والفرزيين بيدهم فضربوا منهم عشرة آلاف رجل". شخصان يقومان بإبادة وقتل عشرة آلاف شخص، والآدق أن عملية التصفية كانت هدية من رب التوراة إلى يهوذا وشمعون.

ب- حروب غضب الرب على اليهود. يرد بهذا الصدد:

١ - في سفر العدد (٢٥ - ٩، ٧): "فحمي غضب الرب على إسرائيل فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب وعلقهم مقابل الشمس فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل..وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفاً".

٢ - وفي سفر الخروج (٣٢ - ٢٨، ٢٦): "هكذا قال الرب إله إسرائيل: ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه، ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل".

٣ - وأيضاً في سفر العدد (١٧ - ٤٨، ٤٧): "لأن السخط قد خرج من قبل الرب قد ابتدأ الوباء، فأخذ هارون كما قال موسى وركض إلى وسط الجماعة وإذا الوباء قد ابتدأ في الشعب فوضع البخور، وكفر عن الشعب، ووقف بين الموتى والأحياء فامتنع الوباء، فكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفاً وسبع مئة عدا الذين ماتوا بسبب قورح".

٤ - صموئيل أول:(٦ - ١٩): "وضرب أهل بيتشمس لأنهم نظروا إلى تابوت الرب، وضرب من الشعب خمسين ألف رجل وسبعين رجلاً، فناح الشعب لأن الرب ضرب الشعب ضربة عظيمة". نظرة لتابوت الرب تكلف الشعب اليهودي خمسين ألف قتيل.

٥ - وفي أخبار أيام أول(٦-١٤): "فجعل الرب وباء في إسرائيل، فسقط من إسرائيل سبعون ألف رجل".

٦ - وفي صموئيل ثانٍ: (٢٤ - ١٧، ١٥) ما نصه: "فجعل الرب وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد فمات من الشعب من دان إلى بئر السبع سبعون ألف رجل. وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها فندم الرب عن الشر وقال للملاك المهلك الشعب كفى".

ج- حروب بين اليهود أنفسهم بسبب الخلافات الداخلية.

ففي سفر القضاة عبر الإصحاح ١٩، والإصحاح ٢٠، قصة رجل لاوي يتم اختطاف زوجته من قبل سبط بنيامين، مما دفع الأسباط الباقية إلى الانتقام والرد، فجمعت أسباط بني إسرائيل جيشاً قوامه ٤٠٠ ألف مقاتل، وتنتهي المعركة مع سبط بنيامين بالنتائج التالية:

١ - "وخرج رجال إسرائيل لمحاربة بنيامين وصف رجال إسرائيل أنفسهم.

فخرج بنو بنيامين من جبعة وأهلكوا من إسرائيل في ذلك اليوم اثنين وعشرين ألف رجل.

فخرج بنيامين للقائهم من جبعة في اليوم الثاني وأهلك من بني إسرائيل ثمانية عشر ألف رجل. إلى الأرض كل هؤلاء مخترطو السيف. ووضع إسرائيل كميناً على جبعة محيطاً، وصعد على بني بنيامين في اليوم الثالث واصطفوا عند جبعة كالمرة الأولى والثانية. فخرج بنو بنيامين للقاء الشعب وانجذبوا عن المدينة، وأخذوا يضربون قتلى كالمرة الأولى والثانية". ثم تتحول الكفة لصالح بني إسرائيل بعد مقتل ٨٠ ألف رجل.

٢ - "فضرب الرب بنيامين أمام إسرائيل وأهلك بنو إسرائيل من بنيامين في ذلك اليوم خمسة وعشرين ألف ومئة رجل. كل هؤلاء مخترطو السيف".

ويؤكد سفر القضاة أن المتبقي من سفر بنيامين لم يكن سوى ستمائة رجل. "وهرب إلى البرية إلى صخرة رمون ست مئة رجل وأقاموا في صخرة رمون أربعة أشهر"، (سفر القضاة: ٢٠ - ٤٨). وخوفاً من انقراض السبط توصلت العقلية اليهودية إلى حل مثالي، وذلك بإرسال اثني عشر ألف مقاتل، وقاموا بإبادة شعب يابيش وتم اختطاف أربعمائة فتاة لم تضاجع ذكراً، من أجل إحياء سبط بنيامين (عن سفر القضاة ٢١ - ١٥، ١)، ولا يهمنا سبب هذه الحرب كونها كانت رداً على اختطاف امرأة من سبط لاوي، وكان حلها باختطاف أربعمائة من سكان يابيش، ليس هذا مدار بحثنا، المهم: هل تتحمل القبيلة العبرية قتلى من كلا الطرفين وصل إلى (١٠٥ ألف رجل).

ومن مظاهر الحروب المفرطة في الخيال ما حدث بين الجلعاديين وبني أفرايم، وتمثل ذلك بحدوث مجزرة على ضفاف النهر راح ضحيتها أربعون ألف رجل دون أن يحدث تحفظ للطرف الآخر، بل استمرت المجزرة، وأكوام البشر تتكدس فوق بعضها بعضاً، وكأن الذين

يقتلون عبارة عن مجموعة منومة وتساق إلى القتل.

٣ - وفي سفر القضاة (١٢ - ٤، ٧): "جاء فيه (فأخذ الجلعاديون مخاوض الأردن لأفرايم وكان إذ قال منفلتو أفرايم دعوني أعبر. كان رجال جلعاد يقولون له أنت أفرايمي فإن قال لا كانوا يقولون له قل شبولت فيقول سبولت ولم يتحفظ للفظ بحق. فكانوا يأخذونه ويذبحونه على مخاوض الأردن. فسقط في ذلك الوقت من أفرايم اثنان وأربعون ألفاً" .وفي هذا السياق يجب أن لا ننسى ما ذكرناه سابقاً من أن مجزرة تمت داخل القبيلة العبرية راح ضحيتها نصف مليون رجل مخترطي السيف، ذكرت في سفر أخبار اليوم الثاني (الإصحاح ١٣-، ١٣). وفي عملية حساب بسيطة للروايات الثلاث يكون مجموع القتلى ستمائة وخمسة وأربعين ألفاً، والسؤال يعيد نفسه: هل تتحمل القبيلة العبرية مثل هذه الأعداد؟ وهل كان التكوين اليهودي من الاستقرار البشري بحيث يتحمل مثل هذا العطاء البشري؟

د- حروب من قبل اليهود على سكان الأرض الأصليين.

ومن خرافة الحروب اليهودية ما ذكر في سفر الملوك أول، بمقتل مئة وسبعة وعشرين ألفاً في يوم واحد وبطريقة سحرية. مئة ألف بصولة قتالية من القبيلة العبرية، وسبعة وعشرين ألفاً قتلوا بسور المدينة، ولا نعلم أي مدينة في فلسطين القديمة تملك سوراً عظيماً بهذه الضخامة، حتى أنه في حالة سقوطه يؤدي إلى مقتل سبعة وعشرين ألفاً.

١ - سفر الملوك أول (٢٠ - ٢١ ، ٢٠): "وفي اليوم السابع اشتبكت الحرب فضرب بنو إسرائيل من الآراميين مئة ألف رجل في يوم واحد وهرب الباقون إلى أفيق إلى المدينة وسقط سور المدينة على السبعة والعشرين ألف رجل الباقين".

٢ - كما جاء في سفر صموئيل الثاني (١٠ - ١٨، ١٧): "وهرب آرام من أمام إسرائيل و قتل داود من آرام سبع مئة مركبة وأربعين ألف فارس وضرب شوبك رئيس جيشه فمات هناك".

٣ - سفر صموئيل أول (٤ - ١٠): "فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل وهرب كل واحد إلى خيمة وكانت الضربة عظيمة جداً وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل وأخذ تابوت الله ومات أبنا عالي جفني وفينحاس".

٥ – سفر أخبار أيام الثاني (٢٥ – ١٣، ١١): "وأما أمصيا فتشدد واقتاد شعبة وذهب إلى وادي الملح وضرب من بني ساعير عشرة آلاف، وعشرة آلاف أحياء سباهم بنو يهوذا وأتوا بهم إلى رأس سالع وطرحوهم عن رأس سالع فتكسروا أجمعين".

وتعتبر الحرب التي خاضها جدعون مع فرسانه الثلاث مئة من أغرب الحروب، حيث استطاعوا من قتل مئة وعشرين ألف رجل مخترطي السيف.

وشخصية جدعون لا تقل أسطورة عن غيرها من شخصيات العهد القديم، ففي معركة مع بني مديان تذكر لنا السيرة عن كثرتهم.

٦ – سفر القضاة (٧ – ١٢): "وكان المديانيون والعمالقة وكل بني المشرق حالين في الوادي كالجراد في الكثرة، وجمالهم لا عدد لها كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة". وأمام هذه الكثرة و القوة ما هي الخطة العسكرية المتبعة؟ كانت وحسب النص الديني:

"وقسم الثلاث مئة رجل إلى ثلاث فرق وجعل أبواقاً في أيديهم كلهم، وجراراً فارغة ومصابيح في وسط الجرار، وقال لهم انظروا إلي وافعلوا كذلك كما أفعل إنكم هكذا تفعلون. فجاء جدعون والمئة رجل الذين معه إلى طرف المحلة.. فضربوا بالأبواق وكسروا الجرار التي بأيديهم اليسرى والأبواق وكسروا الجرار وأمسكوا المصابيح بأيديهم. فضريت الفرق الثلاث وكسروا الجرار وأمسكوا المصابيح بأيديهم اليمنى ليضربوا بها وصرخوا للرب ولجدعون، ووقفوا كل واحد في مكانه حول المحلة فركض كل الجيش وصرخوا وهربوا، وضرب الثلاث مائة بالأبواق فهرب الجيش إلى بيت شطه".

وعندما ينتقل بنا كاتب سفر القضاة إلى الإصحاح الثامن (١١ – ١٠)، يصرح بعدد الذين ماتوا من الخطة العسكرية الخارقة لجدعون:

"وكان زج وصلمتاع في قرقر وجيشهما معهما نحو خمسة وعشر ألفاً كل الباقين من جميع جيش بني المشرق. والذين سقطوا مئة وعشرون ألف رجل مخترطي السيف، وصعد جدعون في طريق ساكني الخيام شرقي نوج ويجبهة وضرب الجيش".

لقد أشرنا مسبقاً إلى أن العقل بحاجة إلى شيء من الأسطورة لتثبيت شيء من قناعات تدور في عالم الفكر، وأشرنا كذلك إلى أن هناك ثوابت عقلية لا يسمح العقل بتجاوزها. ونحن أمام حرب وصف عدد المقاتلين فيها بالكثرة كالجراد، ووصفت أباعرهم من الكثرة بعدد

رمال الشاطئ، وانتهت المعركة بمقتل مئة وعشرين ألفاً من حاملي السيف، وكيف بصرخة وكسر جرة، ومن ثلاث مئة رجل، وأمام هذا كيف يمكن أن تكون الخرافة؟؟. ومن حروب جماعية سقنا بعضاً منها نأخذ نموذج شمشون في حرب فردية، ونرى ما تم إحاطته به من هالة من القداسة في فعله العسكري.

٧ - حيث ذكر لنا سفر القضاة (١٥ - ٦، ٤): "وذهب شمشون وأمسك ثلاث مئة ابن آوى وأخذ مشاعل وجعل ذنباً إلى ذنب ووضع مشعلاً بين كل ذنبين في الوسط. ثم أضرم المشاعل ناراً وأطلقها بين زروع الفلسطينيون فأحرق الأكداس والزرع وكرم الزيتون، فقال الفلسطينيون من فعل هذا. فقالوا شمشون". طبعاً لا تسأل هنا عن الكيف الذي تم به ربط ثلاث مئة ابن آوى.

وفي معركة أخرى يقتل شمشون ألفاً من الرجال.

٨ - سفر القضاة (١٥ - ١٧، ١٥): "ووجد شمشون فك حمار طرياً، فتناوله وقتل به ألف رجل، وقال بفك حمار كدست أكواماً وأكواماً بفك حمار قتلت ألف رجل".

ولم تتوقف بطولات شمشون عند هذا الحد، بل يسرف الخيال لينقل لنا صورة أخرى من صور الأسطورة لشمشون.

٩ - سفر القضاة(١٤ - ٦، ٥): "فنزل شمشون وأبوه وأمه إلى تمنة وأتوا إلى كروم تمنة. وإذا بشبل أسد يزمجر للقائه، فحل عليه روح الرب فشقه كشق الجدي وليس في يده شيء". ولم تتوقف القصة عند هذا الحد، إذ أنها تستمر لتعطي لنا الخاتمة.

١٠ - سفر القضاة (١٤ - ٩، ٧): "ولما رجع بعد أيام لكي يأخذها مال لكي يرى رمة الأسد وإذا دبر من النحل في جوف الأسد مع عسل. فاشتار منه على كفيه وكان يمشي ويأكل وذهب إلى أبيه وأمه وأعطاهما فأكلا ولم يخبرهما أنه من جوف الأسد اشتار العسل".

ومن الإسراف في تعداد الحوادث وتنوعها يبقى هناك اسؤال مطروحاً: هل التكوين البشري، في قطعة أرض محددة إن اتسعت فهي لن تتجاوز إمارة من الإمارات التي كانت في أرض فلسطين القديمة، كانت تحتمل مثل هذا العطاء البشري لمثل هذه الحروب؟؟

أم أن الإسراف في القتل يوحي بترسيخ مفهوم شرعية المجازر؟؟

أم أن العهد القديم كان أثره الثقافي على العالم القديم أقوى فعلاً من الوحي؟؟

وهل نحن أمام كتاب يمتلك العصمة لأنه من الله، أم الفعل البشري فيه أكثر أثراً وأقوى فعلاً؟؟

أم الواقع والنتائج تؤكد أننا أمام تكوين ثقافي بدائي حمل الأسطورة والخرافة وتحصن بسور الدين والعصمة ليكون بمنأى عن معول العقل؟؟؟

العنف المنظم
وإرهاب الدولة

من أبرز الأمور التي عانى منها الإنسان عبر التاريخ، هو الظلم الذي ظهر مع ظهور مؤسسة الحكم، سواءً في شكل فرد متحكم أو في صورة سطوه قبيلة أو مجموعة معينة، وتكتمل الظاهرة من خلال الدولة.

فالعنف المنظم من قبل الدولة تجاه الآخرين هو مشكلة المشاكل في العصر الحديث، وعلى الرغم من قوة مؤسسات المجتمع المدني كظاهرة حديثة، إلا أن مركزية الدولة واتساع نشاطها وخدماتها وصراعاتها مع شبكة معقدة من المصالح المتداخلة للدولة كظاهرة أو الأفراد العاملين في الدولة أو حركة رأس المال المرتبط بالدولة أو رأس المال الخاضع لها، يضفي على العصر الحديث ما يسمى عصر ازدهار الدولة المنظم.

ويعد إرهاب الدولة إحدى سمات العهد القديم في ممارساته اتجاه القوى المعارضة وتجاه الآخرين من أبناء ملته.

ومن أهم مميزات الدولة عملية ترسيخ المفاهيم، التي تمنح الدولة أوتمنح الحاكم شرعية عمله.

١ - يذكر لنا العهد القديم هذا المفهوم: "لا تسب الملك ولا في فكرك، ولا تسب الغني في مضجعك. لأن طير السماء ينقل الصوت وذو الجناح يخبر بالأمر". (سفر الجامعة: ١٠ -٢٠). والملفت للنظر في النص الأثر الأمني على المتلقي بخلق إحساس من قوة الرقابة بأن يكون طير السماء وكل ذي جناح وسيلة من وسائل نقل المعلومات ، ثم يأتي بعد هذا الترسيخ الحصانة لقوى الدولة والفاعلين فيها.

٢ - "أيضاً تغريم البريء، ليس بحسن، وكذلك ضرب الشرفاء لأجل الاستقامة"، (سفر الأمثال: ١٧ - ٢٦)، والشرفاء هم رجال الدولة وأصحاب المال والجاه والقوة في المجتمع،

فتغريم البريء والاقتصاص من الشرفاء من أجل الاستقامة عمل غير حسن، القصد منه تضليل المتدين بقصد قبول الظلم الحاصل من رجالات الدولة. وبعد ترسيخ المفاهيم بشرعية ممارسة الدولة لأفعالها يبدأ التلويح بضرورة استمرار العنف وتوفير الغطاء للعنف بالتسويغ الديني المعهود.

٣ - يقول العهد القديم: "ملعون من يعمل عمل الرب برخاء وملعون من يمنع سيفه عن الدم". (سفر إرميا ٤٨ - ١٠). إذن الدم هو مقياس رضا الرب، وهذا ما تبغيه الدولة المعسكرة. ويعقب ذلك ترويع وتخويف إما بالقتل الفعلي أو بترويج المعلومات عن سطوة القادم إليهم بكثرة المجازر أو تحقيقها فعلاً أمام الناس لبث الرعب، وقد عبرت رحاب الزانية عن هذه الحالة بقولها للذين أرسلهم يشوع ابن نون إلى أريحا: "وقالت للرجلين علمت أن الرب قد أعطاكم الأرض وأن رعبكم قد وقع علينا وأن جميع سكان الأرض ذابوا من أجلكم". (يشوع:٢ - ١٠). وقد أكدت أستير هذا الأسلوب في زرع الرعب وترويع الناس بنتائج هذا الفعل بقولها.

٤ - "وكثيرون من شعوب الأرض تهودوا لأن رعب اليهود وقع عليهم". (سفر أستير: ٨ - ١٨). و في ذلك دلالة أخرى على استعمال الرعب والإرهاب، مما يدفع الناس للتحول إلى اليهودية أو تقديم خدمات معينة إليهم لا لحصول قناعة ما، ولكن بسبب الإرهاب المنظم.

في الوقت الذي نتحدث فيه عن التاريخ التوراتي لليهود يجب أن نعلم أن كل تصفية لأيه مجموعة إنما تتم بواسطة رب التوراة. و لذلك فكل المجازر التي حدثت أخذت هذا المنحى، ولا يوجد مصدر تاريخي يثبت هذه الأحداث الداخلية أو ينفيها، ولكن تكرار الظاهرة يعطي مدلولاً عقلياً أن هناك معارضة داخل الكيان اليهودي، وهناك تصفيات تم ذكرها في الكتاب المقدس.

يذكر لنا سفر العدد مقاومة قورح لسلطة موسى مع مجموعه من مؤيديه: "وأخذ قورح... يقاومون موسى مع أناس من بني إسرائيل مئتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوين للاجتماع ذوي اسم، فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما كفاكما، إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفي وسطها الرب، فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب". (سفر العدد: ١٦ - ١، ٣).

وعبارات النص توضح الحالة، فهم رؤساء القوم، والاعتراض على الوضع القائم بقولهم: "كفاكما" و "ما بالكما ترتفعان على جماعة الرب" إذن هو اعتراض على حالة ووضع يتطلب التغيير. فكان الحل:

"وكلم الرب موسى وهارون قائلاً افترز من بين هذه الجماعة أفنيهم في لحظة". (العدد ١٦: ٢٠)، وتم ذلك و أفنيت المجموعة على وجه السرعة، فكان رد الفعل من قبل بني إسرائيل على مقتل رؤساء القوم في صباح اليوم التالي: "فتذمر كل جماعة بني إسرائيل في الغد على موسى وهارون قائلين أنتما قتلتما شعب الرب". (العدد: ١٦ ٤١). فهو اتهام واضح على حدوث اختراق وبشكل غير مسبوق من قبل السلطة المتمثلة في موسى وهارون تجاة شعب الرب، وأمام هذا التذمر كان الحل هو هو، لم يتغير؛ التصفية للمعارضة: "فكلم الرب موسى قائلاً، اطلعا من وسط هذه الجماعة فإني أفنيهم بلحظة، فكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفاً وسبع مائة عدا الذين ماتوا بسبب قورح". (أنه شكلد: ١٦ – ٤٧). إنها صورة من صور استئصال المعارضة، إلا أن التوراة لا تتكلم عن المؤسسة الحاكمة كونها وراء الفعل بل تحمل مسؤولية هذا الفعل، الاستئصال وغيره لرب التوراة. إنه شكل من أشكال إرهاب الدولة القديم، والذي يمارس بجدارة الآن.

وهناك صفحة أخرى لا تقل خطورة عن أوجه التصفيات الأخرى، إلا وهي التصفيات الثقافية للكيانات الأخرى في المجتمع. والتعدد الثقافي والتباين والاختلاف من الظواهر الصحية في المجتمع، ولكن إرهاب الدولة لا يسمح لمثل هذه التعددية، ويخلق المعاذير والمبررات من أجل التصفية، ونسوق هنا حدثاً تاريخياً من حوادث التوراة: "فأخذ الجلعاديون مخاوض الأردن لأفرايم وكان إذ قال منفلتو أفرايم دعوني أعبر. كان رجال جلعاد يقولون له أنت أفرايمي فإن قال لا كانوا يقولون له قل شبولت فيقول سبولت ولم يتحفظ للفظ بحق. فكانوا يأخذونه ويذبحونه على مخاوض الأردن. فسقط في ذلك الوقت من أفرايم اثنان وأربعون ألفاً". (سفر القضاة: ١٢ – ٤، ٧). السعي لخلق الأسباب الواهية لتصفية الآخرين ومن أوهن الأسباب سوء اللفظ لمعرفة المخالفين والمعارضين من أبناء ملتهم، وفي هذا تعبير عن الرفض للاختلاف والتنوع الثقافي، واللغة تعبير حي عن التنوع في الثقافة، وعملية إبادة (٤٢ ألف شخص) لمجامع ثقافية مختلفة هي عملية إرهاب منظم لا يمكن أن تتم دون استعداد مسبق لمثل هذه التصفية، رغم أن النص يكشف عن حقيقة أن اللسان اليهودي لم يكن موجوداً، وأنه كان يجمع كل لغات أبناء المنطقة من كنعانيين وأدوميين وحيثيين وفرزيين

وغيرهم من أقوام سكنوا المنطقة والتي شكلت بدورها ألف باء اللغة العبرية.

وقد عبر الملك سليمان عن سطوة الدولة عند توليه الحكم، حيث ابتدأ بكلمة لا تزال يتعبد بها المؤمنون بالكتاب المقدس، قال: "أبي ثقل نيركم وأنا أزيد عليه، أبي أدبكم بالسياط وأما أنا فبالعقارب". (الأخبار الثاني: ١٠ – ١٤). يا لها من موعظة حسنة تبدأ بها المملكة الجديدة حكمها بأشد من السياط إنها تبدأ بالعقارب، كيف يكون إرهاب الدولة بعد هذه الخطبة.

إن النبي سليمان هو أول نبي قتل أخاه طمعاً في السلطة. بعد ثبوت العرش بيد سليمان لجأ أدونيا إلى يتشبع أم سليمان يستشفعها، معلناً رغبته في الزواج وعزوفه عن السلطة، وطلب الأذن لزواجه من بيشيج الشونمية. فكان عقد القران له بطعنة قاتلة أودت بحياته وأنهت زواجه وقتل النبي أخاه. "كما تكلم اليوم يقتل أدونيا. فأرسل الملك سليمان بيد ياهو ابن يهو ياداع فبطش به فمات". (الملوك أول: ٢ – ٢٥)، فإذا كانت النبوة تتحلى بمثل هذه القابلية من أجل السلطة (قتل الأخ من أجل الحكم) فماذا نتوقع أن يحدث مع بقية البشر؟ هل هناك قيمة والتزام أو احترام؟ هذا الزرع كانت نتيجته فعل أبيماليك ابن جدعون.

وحادثة أبيماليك ابن جدعون شاهد على بطش الحاكم بأهله وأبناء ملته، وجدعون فارس من فرسان بني إسرائيل أقام نصراً للرب وكان كثير الزواج فأنجب سبعين ولداً، ومن ضمن أولاده أبيماليك الذي استأثر بالحكم ومارس إرهاب الدولة مع أقرب المقربين إليه أخوته، حيث ذهب إلى شكيم فأعطوه ٧٠ شاقلاً من فضة من بيت بعل، إذ استأجر أبيماليك قوةً من الرجال البطالين حماية له لتحقيق مراده. "وأعطوه سبعين شاقلاً من فضة فاستأجره بها أبيماليك رجالاً بطالين طائشين فسعوا وراءه. ثم جاء إلى بيت أبيه في عفرة وقتل أخوته بني يربعل سبعين رجلاً على حجر واحد. فاجتمع أهل شكيم وكل سكان القلعة وذهبوا وجعلوا أبيماليك ملكاً". (سفر القضاة:٩ – ٥، ٧). إنها نتيجة طبيعية لهذا الانقلاب، فإذا كان سليمان نبياً وملكاً قد قتل أخاه فلا حرج على ملك من ملوك بني إسرائيل أن يقتل أخوته، وأن تتم له السيطرة على الحكم ما دامت أدواته من العاطلين عن العمل والطائشين، وقد تم أستئجارهم كمرتزقة للقيام بمهمة قتل سبعين أخ بضربه رجل واحد.

ومن غرائب القصص التوراتية، الصراع بين نبي الله شاؤل ونبي الله داود وما أفرزه هذا الصراع من قيم ميكيافلية تمتاز بالغدر وتحامل بعضهم ضد بعضهم الآخر ، ومن أمثلة

ذلك في السيرة التوراتية: عندما دب الخلاف بين النبيين قامت شريحة من المؤسسة الدينية بإعلان المؤازرة لداود فما كان من شاؤل إلا إصدار الأمر المتوقع "وقال الملك للسعاة الواقفين لديه دوروا واقتلوا كهنة الرب، لأن يدهم مع داود ولأنهم علموا أنه هارب ولم يخبروني... فدار دواغ الأدومي ووقع بالكهنة وقتل في ذلك اليوم خمسة وثمانين رجلاً لابسي كتان، وضرب نوب مدينة الكهنة بحد السيف". (سفر صموئيل أول: ٢٢ - ١٧، ٢١). إن عبارة شاؤل "اقتلوا كهنة الرب" عبارة لا تحتاج إلى تعليق، فهي رخصة بجواز قتل رجال الدين عند تحول موقفهم لصالح المعارضة، كما أن عملية ضرب مدينة الكهنة دلالة على استباحة كل محرم.

ومن الملامح المركزة في السيرة التوراتية عبارات تم تكرارها عشرات المرات عبر العهد القديم وأسفار بني إسرائيل، والتي لها دلالتها للتعبير عن الجو العام الذي رافق التكوين اليهودي، مثل فحمي غضب الرب، اشتد غضب الرب، فضرب الرب شعبه... فكل عبارة من هذا القبيل يتبعها حدث كبير أو تصفيات بين التكوين اليهودي، والتي هي في حقيقة الأمر تعبير عن سلطة الدولة في إلغاء الآخر.

يذكر لنا سفر العدد صفحة من هذه الصفحات، حيث اختار موسى أثني عشر شخصاً بحسب أعداد أسباط بني إسرائيل ليتجسسوا على أرض كنعان "فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل وانظروا ما هي. والشعب الساكن فيها أقوي هو أم ضعيف، قليل أم كثير، وكيف هي الأرض التي ساكن فيها جيدة أم رديئة". (سفر العدد: ١٣ - ١٧، ٢٠). ورجعت المجموعة محملة وهي تحمل ثمار المنطقة للدلالة على الاستطلاع، ولكن الخبر السيئ هو "غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جداً. وأيضاً قد رأينا بني عناق ساكن هناك. العمالقة ساكنين في أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن... غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جداً". (سفر العدد: ١٣ - ٢٧، ٣١). ونظراً لهذه المعلومات التي فيها دلالات التحضر والرقي والقدرة العسكرية، كان هناك تصويت ليعرف الذين يساندون الحرب من الذين يؤيدون السلام ، فكان عشرة من الذين ذهبوا للتجسس يفضّلون السلم، واثنان مع قرار الحرب هما كالب و يوشع، وعندما عرض الأمر على الشعب كان الجواب "فرفعت كل

الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة. وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بني إسرائيل.. فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر". (سفر العدد: ١٤ - ١، ٥)، فكان الجواب لهذه المعارضة التي نشأت، هو الرد المألوف من سياق النصوص التوراتية: "وقال الرب لموسى.. إني أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعباً أكبر وأعظم منهم... فمات الرجال الذين أشاعوا المذمة الرديئة على الأرض بالوباء أمام الرب". (سفر العدد: ١٤ - ١١، ٢٦، ٢٧)، وإذا كانت عمليات القتل والتصفية لها ما يسوغها فإن بعضاً منها كان يحدث لأتفه الأسباب، قال موسى للرب لرفع إحدى مطالب الشعب: "من أين لي لحم حتى أعطي جميع هذا الشعب، لأنهم يبكون علي قائلين اعطنا لحماً لنأكل". (سفر العدد ١١ ١٢، ١٣)، وبعد سجال ونقاش بين موسى ورب التوراة حول كيفية إطعام الستمائة ألف قال له: "فقال الرب لموسى هل تقصر يد الرب. الآن ترى أيوفيك كلامي أم لا" (سفر العدد: ١١ - ٢٢)، فكان الوفاء كل الوفاء من قبل رب التوراة لشعبه لأنه طالب بالعيش من خلال توفير الدعم الاقتصادي له، "وإذ كان اللحم بعد بين أسنانهم قبل أن ينقطع حمي غضب الرب على الشعب وضرب الرب الشعب ضربة عظيمة جداً. فدعي اسم ذلك الموضع قبروت هنأوة لأنهم هناك دفنوا القوم الذين اشتهوا". (سفر العدد: ١١ - ٢٣، ٢٤). أهكذا يتم تحقيق مطالب الشعب، بضربة قاتلة؟ إنه الأسلوب ذاته؛ تصفيات لأتفه الأسباب، وبعد كل مجزرة يتم تحميل مسؤولية الفعل على الرب كونه الفاعل والمنفذ لكل المجازر. إذا كان يتم تحميل مسؤولية مثل هذه الأفعال لرب التوراة قديماً فإن الدائرة الصهيونية في العصر الحديث تسعى إلى تحميل مسؤولية كل مجزرة للطرف الآخر والسعي للتستر وراء القرارات الدولية لإخفاء كل ممارساتها العدوانية.

ومن الأمور التي تسترعي الانتباه لعموم العهد القديم وما تحوي أسفار بني إسرائيل، أنها مذكرات حروب وقصص سجال لتصفيات بين الظاهرة اليهودية مع بعضها بعضاً، أو مع الأقوام الذين جاوروا هذا التكوين عند بداية تشكيله، ومنها على سبيل المثال لا الحصر الصراع الدموي بين النبي داود والنبي شاؤل والذي كان محصلة مقتل الملك شاؤل وأولاده السبعة، أو الصراع بين الملك سليمان ومعارضيه والتي انتهت بالموت المحقق للمعارضة، أو الإشارات الواردة في سيرة العهد القديم من رضا الرب على شاؤل وغضبه عليه، أو رضا الرب على داود أو غضبه عليه، وموت الملك داود، أو رضا الرب على الملك سليمان أو غضبه عليه، ثم رضا الرب على موسى حتى جعله إلهاً لفرعون وأصبح هارون نبياً لموسى

ثم الموت المفاجئ لهارون و موسى، ثم سلسلةً من رضا الرب على الأنبياء، ويعقب هذا الرضا قول رب التوراة: "إذا ضل نبي فإني أرسل روحاً من عندي شريرة تدخل في النبي لتضله"، ملوك يظهرون في الساحة، ثم يعقب هذا الظهور غضب مفاجئ، والأصح والأدق أن يتم تغيير التعبير التوراتي من رضا الرب و غضب الرب، إلى رضا رجال الكهنوت والسلطة أو غضب رجال الكهنوت والسلطة.. قوى تتصارع وتصفيات تتم، هي أمور لو خضعت للتمحيص والفحص لتبين لنا عمق الصراع في المؤسسة الموهومة للدولة المؤقتة، أو الحروب بين دولة الشمال ودولة الجنوب في التاريخ اليهودي المحدود، وهي كلها ممارسات دالة على طبيعة سلوك السلطة رغم بدايات العمل السلطوي (ناهيك عن الصراعات الدموية بين الكيان اليهودي والأقوام التي كانت تسكن فلسطين أو دول الجوار و القبائل، وليس هذا هو هدف بحثنا).

وأمام هذا التراكم الكمي في عمليات القتل، والتفنن في إيجاد المسوغات الدينية أمام كل مجزرة للرأي المعارض، يقف الإسلام شامخاً في حل هذه الإشكالية مع قوى المعارضة ومع المخالفين له في العقيدة والموقف ليطرح البديل الصالح ، كما في قولة تعالى: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم" (سورة البقرة، آية ٢٥٦).

إلا أن من المخاطر التي تجعل المتدين في حيرة من أمره ما يذكر في سفر الجامعة حول موقف العقلية اليهودية تجاه الحياة و المجتمع والذي فيه إطلاق لمؤسسة الدولة ويغلب عليه صفة العبث.

"فقلت في قلبي الله يدين الصديق والشرير، لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك، ونسمة واحدة للكل، فليس للإنسان مزية على البهيمة، لأن كليهما باطل. يذهب كلاهما إلى مكان واحد. كان كلاهما من تراب وإلى التراب يعود كلاهما. من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق وروح البهيمة هل تنزل إلى أسفل إلى الأرض، فرأيت أنه لا شيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه. لأنه من يأتي به ليرى ما سيكون بعده". (سفر الجامعة: ٣ - ١٦، ٢٣). في النص دعوة عبثية و إقرار على حيوانية الإنسان وإغراء الإنسان على ممارسة الإباحية، وإغراء الإنسان على التجاوز لحقوق الآخرين، إلا أن أهم جانب يسترعي الانتباه في هذه العبثية هو إلغاء

الثوابت والقيم عند الإنسان، فلا تباين بين الإنسان والحيوان، ولا فرق بين الحق والباطل، وعندما يصل الإنسان في تفكيره وقناعته إلى مثل هذه الحدود فإنه سيكون وحشاً كاسراً لأنه يعلم بيقين ديني عدم جدوى القيم لانتفاء الحساب والثواب والعقاب، وهذه أصول دينية إذا تجاوزها الإنسان المتدين فسيكون الرباط بينه وبين الدين هو الرباط العنصري و العصبية وليس رباط القيم كالخير والشر وما ينتج عنهما من ثواب وعقاب، وأمام هذه الصور الضبابية يخرج الوحش الكاسر القيم الأمنية التي تنفي كل رباط مقدس. إن انتفاء التباين والتمايز بين مفردات الكون هو خلط للأوراق، مقصود منه تخبط الإنسانية وتيهها ، وهذا الخلط في الأوراق تمارسه الدولة العلمانية الحديثة عامة ، وتمارسه المؤسسة الصهيونية خاصةً في أرضنا المحتلة.

الملفت للنظر في سيرة العهد القديم أن ما يحويه من عقوبات هي عقوبات جسدية ومادية بحتة ليس فيها عقوبة روحية واحدة، الأمر الذي يتناقض مع مفاهيم الإسلام في الردع والزجر أو الثواب والعقاب، إنه البون الشاسع على الدوام بين رواية تاريخية تحولت مع الأيام إلى قداسة، وبين قيم الكتاب المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه وهو القرآن العظيم.

الفوضى الجنسية
والإفراط التوراتي في الألفاظ

إن مرد الفوضى ينبع من حالة استهانة واستخفاف مسبق بالآخر، سواء أكان إنساناً أم قانوناً أم ظاهرة اجتماعية أم أخلاقية أم مجموعة قيم.

ويتم التعبير عن حالة الاستخفاف بسلوك فوضوي إما لفظاً أو ممارسةً، ويعتبر العهد القديم بما حوى من أسفار التوراة وأسفار بني إسرائيل مرجعاً خصباً للألفاظ الجنسية للتعبير عن الحالة المراد إيصالها إلى عموم الناس، وكأن اللغة والتعبير وأدوات إيصال المعرفة، تمتلك من التصور ما لا يتم تحقيقه إلا بلفظ جنسي أو صور جنسية أو فعل جنسي حتى بدت أسفار بني إسرائيل والتوراة صورة من صور الفوضى الجنسية يستمد منها كل فعل جنسي غير محمود، من شرعية الاغتصاب إلى زواج المحارم إلى رخصة الفعل الجنسي غير المشروع، وينتهي بألفاظ جنسية سوقية تخرج العهد القديم من دائرة القداسة ومجمع القيم.

١ - تبدأ ظاهرة المفاهيم اليهودية بالوضوح أكثر فأكثر من سفر الخروج، حيث يفسر كاتب التوراة ظاهرة عدم الطاعة بالزنا، والفرق واضح بين الإلحاد والزنا، والبون شاسع بين الإشراك والزنا، إلا أن التعابير الدينية لا تأخذ مأخذ المفاهيم الروحية بتوضيح صورة الشرك والإلحاد، بقدر ما تعطي لهذه المفاهيم مفاهيم جنسية، ففي نص واحد لا يتجاوز سطرين يقول سفر الخروج: "احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض، فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم، وتأخذ من بناتهم لبنيك فتزني بناتهم وراء آلهتهم ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن". (سفر الخروج ٣٤: ١٦، ١٥).

٢ - من مهام المصلح الاجتماعي لظاهرة الفساد الفردي والاجتماعي عدم التقريع والأخذ بأرق العبارات من أجل رفع القيم والمثل الأخلاقية من أجل تحقيق الأحسن والأمثل، بينما نرى أن مثل هذا المنهج غير متوفر، من الصعب العثور عليه في ثنايا العهد القديم.

ومنها: "أما أنتم فتقدموا إلى هنا يا بني الساحرة نسل الفاسق والزانية... أما أنتم أولاد المعصية نسل الكذب المتوقدون إلى الأصنام". (سفر إشعيا: ٥٦ - ٤، ٣). قساوة في النص، وإصرار على إعطاء مفاهيم الضلال الديني دلالات جنسية.

٣ - ومن غرائب المنهج التربوي اليهودي ما أمر به رب التوراة نبيه هوشع، حيث يقول كاتب التوراة: "وقال الرب لي اذهب أيضاً أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة الرب لبني إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزبيب، فاشتريتها، وقلت لها تقعدين أياماً كثيرة لا تزني لرجل وأنا كذلك لك". (سفر هوشع: ٣ - ٢، ١). وهذا يعني أن هوشع كان يمارس الزنا حسب العقد الذي تم مع الزانية، إذ طلب منها الامتناع عن ممارسة فاحشة الزنا وبالمقابل سيقوم هو الآخر بالتوقف عن الزنا، فهي ليست توبة لله، بل عقد إيقاف ممارسة الزنا بين زانٍ وزانية، كما يعني النص أن مقاييس العقيدة والإيمان هي مقاييس جنسية، فانحراف البشر عن التوحيد وعن الإله الحق تعطي له التوراة صفة الزنا وتطلب من نبيها أن يقترن بامرأة زنا، وفي هذا تخبط وفوضى في المفاهيم يُحدث إرباكاً في تمييز المفاهيم، لأن العاقل يميز بشكل جدي بين الكفر والزنا و بين الانحلال الاجتماعي وبين الشرك، وهذا النهج في وضع المفاهيم بغير موقعها يحدث حالة من الاستهانة والاستخفاف بالقيم وتهوين بالأبعاد الروحية مما يسفّه الثواب والعقاب ويعطي مبرراً بشكل مقصود أو غير مقصود لمزيد من الانحراف والفوضى الجنسية بسبب الإفراط في الألفاظ الجنسية في غير مواقعها.

٤ - وفي سفر يوشع الإصحاح الثاني، حيث يعلن الرب غضبه على إسرائيل وعلى شعبه وعلى أورشليم وساكنيها، فلا نجد عمقاً روحياً ولا بعداً تربوياً ولا إصلاحاً عائلياً ولا بناء اجتماعياً، بل كل الإصحاح عبارة عن غزل جنسي وعتاب يحيطه كل معالم الإثارة الجنسية لوصف الحالة (حالة الإشراك أو الانحراف الديني).

"حاكموا أمكم حاكموا لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها، لأن أمهم قد زنت، التي حبلت بهم صنعت خزياً، لأنها قالت اذهب وراء محبي الذين يعطون خبزي ومائي وصوفي و كتاني، والآن أكشف عورتها أمام عيون محبيها ولا ينقذها أحد من يدي، لكن ها أنذا أتملق وأذهب بها وأعطيها كروماً.. ويكون في ذلك اليوم يقول الرب إنك تدعينني رجلي ولا تدعينني بعد بعلي". (سفر هوشع:٢

- ١٦، ١). وكان آخر المطاف من مختارات هذا الإصحاح هو الصلح الذي نتج عنه تحول الرب إلى زوج، وتحول الإله إلى عاشق جنسي يصارع بقية الآلهة ليكسب معشوقة.

فالتصور الجنسي هو الغالب والسائد والمهيمن على كل مفاصل العلاقة بين الرب وشعبه، فليست العلاقة بين العبد ومعبوده المنزه عن الحواس واللمس، بل علاقة جنسية بأحاسيسها ومفرداتها رغم تغليف الأمر بأن القصد من التوجه ديني.

٥ - ثم يستمر النهج كما هو لطرح العلاقة بين العبد وربه، ويتم إزاحة مفهوم التوحيد وما يمتلك من مفاهيم عالية الشفافية إلى مفهوم دنيوي متدنٍّ، حيث تصبح القيم كتلة صماء؛ الرب والشعب والطاعة والأعضاء الجنسية كتلة واحدة من الصعب فك الارتباط فيما بينها، وهذه أعلى حالات الغلو في الحلولية.

أ - "حقاً إنه كما تخون المرأة قرينها خنتموني يا بيت إسرائيل". (إرميا:٣ ٢٠).

ب - "اسمعوا هذا القول الذي أنا أنادي به سقطت عذراء إسرائيل". (عاموس: ٥-١).

ج -"وفي كل رجاستك وزناك لم تذكري أيام صباك إذ كنت عريانة وعارية وكنت مدوسة بدمك".

د- "في رأس كل طريق بنيت مرتفعك ورجست جمالك وفرجت رجليك لكل عابر وأكثرت زناك. وزنيت مع جيرانك بني مصر الغلاظ اللحم وزدت في زناك لإغاظتي.

فلذلك يا زانية اسمعي كلام الرب".

هـ- "يقول السيد الرب إن سدوم أختك لم تفعل هي ولا بناتها كما فعلت أنت وبناتك. ولم تخطئ السامرة نصف خطاياك".

و- "رذيلتك ورجاستك أنت تحبلينها يقول الرب".

ز- "فاتكلت على جمالك وزنيت على اسمك وسكبت زناك على كل عابر فكان له". (سفر حزقيال: ١٦ - مختارات منه). "أمثلة تعرض ومقاييس تبين، الفوارق بين معصية سدوم واليهود وبين السامرة وإسرائيل، ولكن كانت كل المقاييس والصور المقدمة صوراً جنسية وحسية، ولم تتحفنا التوراة وأسفار بني إسرائيل بأي قيم روحية.

كما أن سرد الأحداث الذي يوضح معالم التعاليم الدينية، يوحي وبشكل خطر إلى شرعية الانحراف، حتى بدا الفعل الجنسي الفاحش يمتلك غطاء بشرعيته. وعلى الرغم من عدم وجود نص بشرعية الفوضى الجنسية، إلا أن السياق يحكم بمثل هذه النتيجة المفزعة لعلماء الاجتماع ودعاة الإصلاح الاجتماعي. وما حدث لعائلة النبي داود يوحي بمثل هذه النتيجة، حيث يحدثنا كاتب سفر صموئيل الثاني عن تعلق أمنون بأخته ثامارا فيأخذ بنصيحة يونداب بأن يضاجع أخته ويتم له ذلك، وعند ممانعة ثامارا يقوم أمنون باغتصاب أخته، وكان رد فعل الأخ الشقيق لثامارا بأن ينتقم لما حل بأخته فيتقدم صديق أبشالوم وهو لآخيتوفيل بنصيحة ذهبية وهي القيام باغتصاب زوجات أبيه أمام أعين بني إسرائيل، والمهم في هذا الاختصار للقصة موقف الوحي من الحدثين وتقييمه للناصح الأول والناصح الثاني.

"وكان لأمنون صاحب اسمه يونداب بن شمعي، وكان يونداب رجلاً حكيماً جداً". (سفر صموئيل ٢: ١٣ ٤-). وعندما غضب أبشالوم وأعد للثأر لأخته وقام بقتل أمنون كان جواب النبي داود: "ولما فرغ من الكلام إذا ببني الملك قد جاءوا ورفعوا أصواتهم وبكوا وكذلك بكى الملك وعبيده بكاءً عظيماً جداً". (صموئيل ٢:١٣-٣٥). فهنا حالتان؛ حالة وصف الناصح اللبيب بأنه حكيم، بل المبالغة في وصفه، فيوصف كونه كان رجلاً حكيماً جداً. وحالة الحزن العامة للعائلة على الزاني الذي تم فعله بحالة اغتصاب قسرية. فلم تسعفنا التوراة بحد من الحدود لإعادة الاعتبار للمرأة، ولم يسعفنا صموئيل بقرار ديني يحفظ للتكوين العائلي مهابته وتماسكه، بل حزن على الزاني ومدح للناصح الذي أشار إليه بفعلة الزنا.

ويتحفنا صموئيل بوصف يتجاوز به المتوقع، فيصف أختيوفل الذي أشارة لأبشالوم باغتصاب سراري أبيه: "وكانت مشورة أختيوفيل التي يشير بها في تلك الأيام كمن يسأل بكلام الله". (سفر صموئيل ٢: ١٦ - ٢٣). نصيحة راح ضحيتها زوجات أبية أمام أعين بني إسرائيل، ومنحت من القداسة مما يوحي بشرعية العمل، إذ عقّب النص المقدس على نصيحة أختيوفيل بمن يسأل بكلام الله، وعند قيام الصراع بين العائلة المالكة للنبي داود قتل أبشالوم ووصل النبأ للملك داود: "فانزعج الملك وصعد إلى عليه الباب وكان يبكي ويقول هكذا وهو يتمشى يا ابني أبشالوم يا ابني أبشلوم يا ليتني عوضاً عنك يا أبشلوم ابني ابني". (سفر صموئيل ٢: ١٨ - ٢٣، ٢٢). ولم يكن الحزن من داود فقط، بل شمل الحزن الإمارة اليهودية، وجميع الشعب، حيث يصف لنا صموئيل حالة الناس: "وتسلل الشعب في ذلك

اليوم للدخول إلى المدينة كما يتسلل القوم الخجلون عندما يهربون في القتال، وستر الملك وجهه وصرخ الملك بصوت عظيم يا ابني أبشالوم، يا أبشلوم ابني ابني". (سفر صموئيل ٢: ١٩-٥، ٣). إنها المكافأة نفسها منحت لأختيوفيل الناصح كما منحت ليونداب الناصح، وهو الحزن نفسه الذي برر الجريمة الجنسية للأخوين في عائلة النبوة، بل ومن شدة فرط الحزن تمت التعمية والتغطية على الجريمة الجنسية، وهذا ما تم لأبشالوم مثلما تم لأمنون. وليست هذه الحوادث هي الفريدة في سيرة العهد القديم، بل ما تم وحدث لا يختلف كثيراً عما ذكر، ومنها:

يذكر لنا سفر التكوين قصة يهوذا في (الإصحاح ٣٨) مع زوجة ابنه، وكيف يختم السفر هذه القصة بزنا العم والد الابن مع زوجة ابنه، وعند اكتشاف فعل الزنا بظهور الحمل لدى ثمارة زوجة الابن قال العم يهوذا احرقوا ثمارة لأنها زنت، وعندما تحقق أن الفاعل هو، قال هي أبر مني، فلم يُقَمّ حد ولم يُدَنّ الفاعل (سفر التكوين: ٣٨ ٩-٢٧).

"وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً في تلك الأرض أن رأوبين ذهب واضطجع مع بلها سرية أبيه وسمع إسرائيل" أي سمع يعقوب (سفر التكوين:٣٥ - ٣١). ورغم هذا مرت الحادثة بسلام ودون حد أو عقاب.

ومن غرائب السقطات التشريعية زواج الرجل بعمته، وزواج الفتاة من عمها، حيث تتحفنا التوراة بالحدثين.

"وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له، فولدت له هارون وموسى". (سفر التكوين: ٦ - ٢٠)، وفي زواج البنت من عمها تذكر لنا التوراة:

"فقال كالب، الذي يضرب قرية سفر ويأخذها أعطيه عكسة ابنتي امرأة، فأخذها عنثيئيل بن قناز أخو كالب الأصغر، فأعطاه عكسة ابنته امرأة، وكان عند دخولها أنها غرته بطلب حقل من أبيها". (سفر القضاة: ١ - ١٣).

وإن الاستمرار في هذا السرد ليس غايتنا، بقدر ما هو سعي لتبيان أثر اللفظ في تمييع المفاهيم وكيف أن الإفراط في اللفظ الجنسي لسبب ومن دون سبب يغير المفاهيم والمصطلحات الدينية، وإن كان الأمر يتداخل بين الفعل الجنسي والتستر عليه وبين اللفظ المفرط في الدلالات الجنسية.

ويعتبر نشيد الإنشاد من أقوى الأسفار في العهد القديم الذي يصور به رب التوراة علاقته بشعبه على أنها علاقة جنسية بحتة، فكل مفاصل الإصحاح تمتاز بالغزل المكشوف، وليس من المعقول كتابة كل السفر، وهذه بعض الشواهد.

أ - ليقبلني بقبلات فمه لأن حبك أطيب من الخمر.

أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم.

ب- صوت حبيبي هوذا آت ظافراً على الجبال قافزاً على التلال.

حبيبي لي وأنا له الراعي بين السوسن إلى أن يفيح النهار.

ج - في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي طلبته فما وجدته.

فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته ولم أرخه حتى أدخلته بيت أمي وحجرة من حبلت بي.

أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبالأيائل إلا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء.

د- ما أجمل رجليك بالنعلين يا بنت الكريم.

دوائر فخذيك مثل الحلي صنعته يداً صناع.

سرتك كأس مدورة لا يعوزها شراب ممزوج.

بطنك صبرة حنطة مسجية بالسوسن.

ثدياك كحشفتي توأمي ظبية، عنقك كبرج من عاج.

وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات، وتكون ثدياك كعناقيد الكرم

(مختارات من سفر نشيد الإنشاد).

وأمام التهوين في العلاقة بين المفاصل الشرعية وعملية تضييع الحدود الفاصلة بين العابد والمعبود بمجموعة مفردات يغلب عليها الطابع الجنسي، يكمن منحى لا يقل خطورة عما سبق، هو منحى تسفيه النبوة بمجموع تعاليم ومفاهيم فيها من الغرائب ما يعطي قيماً مختلفة ويفرض قيماً ليست هي من بديهيات التدين، مما يغلف القيمة الدينية بمنظومة قيم تشكل إحدى إشكاليات علماء الاجتماع لتبيان قوة الأثر التربوي للنص المقدس في عملية وصياغة القيم الاجتماعية.

١ - في نبوة شاؤل يصف لنا كاتب سفر صموئيل هذه النبوة:

"وقال (أي شاؤل) أين صموئيل وداود فقيل ها هما في نا يوت في الرامة، فذهب إلى هناك إلى نا يوت الرامة فكان عليه أيضاً روح الله، فكان يذهب ويتنبأ إلى نا يوت الرامة فخلع هو أيضاً ثيابه هو أيضاً أمام صموئيل وتنبأ هو أيضاً أمام صموئيل وانطرح عريان ذلك النهار كله وكل الليل، لذلك يقولون أشاؤل أيضاً بين الأنبياء". (سفر صموئيل ١٩:١ - ٢٤، ٢٣). لا يوجد اعتراض على الكيف بحدوث الوحي والتنبؤ، إلا أن ظاهره التعري عند حدوث الوحي هي همس جنسي، وإشارة إلى إمكانية القيام بصلوات روحية من خلال التعري، وهو إقرار لضرب من ضروب الخلاعة و الفعل الماجن، فإذا كان مهبط الوحي وعند حلول روح الله على النبي، تكون نتيجة الوحي التعري، ولا يفوتنا أن العملية تمت أمام صموئيل وداود اللذين كانا يتنبآن أيضاً بنفس الطريقة وفي نفس المكان، هي طقوس جنسية ذات مسحة دينية.

كيف يكون التيه، وكيف يخرج المتدين بدين العهد القديم بمظاهر من السلوكيات؟

٢ - "وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها". (صموئيل ٢: ١١ - ٤، ٣). ومن المؤكد أنه لا يحدث استحمام والجسم مغطى أو مستور، فالإشارة إلى الاستحمام هي إشارة إلى التعري، والذي يؤكد ذلك وصف النص للمرأة على أنها جميلة وجميلة جداً، وأنها كانت مطهرة من طمثها.. كلها أوصاف لبنت مكشوفة ومتعرية، ومفاتنها قد ظهرت مما يسهل وصفها، و فيه تأكيد على شرعية النظر للمتعرية كون النبي داود فعلها، فهي سلوكية نبوية عند اليهود بجواز استراق النظر على الآخرين من خلال فعل داود، وإذا أفرطنا في القداسة للكتاب وللحدث، فإن النص يشير إلى أن هناك حالة من حالات الجواز إلى حد التهوين، وإن لم يكن كذلك فهي حالة من حالات الفوضى الجنسية.

٣ - "تكلم الرب عن يد إشعيا بن آموص قائلاً: اذهب وحل المسح عن حقوقيك واخلع حذاءك عن رجليك، ففعل هكذا ومشى معرى وحافياً". (سفر إشعيا:٢٠ - ٣).

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح: لماذا التعري عند كل حدث وأمر؟ ولماذا لا تتم الحكمة من قبل رب التوراة إلا من خلال التعري، أم هي سياسة الاستدراج لتبرير الفوضى الجنسية،

أم لإيهام المؤمنين بالعهد القديم وقدسيته على جواز التجاوزات الجنسية، لذلك من باب المثال وليس التعميم حول أثر النص في خلق ظاهرة هي ليست جزءاً من التدين، بل هي نتاج المزاج العام للعهد القديم الذي يغلب عليه الأثر الجنسي (حيث لا تزال عملية التهود ليست هينة، إذ يصر الحاخام على التقيد بالشعائر التلمودة، ومن بينها الحمام الطقوسي الذي يجب أن تخضع له الأنثى التي تريد التهود، فتدخل الحمام عارية تماماً بحضور ثلاثة من الحاخامات وتحت أنظارهم).

٤ - وفي داخل الكيان الصهيوني، وفي أحد الشوارع الرئيسية في تل أبيب، وهو شارع (دزنجوف) الذي تعرض فيه الأفلام الإباحية، وتروج المخدرات، تم مؤخراً عرض مسرحية تمثل الملك داود وصديقه يونثان على أنهما على علاقة جنسية شاذة، بل والأكثر من هذا، صرحت يائيل ديان ابنة موشي ديان أن العلاقة بين داود الملك ويونثان هي علاقة شاذة جنسياً. وأمام هذه المعلومة قد يعتقد القارئ أن هناك شططاً من قبل اليهود الجدد تجاه تاريخهم أو كتبهم المقدسة، إلا أننا نقول له هذا وغيره له جذره في الأصولية اليهودية، حيث ذكر العهد القديم ذلك في سفر صموئيل الثاني على لسان داود لتوضيح علاقته ومحبته ليونثان إذ قال: "قد تضايقت عليك يا أخي يونثان، كنت حلواً لي جداً، محبتك لي أعجب من محبة النساء". (سفر صموئيل ثانٍ: ١ - ٢٧، ٢٦)، والذي نرمي له من خلال ربط النص بالحدث المسرحي والتصريح المذكور، أن الأصولية الدينية لكل دين تشكل النسق الأخلاقي والمعرفي لتلك المجموعة.

نعم، إسرائيل مشروع استعماري، والإمبريالية العالمية قد تبنت هذا الكيان، إلا أن ذلك لا يلغي خصوصية هذا الكيان وطبيعته الدينية. ومجمل القوانين المعمول بها داخل الكيان هي من إفرازات الأصولية اليهودية، و في إثارتنا لهذا الموضوع لا نعني عصمة الظواهر غير اليهودية (كالمسيحية والإسلام). فمسيحية الفرد أو إسلامه لا يمنحه العصمة، بل نحن نرمي إلى سعي النص لخلق ظاهرة العصمة والتحفيز عليها والتشجيع لها، من خلال الثواب والعقاب والقاسم المشترك بين الرجاء والخوف هو التقوى، هو الفاعل الحيوي لتحقيق أكبر قدر ممكن من العصمة، وهذه الفاعليه والتداخل في الظاهرة الدينية مرجعيتها النص المقدس لكل منهما.

وفي الطرف الآخر تفعل المرجعية الدينية فعلها بالمؤمنين بها، لذلك نرى أن أعلى نسبة من الإباحية الجنسية والاغتصاب واستغلال المرأة هي في الكيان الصهيوني (اليهودي التكوين)، ولهذه الظاهرة أسبابها الدينية رغم ما يشاع ويقال عن علمانية الكيان الصهيوني.

السرقة من لوازم المنهج التربوي للتوراة

مع بداية تشكيل الظواهر، أياً كانت تلك الظواهر الاجتماعية، أكانت تشكيلاً ذا بعد ديني أم دنيوي، يبقى العامل الأخلاقي سلباً أو إيجاباً من لوازم الظواهر ذات البعد الاجتماعي.

ومع بداية التشكيل للعائلة العبرانية كان من مظاهرها وصفاتها المرافقة لها السرقة، إلى حد أن هذه الصفة كانت من لوازم الظاهرة اليهودية وجزءاً من تكوينها النفسي والأخلاقي، وهذا الانطباع سببه جهد النص المقدس في ترسيخ شرعية السرقة، وبما أن مقالتنا منصبة حول أثر النص المقدس في تشكيل منظومة القيم فكان لزاماً علينا الولوج في هذا الجانب الأخلاقي ومدى تأثير النص المقدس في جواز السرقة لهدم مجموع منظومة القيم.

في سيرة الآباء الأوائل عند يعقوب (إسرائيل) تحديداً، يعلن الرب ليعقوب أولى البشائر. تقول السيرة التوراتية:

١ - "فأرسل يعقوب ودعا راحيل ولية، إلى الحقل إلى غنمه، وقال لهما أنا أرى وجه أبيكما إنه ليس نحوي كأمس وأول أمس، ولكن إله أبي كان معي.... فقد سلب الله مواشي أبيكما وأعطاني". (سفر التكوين: ٣١ ٨، ٩). وبعد هذا الإقرار الخطير بتحول رب العالمين إلى سارق من أجل يعقوب، يأتي التأكيد الثاني من الأختين بتحقق السرقة "فأجابت راحيل ولية وقالتا له ألنا أيضاً نصيب وميراث من بيت أبينا. ألم نحسب أجنبيتين، لأنه باعنا وقد أكل ثمننا أيضاً. إن كل الغنى الذي سلبه الله من أبينا هو لنا ولأولادنا". (سفر التكوين: ٣١ ١٤، ١٥). وعبارة الأختين زوجتي يعقوب، "أن الغنى الذي سلبه الله" تأكيد على حصول السرقة من الله، ولأجل يعقوب. إذن فأول سرقة حدثت في التاريخ اليهودي لم تكن من اليهود، بل كانت من رب اليهود، لأجل اليهود.. تخريج جميل وتبرير مشروع لشرعية أول سرقة.

٢ - وفيما كان الوالد يرعى غنمه قامت إحدى ابنتيه بسرقة أصنام والدها. "وأما لابآن فكان قد مضى ليجز غنمه. فسرقت راحيل أصنام أبيها". (التكوين:٣١ - ١٩).

وحادث سرقة معبود الآراميين لم ينتج عنه توبيخ من قبل يعقوب لسوء الفعل، أو أمر رباني بعدم جواز مثل هذه الأفعال، بل على العكس من ذلك، كان هناك إقرار خفي بجواز مثل تلك الأمور، إذ في الوقت الذي هم لآبان لعمل شيء يقول كاتب السيرة: "وأتى الله إلى لآبان الآرامي في حلم الليل. وقال له احترز من أن تكلم يعقوباً بخير أو شر". (التكوين: ٣١ - ٢٤)، وعوضاً من قيام الوحي بتصويب الخطأ، فإنه جاء ليلاً إلى المسروق وحذره من أن يفعل شيئاً ضد الذي قام بسرقته.

ثم يكون هناك سكون مطبق، حيث تمضي سنوات تتجاوز المئات دون حدث يذكر، وكأن هناك قطعاً ما في سلسلة أحداث التاريخ حتى تفاجئنا التوراة بعودة الإيقاع وتسارع الأحداث باتجاه موضوعة الخروج، لا لأن الخروج من مصر قد تم، بل لأن الظاهرة اليهودية فعلاً قد خرجت إلى الحياة بسفر الخروج.

وعند لحظة الخروج يأتي الأمر الرباني ليوصي عباده، فماذا كانت أولى الوصايا ٣ - "وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين، فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم. فتسلبون المصريين". (سفر الخروج:٣ - ١٢، ٢٣). ولم يكتف الأمر التوراتي بالسرقة، بل أوضح كيفية حمل المسروقات بوضعها مع الأطفال حتى يكون هناك تمويه جيد لتمرير ما تمت سرقته، ثم يتكرر الأمر بالسرقة. يقول الرب لموسى مؤكداً: "تكلم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب". (سفر الخروج:١١-٣)، حيث يذهب النص باستغلال الصداقة وخداع كل رجل صاحبه وكل امرأة صاحبتها من أجل مزيد من السلب والسرقة.

ومبرر الخروج هو الظلم والحرمان الذي لاقاه اليهود على يد المصريين، فكان هناك في الحقيقة أمران، أولهما الخروج والثاني سرقة ما أمكن سرقته، والذي يتابع وصف الخروج الجماعي من مصر حسب الرواية التوراتية يصاب بالدهشة والحيرة، فمن وصف للحرمان والكفاف الذي يعيشه اليهود في مصر إلى وصف يدل على القدرة الاقتصادية في مصر أيضاً، تقول التوراة: "فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد، وصعد معهم لفيف كثير أيضاً مع غنم وبقر ومواشٍ وافرة جداً. وخبزوا العجين الذي أخرجوه من مصر"، (سفر الخروج:١٢ - ٢٧، ٢٩)، فإما أن يكون

هذا نص كاذب حيث لا ظلم ولا حرمان، وأما رخصة جماعية لما أمر به رب التوراة بسرقة ما عند المصريين والخروج بأكبر قدر من الغنائم المسروقة من شعب مصر. فالنص واضح الدلالة، فهو يثبت بوجود ست مئة ألف نازح من غير الأطفال، ثم يؤكد على وجود لفيف من الناس وصفهم بالكثرة، وبعد ذلك يؤكد على المواد المعيشية المرافقة لهم، فهي غنم وبقر ومواشٍ وافرة جداً، من أين جاءت هذه الوفرة؟ إنها السرقة.

وعبر الأجيال يتغنى اليهودي بما عنده من ذكريات الخروج، ففيها أعياد للرب تقام في كل سنة، وفي كل مناسبة تُقرأ قصة الخروج ليتذكر اليهودي كيف خرج من مصر حاملاً معه أموال مصر، من جيل إلى جيل تتحول القصة إلى رمز وبطولة، ثم يصبح هذا الرمز وتلك البطولة عقيدة راسخة في الأذهان يتشربها المؤمنون بها، فتكون سلوكاً عاماً للشخص، ولم يترك كاتب التوراة الأمر للعاطفة والتذكر، بل كان أمراً دهرياً؛ على كل يهودي أن يقرأ هذه الحادثة ويعمل بها: "ويكون لكم هذا اليوم تذكاراً فتعيدونه عيداً للرب، في أجيالكم تعيدونه فريضة أبدية". (سفر الخروج: ١٣ - ١٤). نعم هناك طقوس تقام وبخور يوقد، وذبائح تنحر ليرش دمها على الجداران حسب الطقوس اليهودية، وهناك خبز الفطير الذي يعمل، وهناك أيضاً استلهام سلوك الأجداد وما تم خلال رحلة الخروج حيث بدأت بالسرقة وممّن، من رب التوراة، إلى شعب التوراة بواسطة أنبياء التوراة. إلا يترك كل ذلك أثراً على الأصولية الصهيونية بأن تستلهم العبر من تاريخها وكتابها لتكون ظاهرةُ سرقة الشعوب من مظاهر الفعل الصهيوني؟

وعلى الدوام نلاحظ أن الأوامر التوراتية تبيح أموال الآخرين، في حال الحرب أو حال السلم، وأن مفرداتها مفردات سرقة، أو هي أقرب إلى ذلك، مما يلغي الجانب التربوي الذي يقتضي الحفاظ على أموال الغير. تقول التوراة:

٤ - "وكلم الرب موسى قائلاً، احْصِ النهب المسبي من الناس والبهائم، أنت وألعازر الكاهن ورؤوس الجماعة، ونصف النهب بين الذين باشروا القتال". (سفر العدد:٣١ - ٢٥، ٢٧).
في نص قصير استعملت مفردة "نهب" لمرتين، ومفردة نهب كثيرة الاستعمال في أسفار التوراة وأسفار بني إسرائيل، وهي من المفردات القريبة من مفردة السرقة، مما يوحي بأن نشاط الجماعة اليهودية لم يكن دينياً تبشيرياً، بقدر ما هو ممارسات قبلية كانت تتم في تلك العصور، عاكفةً أو زاهدة في الجوانب الأخلاقية والتربوية في حال الحرب أو السلم.

هذه السمة هي المهيمنة على سقف المفردات الفكرية والعقائدية للعهد القديم، فلا يوجد بناء عقائدي يؤصل المفاهيم الدينية، ونرى المفاهيم المادية البحتة هي مدار الحدث ومدار الحجة خلال مفاهيم وتعاليم العهد القديم.

٥ - "من آبائكم حدتم عن فرائضي ولم تحفظوها. ارجعوا إلي أرجع إليكم قال رب الجنود. فقلتم بما ذا نرجع. أيسلب الإنسان الله. فإنكم سلبتموني. فقلتم بم سلبناك في العشور والتقدمة. لقد لعنتم لعناً وإياي أنتم سالبون هذه الأمة كلها". (سفر ملاخي:٣-٧، ١٠). إذن لا توجد هناك مفاهيم روحية من ثواب وعقاب، أو جنة ونار، بل كل الذي نلمسه، سارق ومسروق وغالب ومغلوب. مع هذه المفاهيم يرافقنا كم هائل من سلوك عدواني وتعاليم استباحة لأموال الآخرين. وفي قصة دخول يشوع إلى مدينة أريحا وسيحون والمدن الفلسطينية تفسير للعلاقة المادية بين الرب وشعبه.

٦ - "وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة. وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف... وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة الرب". (سفر يشوع: ٧ - ٢١، ٢٧). وفي علاقة اليهود بأهل سيحون مثال آخر على ذلك: "وأخذنا كل مدنه في ذلك الوقت وحرمنا من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال، لم نبق شارداً، لكن البهائم نهبناها لأنفسنا وغنيمة المدن التي أخذناها". (سفر التثنية: ٢ - ٢٤، ٢٥). وتوفر لنا التوراة الجهد في الإحصاء، فتذكر لنا: "ستون مدينة كل كورة أجوب.. فحرمناها كما فعلنا بسيحون ملك حشبون محرمين كل مدينة الرجال والنساء والأطفال. لكن البهائم وغنيمة المدن نهبناها لأنفسنا". (سفر الخروج: ٣ - ٥، ٧). ولسنا هنا بصدد توضيح الجانب العدواني في مجازر أريحا وسيحون والمدن الستين المذكورة في النص إلا بقدر تعلق الموضوع ببحثنا، حيث كان هناك رخص شرعية بنهب أموال المدن وتأكيد مستمر عقب كل حدث على عبارة "نهبنا" مما يهّون من فعل السرقة، ويجب إلا ننسى بأن حديثنا حول قيم دينية من نص ديني، يقابله تعليمات بوجوب وضع الغنائم في خزانة الرب، واعتبار الرب أحد الأطراف المستفيدين من نتائج المعارك، لذا عند حدوث اختراق لملكية الرب من حصته في الغنائم، يبدأ حمو غضب الرب، وفي الوقت الذي حدث به سوء تصرف من عوام الناس، إذ قام شخص بسرقة بعض الغنائم، أعلن الرب غضبة وخسرت إسرائيل الحرب: "وخان بنو إسرائيل خيانة في الحرام فأخذ عخان بن زبدي

من الحرام فحمي غضب الرب على بني إسرائيل". (سفر يشوع:٧-١)، ولم يطفأ حمو غضب الرب إلا باعتراف عخان بجرمه، ومن ثم إنزال عقاب الرب عليه. تقول التوراة في هذا الموقع: "فقال يشوع كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم. فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم. فرجع الرب عن حمو غضبه". (سفر يشوع:٧-٢٥). في جمع الغنائم صور للإله المتسلط الذي لا يشبع من غنيمة، وفي فقدان شيء من هذه الغنائم صورة للقسوة التي لا تحد، البعيدة كل البعد عن أي منهج تربوي إصلاحي؛ الرجم حتى الموت، ثم الحرق للسارق وحرق مسكنه، يعقبه غلو في العقوبة، إذ يؤخذ بجريرة السارق أهله وأولاده من دون ذنب، إنها علاقة مادية بحتة بين الرب والبشر، ليس فيها إرشاد ولا تنبيه بقدر ما فيها من قتل وتنكيل.

وما ذكر من تعاليم في سفر اللاويين والتثنية بعدم السرقة ذكر باستحياء و بمحدودية تصل إلى حد التحجيم لمثل هذه القيم التربوية. يقول محرر سفر اللاويين: "لا تغصب قريبك ولا تسلب". (سفر اللاويين:١٩-١٣). إذن هو القريب المقرب. وإذا تسامحت اليهودية في تعاليمها فإن دائرة النهي هي على أبناء الطائفة وليس على العموم، يذكر في السفر نفسه: "لا تسرقوا ولا تكذبوا ولا تغدروا أحدكم بصاحبه". (سفر اللاويين:١٩-١٢). ومثل هذه الميزات والتخريجات التوراتية مألوفة في المنهج التربوي للتوراة، ومن ذلك، من باب المثل: "للأجنبي تقرض برباً، ولكن لأخيك لا تقرض". (سفر التثنية: -٢٣ ٢٠). إذن هناك ربا لعموم الناس، وهناك تحريم أخلاقي مشوش ومبتور ذُكر عنصريةً، ولم يذكر من باب التربية والأخلاق.

حتى البعد الإيماني لعلاقة العبد بربه، تتعامل أسفار بني إسرائيل معه تعاملاً مادياً صرفاً في المفردات واللغة والتعبير حتى ليوحي للمتدين بأن العلاقة هي مجرد علاقة مادية ولا تملك من السقف والبعد الروحي شيئاً، ومثالنا في ذلك كثير، ومن ذلك سفر حزقيال، وهو يعتب على عباده الذين هجروا طاعته: "وأخذت أمتعة زينتك من ذهبي ومن فضتي التي أعطيتك وصنعت لنفسك صور ذكور وزنيت بها. وأخذت ثيابك المطرزة وغطيتها بها ووضعت أمامها زيتي وبخوري، وخبزي الذي أعطيتك". (سفر حزقيال:١٦-١٧، ١٩). فهذا التعبير يحوي على مفردات جنسية ومدلول مادي وهو ذو دلالة شخصية ليس فيها سمو رباني:

"ذهبي، فضتي، زيتي، بخوري، زنيتي، صور ذكور للزنا، إلخ.."، وكأن القصة قصة مال مسروق وتم التصرف به في غير موضعه، وليست قصة نعم الله التي أفاضها المنعم فأخطأ العبد وضل وكان بعيداً عن رحمة ربه.

إن الفعل الحقيقي في الأديان هو للنص المقدس، ثم يعقب النص المشرع الذي يستلهم روح النص ليأمر أتباعه و أنصاره بالعمل بما يؤمنون به، هذا إذا أضفنا مجموعة تعاليم اليهودية في الأخلاق ليتشكل لدينا نسق الاستهانة بالغير والنظرة الدونية للآخرين وعدم احترامهم، ليتبين لنا مدى البعد النفسي والفكري والأخلاقي لليهودي باستباحة مال الآخرين من خلال السرقة، وفي حالة تعذر ذلك يكون بالاحتيال. وعند فقدان الوسيلة يكون السلب بالغدر والخديعة، كما قالت التوراة على لسان لآبان ليعقوب: "وقال لآبان ليعقوب ماذا فعلت وقد خدعت قلبي وسقت بناتي كسبايا السيف، لماذا هربت خفية وخدعتني ولم تخبرني حتى أشيعك بالفرح والأغاني بالدف والعود". (سفر التكوين: ٣١ - ٢٦، ٢٨). نص مقدس يتعبد به اليهودي يصف صاحب الدعوة اليهودية بالمخادع مرتين في نص قصير، من أجل سرقة تمت.

إن خير من وصف وحدد طبيعة الشخصية اليهودية واستهانتها بأمور الشريعة وسعيها لاستلاب مال الناس برخصة ومن دون رخصة، هو سيدنا عيسى عليه السلام، إذ قال:

"ويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء. ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم. أيها الجهال العميان أيما أعظم؛ الذهب أم الهيكل الذي يقدس الذهب. ومن حلف بالمذبح فليس بشيء، ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم. أيها الجهال والعميان أيما أعظم؛ القربان أم المذبح الذي يقدس القربان. فإن من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه. ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه". (إنجيل متى: ٢٣- ١٦، ١٨). سلام عليك يوم قلت هذا وقولك الحق، واللعنة على مبغضيك.

النار المقدسة
والتوراة

لا يوجد في العقل الإنساني السليم شيء اسمه نار عادية، ونار مقدسة، ولا تتحول الظواهر الطبيعية إلى حالة القداسة إلا نتيجة تحوّل في المفاهيم، وتحول في القيم، ودخول العقل غياهب السحر، وتحويل التكوينات المرافقة للإنسان إلى قوة خارقة تمتلك فعلاً أقوى من العقيدة السليمة البسيطة والدين المبني على الفطرة الطبيعية.

وللنار حظوة في الديانة اليهودية، تتمثل بحضورها الفعال للتعبير عن صفات الإله المعبود يهوه.

فالتوراة لها مقاصد واستعمالات للنار، فالنار عند اليهودي هي ذات الله، وهي كلمات الله وكذلك هي حضور الله، ودالة عليه، حيث يتواجد الله بينهم على شكل نار، وهذا التواجد يأخذ شكل الحماية، ففي النهار يتواجد بينهم، وفي الليل بينهم. وكل الشواهد الدالة على الله تم التعبير عنها من خلال النار، حتى بدا أمام اليهودي أن النار هي الله، وأن الله هو النار.

فالنار هي ذات الله كما جاء في سفر التثنية، الإصحاح الرابع: ١١، ١٠: "فتقدمتم ووقفتم أسفل الجبل، والجبل يضطرم بالنار إلى كبد السماء بظلام وسحاب وضباب، فكلمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام ولكن لم تروا صورة بل صوتاً".

ثم يأتي تعقيب آخر في السفر نفسه للتأكيد على ذات الله كونها ناراً (الإصحاح: ٤-٢٤): "لأن الرب إلهك هو نار آكلة إله غيور".

والنار هي كلمة الله، إذ يصرح بذلك سفر إرميا، الإصحاح -٢٣ ٢٩: "ما للتين مع الحنطة يقول الرب، أليست هكذا كلمتي كنار يقول الرب".

وهي أيضاً أداة للتعبير عن غضب الله:

مزامير الإصحاح ٧٩ - ٥: "إلى متى يارب تغضب وتتقد كالنار غيرتك".

مزامير الإصحاح: -٨٩ ٤٦: "حتى متى تختبئ كل الاختباء. حتى متى يتقد كالنار غضبك".

ولم يكتفِ كتبة التوراة بمثل هذه الصفات الإلهية للنار، بل كانت النار وسيلة من وسائل التعبير عن معية الله لبني إسرائيل، مثل ما جاء في سفر الخروج (الإصحاح ١٣ - ٢٠ ،٢٢):

"وكان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم. لكي يمشوا نهاراً وليلاً، لم يبرح عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلاً من أمام الشعب". وكذلك كان حديث الرب مع شعبه على شكل نار كما جاء في سفر الخروج، الإصحاح ١٩ - ١٦ ،١٩: "وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله. فوقفوا في أسفل الجبل، وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جداً". وخطورة هذا النص أن فيه تأكيداً على أن الله نار، فكيفية النزول حسب صريح النص هي على شكل نار، ونتيجة النار وهو الدخان المرافق للنار، كان أيضاً مرافقاً للنزول، حيث كان صعود الدخان أمراً ملازماً للعملية. ومجموع النصوص فيها تكريس لأخذ عقول اليهود ومشاعرهم، نحو مزاوجة النار وذات الله.

وبين هذا وذاك تطل علينا نصوص أكثر وضوحاً بالتصاق الصفات الإلهية بالنار، إذ يوضح لنا سفر صموئيل ثانٍ الإصحاح ٢٢، الترابط بين الله والنار، من خلال دعوة النبي داود للرب مستغيثاً طالبنا العون: "وإلى ألهي صرخت فسمع من هيكله صوتي وصراخي دخل أذنيه، فارتجت الأرض... لأنه غضب صعد دخان من أنفه ونار من فمه. أكلت جمرةً اشتعلت منه، طأطأ السماوات ونزل وضباب تحت رجليه، ركب على كروب وطار ورأى على أجنحة الريح. جعل الظلمة حوله مظلات مياهاً حاشكة وظلام الغمام من الشعاع قدامه اشتعلت جمر نار". (صموئيل ثانٍ:٢٢ - ٨، ١٤).

عموم التعبير عن الاستجابة لدعوة النبي داود هو توصيف لنار، الدخان والنار المتوقدة، زائداً قدرة النار على إشعال المواد الأخرى، حيث أشعلت نار الله التي خرجت من فمه جمراً، وبقيت الحالة في التوصيف لملازمة الدخان والنار مرافقة لهذا النص كما لغيره، حيث الدخان كان من أنفه والنار من فمه.

وفي وصف حزقيال لمشهد ينسبه لنفسه يتضمن رؤية الله من قبله، يتضح من خلال النص وصف هو أقرب للنار من أوصاف أخرى، حيث جاء في سفره، الإصحاح الأول: ١، ٢٧، ٢٨، ما يلي:

"فنظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال، سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار.... ورأيت مثل منظر النحاس اللامع كمنظر داخله من حوله من منظر حقوية إلى فوق ومن منظر حقوية إلى تحت، رأيت مثل منظر نار ولها لمعان من حولها، كمنظر القوس التي في السحاب يوم مطر هكذا منظر اللمعان من حوله، هذا منظر شبه مجد الرب، ولما رأيته خررت على وجهي. وسمعت صوت متكلم". كل هذه التوصيفات تفعل فعلها لتترك أثراً في التشريع، ولذلك حوت الشريعة على حضور فاعل للنار في عالم الدنيا.

ولذلك، ولأهمية النار بتوصيف ذات الله وكلمة الله وغضب الله كونه ناراً، جاء أمر الله في سفر اللاويين، الإصحاح ١٠ بعدم تقديم نار غريبة، وعند حدوث مثل هذا الأمر الجلل، أي وجود نيران غريبة، يحل غضب الله لإخراج مثل هذه النار لتحل محلها نار مقدسة، تختلف عن غيرها من النيران، كما جاء في سفر اللاويين، الإصحاح ١٠ – ١، ٣: "وأخذ ابنا هارون ناداب وأبيهو كل منهما مجمرته وجعلا فيهما ناراً، ووضعا عليها بخوراً وقربا أمام الرب ناراً غريبة لم يأمرهما بها، فخرجت نارٌ من عند الرب وأكلتهما فماتا أمام الرب".

أذن حلّ غضب الله بسبب وجود نار غريبة، وهذا يعني أن هناك نارين؛ نار مرضيٌّ عنها ومقبولة، ونار مغضوب عليها وغير مقبولة، أي هناك نار مقدسة، ونار ممسوخة أو كحد أدنى نار مقدسة ونار عادية.. وقد تم التعبير عن الغضب الإلهي بخروج نار لتأكل النار الممسوخة ولتقتل من قام بمثل هذا الخطأ، فمدار الحدث نار، والرفض كان لنار، والسبب هو إهمال نار مقدسة كان من المفروض تقديمها، وعند عدم القيام بذلك خرجت من لدن الله نار لتعيد الأمور إلى نصابها.

ومن العقوبات التي يتم توصيفها كظاهرة من ظواهر الغلو في الأحكام، إلا أنها أيضاً لا تخرج عن مدار بحثنا، هي عقوبة الزنا التي تكون بالحرق بالنار، وما العقوبة إلا وجه من أوجه الهلوسة من هلوسات العبادة. ويوضح سفر إرميا الأثر الخارجي لقدسية النار لدى اليهود، إذ يذكر لنا هذا السفر في الإصحاح السابع ٣٠، ٣١: "وضعوا مكرهاتهم في البيت الذي دعي

باسمي لينجسوه، وبنوا مرتفعات توفة التي في وادي ابن هنوم ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار الذي لم آمر به ولا صعد على قلبي". ورغم أن نص إرميا سعى إلى تبرئة الديانة اليهودية من قدسية النار، واعتبر ما حصل أمراً لم تقره ديانتهم، إلا أن نص الشريعة في سفر اللاويين يقر مثل هذه العقوبة بسياق آخر، إذ يذكر السفر ذلك في الإصحاح: ٢٠ - ١٤: "وإذا اتخذ رجل امرأة وأمها فذلك رذيلة بالنار يحرقونه وإياهما لكي لا تكون رذيلة بينكم".

ثم تسترسل التوراة لتبيان أهمية النار، في السفر نفسه، الإصحاح:٢١ - ٩: "أنا الرب مقدسكم، وإذا تدنست ابنة كاهن بالزنا فقد دنست أباها. بالنار تحرق". وليس مقصدنا في الاسترسال مناقشة طبيعة العقوبة، بقدر توضيح أثر النار ودورها وحضورها في الفكر الديني اليهودي.

ومن فعل أعلى يتمثل بالحرق بالنار إلى فعل أدنى يتمثل بحضور النار في جزئية أخرى تتمثل بالوفاء بالنذور، إذ يذكر في هذا السياق سفر العدد الإصحاح: ٦ - ١٨ ما يلي: "ويحلق النذير لدى باب خيمة الاجتماع رأس أنتذارة ويأخذ شعر رأس أنتذارة ويجعله على النار التي تحت ذبيحة السلامة" بل وللنار حضور في قدسية يوم السبت لدى اليهود. في سفر الخروج، الإصحاح - ٣٥ "لا تشعلوا ناراً في جميع مساكنكم يوم السبت".

إنه لمن الخطأ اعتبار ذكر النار دلالة على النور الإلهي، فقد ذكرت صفة الله كونه نوراً من خلال المزمور الرابع: الآية- ٦: "ارفع علينا نور وجهك يا ربّ".

أما المزمور التاسع، فقد ذكر النور للدلالة على الإنارة في الآية- ٢: "الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً"، على الرغم من كون الآية عائمة، ولم تحدد الوصف على ذات الله أو صفته بدليل رديفتها الآية ٢٣ من سفر الخروج، الإصحاح العاشر، حيث جاء التوصيف أوضح لشرح الحالة: "فكان ظلام دامس في كل أرض مصر ثلاثة أيام، لم يبصر أحد أخاه، ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام، ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم".

وفي المزمور السابع والعشرون، ذكر النور للتعبير عن القوة في الآية ١: "الرب نوري وخلاصي". وقد جاءت صفة النور في العهد القديم للدلالة على المحبة في المزمور ٩٧، الآية ١٠: "نور قد زرع لصديق وفرح للمستقيمي القلب".

محصلة الاستدلال أن الله قد عُرف ووُصف بأنه نور.

وبالمقابل لم يتم التركيز على هذه الصفة الجليلة؛ أن ذات الله نور أو كلامه نور. ولكن بالمقابل كانت كل صفات الله من حظوة النار. فإن توصيف الله بآية واحدة كونه نوراً مع الكم الكبير من آيات العهد القديم للتعبير عن ذات الله وكلام الله وغضب الله ورضا الله على نار مقدسة وغضبه على أخرى.. فيه تأكيد على القداسة للنار وفيه أثر شرقي واضح المعالم، على الديانة اليهودية، التي فقدت أصالتها، إذ من المعلوم تاريخياً اتساع الإمبراطورية الفارسية ، وأثرها الديني على دول الجوار، وبالأخص العراق، حيث تم إسكان اليهود المسببين. وإن عودة اليهود كانت على يد المسيح قورش الفارسي ، ورعاية الإمبراطورية الفارسية لإعادة بناء المعبد ، كلها دلالات مع وضوح النص بقدسية النار، على أن الديانة الزرادشتية كان لها الأثر والبصمة لتشكيل نمط من أنماط القداسة داخل الكهنوت اليهودي.

فقدان المنهج التربوي للطفولة
وأثره في تكوين الشخصية

لعبت عملية تمييز العرق المختار مراحل عدة كانت بداياتها الطفولة، فلم يكترث محرر التوراة للأثر التربوي والنفسي للطفل في عملية التمييز القسرية والمتعمدة، ولم يتنبه علماء الاجتماع لما في التوراة من سلوك عدواني بين الأخوة، حيث ظواهر الخلاف والشقاق من الأمور الإنسانية التي تطفو على السطح ثم لا تلبث أن تتلاشى بحكم الرابط الأسري، إلا أن النص المقدس لم يتعامل مع الظاهرة بمثل هذه الشفافية والعفوية، بل أخذاها إلى أبعد حد من حدود الغل والتمايز والتباين، إلى حد أن أصبح من العائلة الواحدة من أب واحد مختار وأم واحدة مختارة جمع منبوذ ممسوخ، وطفل موهوب يحمل كل الشمائل والرعاية، وتحول ذلك الطفل المدلل إلى عرق مدلل. يضاف إلى ذلك فقدان المنهج التربوي والقاعدة الأساسية في منهج الأخلاق وإصلاح الفرد والمجتمع. كلها عوامل أساسية نراها في منهج العهد القديم تؤدي بشكل أو بآخر إلى خلق شخصية غير موزونة، وتؤدي إلى عقد اجتماعية تنخر الفرد والمجتمع، إنها إغفالة علمية من قبل علماء التربية وعلم النفس، كيف يدرسون ويهذبون أجيالاً من أجل وضع تربوي أصلح؟ وأمامهم جدار لا ينهدم اسمه "العهد القديم" والتوراة، وما يحملان من أثر تربوي هو أقوى مما يفعله علماء النفس والاجتماع.

في النظام الأسري، وعند الجمع بأكثر من زوجة، قد تظهر في النفس البشرية إخفاقات، ووهن يظهر هنا وهناك. عندها يضعف الإنسان أمام حق وواجب ملزم بالقيام به تجاه أولاده بسبب تأثير إحدى الزوجتين، ولكن عندما تكون هذه الممارسة سلوكاً عاماً لغطاء مبرر، عندها تكون الصورة مرسومة لهدف آخر ولغايات محددة، القصد منها الإبعاد والحيف بحق الأخوة الآخرين.

ومثل هذين النموذجين نلاحظهما في الممارسة التربوية في عموم العهد القديم، ففي حيف الأخ الأكبر وإبعاده عن الرعاية الأسرية نرى نموذجها في قصة إسماعيل ابن هاجر،

وفي النسق العام لسياسة الإبعاد نراها في عيسو الابن البكر لإسحق، تحدثنا التوراة في سفر التكوين عن هذين النموذجين في سياسة الحيف والغبن للأخوة.

١ - "ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح. فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق. فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم لا يقبح في عينك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقول سارة اسمع لقولها". (سفر التكوين:-٣١ ٩، ١٤). رغم وهن سبب الطرد المتمثل في لعب طفل يلهو، ويمزح، إلا أن البعد الحقيقي في الإبعاد يظهر برغبة سارة حرمان البكر من الإرث، ورغم الحيف غير المبرر، إلا أن هناك غطاء شرعياً سريعاً يتواجد لجعل الفعل ذا بعد تشريعي، إلا وهو تدخل الله في دعم موقف سارة وأمره لإبراهيم بأن يستمع لمصدر التشريع؛ سارة.

وعليه، فإن حرمان أحد الأخوة من أحد حقوقه له سابقة تشريعية للمتعبدين بمنهجية العهد القديم، فالحرمان من الإرث هو أعلى رتب الحرمان، حيث كان الأمر أمرين: حرمان من إرث، وطرد خارج الرعاية الأسرية. وفي سلوك سارة قسوة مبالغ فيها وحيف كبير، حيث كان له أثر ونتيجة نراها في سلوك إسحق، حيث مارس الممارسة نفسها مع أولادة، إذ تصرف مع يعقوب وعيسو بالفاعليه نفسها من الحرمان. وفي كل ذلك تعبير عن الحيف العام في السلوك التربوي للتوراة بين الأخوة.

٢ - "فلما كملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمان. فخرج الأول أحمر، كله كفروة شعر. فدعوا اسمه عيسو. وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه يعقوب. وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما". (سفر التكوين: ٢٥-٢٤، ٢٥). فهما من الأب نفسه والأم نفسها، والأكثر من ذلك هما توأمان، ورغم ما لهذه الصفة من شد عاطفي وزيادة تفاعل بين الأخوة، خصوصاً من حيث ممارستها اللعب معاً والنمو معاً، والرعاية مشتركة من قبل الأسرة عموماً... رغم هذه الوشائج إلا أن الأمر ليس كذلك. حيث المخرج التوراتي للتمييز هو دائماً من خلال الزوجة.

٣ -"وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة إني سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً: آتني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي". (سفر التكوين:٢٧ ٦، ٧). ولأجل أن يحرم البكر من البركة حسب الرواية أسرعت رفقة الأم بإقناع ابنها الصغير

المدلل بالقيام بالمهمة عوضاً عن أخيه، ولما أظهر يعقوب مخاوفه قالت له رفقة: "فقالت له أمه لعنتك علي يا بني، اسمع لقولي فقط واذهب". (سفر التكوين: ٢٧ - ١١، ١٢). فعمل يعقوب بوصية أمه وقام بخداع أبيه وقدم الطعام له وباركه إسحق وقال له في دعاء البركة: "فليعطك الله من ندى السماء، ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمرة، ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيداً لأخوتك وليسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين". (سفر التكوين: ٢٧-٢٧).. "وحدث عندما فرغ إسحاق من بركة يعقوب، أن عيسو أخاه أتى من صيده.. وقال لأبيه باركني أنا أيضاً يا أبي. فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك، ثم قال أما أبقيت لي بركة، فأجاب إسحاق وقال لعيسو قد جعلته سيداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً وعضدته بحنطة وخمر، فماذا أصنع لك يا بني"، (سفر التكوين: ٢٧ - ٢٨). رغم وضوح النص كون عملية حرمان عيسو من حقوقه كانت بسبب خديعة، وعلى الأب أن يرجع الأمور إلى نصابها لأن هناك زللاً ما وخطأ ما، إلا أن كاتب الوحي المقدس أصرّ على اعتبار أن هذه الأخطاء، أخطاء قدسية، ولا يمكن التراجع عنها، وكان الرد الوحيد هو "قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك". (سفر التكوين: ٢٧ - ٣٥). إذن الخديعة والتحايل داخل الأسرة الواحدة جائز شرعاً، لما هنالك من مرجعية حدثت في عصر الآباء الأوائل: "فقال عيسو لأبيه ألك بركة واحدة فقط يا أبي. باركني أنا أيضاً". (سفر التكوين: ٢٧ - ٣٨). كان الجواب أكثر قسوة من ذي قبل، حيث قال: "فأجاب إسحاق أبوه له: هوذا بلا دسم الأرض مسكنك. وبلا ندى السماء من فوق. وبسيفك تعيش. ولأخيك تستعبد" (سفر التكوين: ٢٧ ٣٩). لم كل هذه القسوة؟ أكل هذه النتيجة بسبب خديعة قامت بها رفقة ونال بها يعقوب كل هذه الامتيازات؟ هل وحي السماء مع الخديعة، وهل مقام النبوة مع الخديعة؟ لما الكل ارتضوا، أهو امتياز مسبق أم هو تبرير قسري وقهري ليتقبل من يقرأ بجواز الحيف؟ وعلى الرغم من كون المدلول الحقيقي بالحرمان والإبعاد هو الجانب الروحي، أي النبوة، فالحرمان من البركة هو حرمان من التركات الروحية، وكذلك هو حرمان من التركات المالية، يضاف له دعوة بالتفوق والسيادة على باقي الأخوة بأن يكونوا عبيداً له تلبيةً لدعوة إسحق ليعقوب، وفي ذلك تلميح لبروز العرق المختار، فهو السائد الذي لا منازع له، له كل التركة الروحية والمادية، ومن ثم له السيادة على جميع أخوته، والباقون له عبيد.

ولم يقف النص عند هذا الزهو بالقهر، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث هدد وتوعد وطلب من عيسو الخنوع والقبول والرضا، وإلا عليه اللعنة إلى أبد الآبدين. تقول التوراة: "ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين". (سفر التكوين: -٢٧ ٢٩). من يقبل الهوان ويرضى بالظلم فله البركة، ومن يعترض ويحتج عليه اللعنة.

وأمام هذا القصور في الحقوق فالنتيجة المحتومة والمتوقعة الشرخ في العلاقة بين الأخوين، وتحول الرابط العائلي إلى غل وحقد ودمار. وكان جواب عيسو لهذه الأمور هو "فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة التي باركه بها أبوه، وقال عيسو في قلبه قربت أيام مناحة أبي، فاقتل يعقوب أخي". (سفر التكوين: ٢٧ - ٤١، ٤٢).

وحتى في حالة الاحتضار وعند الموت نرى آخر الكلام ما يوحي بعدم منهجية السلوك التربوي وفقدان التوجيه واعتبار كل ممارسة مغلوطة فيها إيحاء بشرعيتها، كقول يعقوب إلى أولاده عند الوصية: "ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام. رأوبين أنت بكري قوتي وأول قدرتي فضل الرفعة وفضل العز. فائر كالماء لا تتفضل. لأنك صعدت على مضجع أبيك حينئذ دنسته. على فراشي صعد. شمعون ولاوي أخوان آلات ظلم سيوفهما. في مجلسهما لا تدخل نفسي بمجمعهما لا تتحد كرامتي، لأنهما في غضبهما قتلا إنساناً وفي رضاهما عرقبا ثوراً يهوذا إياك يحمد أخوانك. يدك على قفا أعدائك. يسجد لك بنو أبيك يهوذا جرو أسد. زبلون عند ساحل البحر يسكن، يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر، دان يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل، يكون دان حية على الأرض، جاد بزحمة جيش، أشير خبزه سمين وهو يعطي لذات ملوك، نفتالي أيلة مسيبة يعطي أقوالاً حسنة، يوسف غصن شجرة مثمرة، بنامين ذئب يفترس في الصبح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهباً". (سفر التكوين: ٤٩ - ١، ٢٥). يلاحظ أن عموم الوصية ذات صبغة مادية، تعتبر القوة والسلطة مقياس الأخلاق، وتتجاوز في بعدها كل قيمة أخلاقية، فلم تترك لنا الوصية النبوية إرثاً أخلاقياً ووصايا تربوية تكون معلماً ومنهجاً للتربية أو معيناً لمنهج تربوي، حتى في تطرقها لفاحشة رأوبين ذكرت كممارسة ليست بشائنة، وهذا الاستطراد كوصية من مقام النبوة في كتاب ديني لمجموع النسل المختار في حقيقة إقرار ضمني بجماع المحارم وعدم النهي عنه، أي بمعنى أدق جواز الانفلات الجنسي دون نص بفعل ذلك.

وبعد ذلك قامت بتشبع زوجة الملك داود بما قامت به سارة وما قامت به رفقة، فالعذر هو هو لم يتغير، والمبرر هو هو لم يتبدل؛ الزوجة وأثرها على الزوج في قرار الملك والنبوة.

٤ - "وكان الملك قد شاخ جداً، وكانت أبشيج الشونمية تخدم الملك. فخرت بتشبع وسجدت للملك. فقال الملك مالك. فقالت له أنت يا سيدي حلفت بالرب إلهك لأمتك قائلاً إن سليمان ابنك يملك بعدي وهو يجلس على كرسي.... فحلف الملك وقال حي هو الرب الذي فدى نفسي من كل ضيقة، إنه كما حلفت لك بالرب إله إسرائيل قائلاً إن سليمان ابنك يملك بعدي وهو يجلس على كرسي عوضاً عني كذلك أفعل اليوم". (سفر الملوك أول:١-١٢، ٢٢). وتمت مراسيم تمليك سليمان وتمت معها مراسيم النبوة، إذ مسح سليمان بالدهن من قبل صادوق الكاهن، فأصبح نبياً وملكاً.

ونحن نقرأ النص، لا بأس أن نقف كثيراً أمام عبارة "وكان الملك قد شاخ جداً"، إذ هذا الملمح يتوفر في شيخوخة إبراهيم وكبر عمر إسحق مع شيخوخة داود، وذلك لإظهار أثر الزوجة في التشريع، واستجابة الرب لدعوة النسوة لكل حيف.

فما كان من سليمان بعد أن قامت أمه بتنفيذ نصيحة ناثان النبي إلا أن يبدأ بقتل أخيه، فسليمان هو أول نبي يقتل أخيه من أجل السلطة ويقتل شخصاً احتمى بقدس الأقداس عند خيمة الرب: "فهرب يوآب إلى خيمة الرب وتمسك بقرن المذبح". (سفر الملوك أول: ٢-٢٨). وكان الرد سريعاً وعنيفاً من الملك سليمان إلى يوآب بإنهاء حياته: "فصعد بناياهو يهوداع وبطش به وقتله فدفن في بيته في البرية". (ملوك أول: ٢-٣٤). إنه تصرف التعالي على الروابط الأسرية، بل هو الهدم للعلاقة العائلية. وهل هناك رابط أسري بعد قتل الرجل لأخيه؟ ونعيد السؤال نفسه: ما هو الأثر التربوي للمتعبد بدين العهد القديم؟ كم من الهدم سيحدث للأسرة والفرد والمجتمع؟ هل تنبه علماء الاجتماع إلى آثار الفعل التربوي للمعلومة الدينية للعهد القديم؟

وترسم لنا التوراة وأسفار بني إسرائيل صوره قاتمة عن البناء الأسري، وضربت لنا مثلاً بعائلة داود، فهو إمام، وله مقام النبوة، وهو الملك، فأول شرخ تظهره القصة العبرية في الصراع الحاد بين داود وأهل زوجته، وكيف كانت قوة الصراع بين الصهر وبيت عمه. حروب وقتال بين الأطراف المتصارعة مما يعطي الانطباع بوهن العلاقة الأسرية، وعدم أهمية العلاقة الحميمة لأول بناء اجتماعي، والذي ينتج عنه أكثر التفاعلات في تكوين الشخصية الفردية أو الاجتماعية، ففي جانب من قوى الصراع حيث عائلة الإمام والنبي والملك شاؤل،

نرى عصيان الابن يونثان على أبيه وتآمره عليه مع داود وشق عصا الطاعة، و من قيام ابنة شاؤل ميكال على أبيها وتقديم العون لداود.

لو كانت هناك مقاييس تربوية لما حدث مثل هذا الشرخ، ومن ذلك المشاحنة بين شاؤل وابنه يونثان، حيث كان جواب الأب له بما يلي: "فحمي غضب شاؤل على يونثان وقال له يا ابن المتعوجة المتمردة أما علمت أنك قد اخترت ابن يسي لخزيك وخزي عورة أمك. لأنه ما دام ابن يسي حياً على الأرض لا تثبت أنت ولا مملكتك". (صموئيل أول: ٢٠ - ٢٠، ٢١). نلاحظ فقدان الأسلوب التربوي في استعمال ألفاظ بذيئة وعنيفة، وما يترك ذلك من أثر في تشكيل شخصية الفرد، وكذلك يلاحظ فقدان جانب التوجيه والإرشاد والاعتماد على الإساءة، والاعتماد فقط على العامل المادي البحت بتخويف يونثان من فقدان الملك واعتبار السلطة مقياساً للأخلاق، حتى الوصايا الربانية لم تتحلَّ بمفهوم العدل والحق والسعي لتحقيق مفهوم العدالة وسط المجتمع، بل هي عبارات لا تغني ولا تفيد، فإذا كان الأثر التربوي في الدائرة الصغرى (العائلة) مفقوداً، فإن التوجيه على مستوى المجتمع والتربية الدينية لا بد أن يكون أيضاً، ولا يوجد كتاب ديني أفرط في وصف العلاقة بين العبد وربه بأوصاف جنسية مثل ما ذكره العهد القديم. "أما أنتم فتقدموا إلي هنا يا بني الساحرة نسل الفاسق والزانية، بمن تسخرون وعلى من تفغرون وتدلعون اللسان، أما أنتم أولاد المعصية نسل الكذب". (سفر أشعيا: ٥٧ - ٣، ٩)، وكذلك: "حقاً إنه كما تخون المرأة قرينها هكذا خنتموني يا بني إسرائيل". (سفر إرميا: ٣ - ٢٠). وقول محرر هوشع: "وقال الرب لي اذهب أيضاً أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة الرب لبني إسرائيل". (هوشع:٣-١، ٢). وهناك كم هائل من هذا التلوين للمفاهيم وفقدان الحدود، نجده في العهد القديم.

وبالمقابل نرى الشرخ أشد وأعمق في عائلة داود، حيث يأخذ أبعاد خطرة في التكوين الأسري، بسبب فقدان العلاقة الحميمة بين الأب وأولاده مع عدم وجود توجيه تربوي إصلاحي، علماً أن هذه الحوادث تقع في بيت النبوة الذي من خصائصه النماذج التربوية والمثل الأخلاقية، كونه هو المثل والنموذج للبناء الأسري والاجتماعي. ومن أخطر الخروق الخطرة في العلاقة العائلية ما حدث من اغتصاب أمنون لأخته ثامارا: "فأمسكها وقال لها تعالي اضطجعي معي يا أختي، فقالت له لا يا أخي لا تذلني لأنه لا يفعل هكذا في إسرائيل، لا تعمل هذه القباحة،، فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع

معها"، (سفر صموئيل ٢: -١٣ ١٤، ١٥). وما اغتصاب أمنون لأخته إلا تعبير عن الفوضى التربوية في أجواء الأسرة، وتمييز صارخ بين الأخوة، وكأن الأخت نكرة وليس لها أي حق من الحقوق، فلم يكن هناك حد شرعي تجاه الفاعل، ولا عقوبة أخلاقية، بل ترك الأمر لردود الأفعال، وفعلاً حدث رد فعل من قبل أبشالوم تجاه هذا الفعل وقام بقتل أمنون، ولم يكن من أمر قد تم من قبل مقام النبوة إلا البكاء والحزن على فاعل الجرم، بل صور الأمر وكأن هناك خسارة كبيرة حدثت في بني إسرائيل، فحزن الملك وحزن الشعب وكان حزناً شديداً: "وإذا ببني الملك قد جاءوا ورفعوا أصواتهم وبكوا بكاءً عظيماً جداً، وناح داود على ابنه الأيام كلها، وكان داود يتوق إلى الخروج إلى أبشالوم لأنه تعزى عن أمنون حيث أنه مات"، (صموئيل٢: -١٣ ٢٦، ٢٨)، ولم تتوقف ظاهرة الفوضى التربوية عند هذا الحد، بل تعدته عندما قام أبشالوم بسلوك مبالغ فيه يعبر عن إسقاط كل المعايير الأخلاقية التي تربط الولد بأبيه و تربط الفرد بأطراف الأسرة: "فنصبوا لأبشلوم الخيمة على السطح ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل". (صموئيل ٢: -١٦ ٢٣). وأمام هذا الفعل الفاحش المبالغ فيه في السادية والعدوانية على حرمة أبيه وسراري أبيه حدثت منازعات وقتال بين أنصار أبشلوم ومناصري الملك داود، وحسم الأمر بقتل أبشالوم، فماذا كان موقف داود المتضرر من هذا الحدث الفاحش عند سماعه مقتل ولده أبشالوم؟ "فانزعج الملك وصعد إلى عليه الباب وكان يبكي، ويقول هكذا وهو يتمشى يا ابني أبشلوم يا ابني أبشلوم عوضاً عنك يا أبشلوم ابني يا ابني.

فأخبر يوآب الملك يبكي وينوح على أبشلوم، فصارت الغلبة في ذلك اليوم مناحة عند جميع الشعب، لأن الشعب سمعوا في ذلك اليوم من يقول إن الملك تأسف على ابنه، وتسلل الشعب في ذلك اليوم للدخول إلى المدينة كما يتسلل القوم الخجولون عندما يهربون من القتال، وستر الملك وجهه وصرخ الملك بصوت عظيم يا ابني يا أبشلوم يا أبشلوم ابني يا ابني". (صموئيل ١٨، ١٩:٢٢، ٦). يا له من عرض مؤثر، وكأن أبشالوم شهيد البناء الأسري، وكأنه لم يكن مغتصباً عنوة وأمام الناس زوجات أبيه، أم أن التمايز بين الأبناء سمة توراتية؟ وتبقى ظاهرة الانفلات التربوي بين الأبناء ظاهرة تميز العهد القديم.

وبسبب غلو الملك سليمان بتصفية أخيه قتلاً، كان من تداعيات ذلك أن سلوك النبي سليمان أصبح سنة لمن جاء بعده، حيث مارس أبناؤه سلوك أشد أثراً في العدوانية بين

الأخوة، إذ بموت سليمان انقسم الولاء بين أبناء الإمارة الواحدة إلى قسمين؛ الولاء الأول لملك إسرائيل وهو يربعام ابن سليمان، والثاني لملك يهوذا وهو رحبعام ابن سليمان، ودخلت الإمارة حروباً ضروساً راح ضحيتها نصف مليون قتيل بين الطرفين. إذ تذكر التوراة ذلك: "وضربهم آبيا وقومه ضربة عظيمة فسقط قتلى من إسرائيل خمس مائة ألف رجل مختار". (أخبار أيام ثانٍ: ١٣- ١٦).

إن المتدين ليرى كيف يدفع التمييز في التربية بين الأسرة الواحدة إلى التحاسد والضغينة إلى حد الاقتتال، فيذهب دم الأخوة هدراً، ويعم الفساد الاجتماعي بسبب فقدان العلاقات الحميمة بين أبناء العائلة الواحدة، ليمتد الأثر إلى المجتمع، فينتهي الأمر إلى فوضى ينتج عنها نصف مليون قتيل. وحجة الصراع ومبرر القاتل والمقتول هي أيُّ الأخوين أحق بالإرث.

بعد ذلك تأخذ النصوص صفة القطع بالتمييز بين الأخوة إلى حد أن تصبح ظاهرة التمييز سمة دينية، حيث تختم التوراة أسفارها في سفر ملاخي بالتذكير بسياسية التميز: "أحببتكم قال الرب، وقلتم بم أحببتنا، أليس عيسو أخاً ليعقوب يقول الرب وأحببت يعقوب، وأبغضت عيسو وجعلت حباله خراباً وميراثه لذئاب البرية. لأن أدوم قال قد هدمنا فنعود ونبني الخرب. هكذا قال الرب هم يبنون وأنا أهدم ويدعونهم تخوم الشر والشعب الذي غضب عليه الرب إلى الأبد". (سفر ملاخي: ١ - ٥، ١). إذن هي لعنة أبدية من قبل الرب على البكر عيسو، هو عزل رباني لإسماعيل من أجل إسحق، وهو إقرار بشرعية قتل سليمان لأخيه من أجل إقرار سياسة التمييز، وأمام هذا كله يجب أن لا نغفل أو نسقط المفاهيم الدينية التي ينشأ عليها الإنسان، فإن ما قدمناه من مقاطع لحوادث وقصص ليست لكاتب أو كتاب، وليست هي مثيولوجيا لشعوب وديانات منقرضة، بل هي نصوص فاعلة لأناس لا يزالون يؤمنون بصحة وقدسية وصواب ما يقرؤون. توأمان للأم والأب نفسيهما نرى الإجحاف والإبعاد المتعمد للابن الأكبر من قبل أمه، وهذا التمييز بين الأخوة يعتبر من أشد الأضرار النفسية على الأولاد، فالقسمة غير العادلة، والحيف الذي يحدث بين أبناء الأسرة الواحدة لهو أشد الأضرار الاجتماعية والنفسية. وعندما يتصفح الأب إصحاحات سفر التكوين وهو يتعبد لربه أو يقرأ ليلتمس حجة أو دليلاً أو طريقاً من خلال هدي العهد القديم، يفاجأ بالتمييز بين الأخوة إلى حد أن يكون هذا السلوك من المسلمات التربوية للعهد القديم، وإذا كان التميز بين الإخوة فيما ذكرنا بين إسماعيل الابن البكر وإسحق، قد لطف

كاتب التوراة أسبابها وأوجد لها مخرجاً كون البكر ابن الجارية ليكون التمييز والتفرقة عندها أمراً جائزاً، فإن كاتب لإصحاحات يتجاوز أن الأب واحد وأن الاثنين أخوة. هذا النسق التربوي في التفرقة بين الأخوة حدث أيضاً مع ولدَيّ إسحق اللذين من الأب والأم نفسيهما، والقاسم المشترك في التميز بينهما كان الحرمان من الإرث والإبعاد عن الأسرة، وما حدث من استدراج مخطط من قبل بتشبع لداود من أجل سليمان، وتمادي سليمان إلى حد قتل أخيه، والفوضى والإرباك في وصية يعقوب لأولاده معتبراً التركة لهم مجموع مراكز قوى، لا تغني ولا تشبع عالم الأخلاق وعلماء التربية والنفس بشيء.. فبين ولد منبوذ إلى حد حروب تهدد سلطنة الملك والنبوة، إلى ولد فقيد ظهر عليه من الحزن ما يفوق حزن الزاهدين على شيخهم، إنها نقلات سريعة وغير موزونة ولا تحمل ثوابت المنهج التربوي مع كم هائل من الصور الجنسية الفاضحة وإصرار شديد على اعتبار العلاقة بين العبد وربه كالعلاقة بين الرجل والمرأة بأوصاف جنسية فاضحة.. إلا يعطي كل ذلك انطباعاً أو قناعة ولو جزئية للأب بأن سلوكه في غبن أحد أفراد الأسرة أمر جائز أو أمر هين، وإن لم يكن ذلك ولكن في حالة شكي جار أو صديق بسبب وقوع ظلم عليه من قبل أمه أو أبيه، وأن هناك إجحافاً وحيفاً له، ماذا سيكون الجواب لمثل هذا الإشكال، وهو متدين بدين العهد القديم ومتأثر به ويأخذ تعاليمه منه. إلا ينتج عن ذلك مزيد من استمرار الأذى للأسرة والفرد؟ كم من التركات النفسية والعقدية سيتركها العهد القديم على شبان ملتزمين بتعاليم العهد القديم؟ كل ذلك بسبب مفاهيم العهد القديم والتوراة، وفي حالة حدوث ذلك، وهو ما تم فعلاً، إلا يعني ذلك أن التمييز بين الأخوة هو سمة دينية من سمات الأصولية اليهودية.

ضياع الماهية الروحية والتوراة

إن الرغبة في الحياة هي أهم مظهر من مظاهر الديمومة والبقاء، وإلغاء الكيان الروحي يبدأ بالعبث بصحة الفرد واللامبالاة بالكيان النفسي، وينتهي بالانتحار كتتويج لمحق وتفتيت الماهية الروحية.

تقوم الأديان بالدور الرئيس والمهم في تهذيب النفس وكبح اندفاعتها نحو الهاوية، فالدين هو صمام الأمان للفرد من التيه الفكري والنفسي، وهو المعالج لتصريف كثير من التوترات النفسية؛ ببعث الأمل، والرغبة في الحياة، بل إن بعض الأديان يصل به الأمر إلى حفظ الكيان الروحي (المتمثل بجسد الإنسان وما يحويه). إلى حد التحريم القاسي لعوامل إيذاء الفرد لنفسه بالترغيب والمنع لتصعيد وتيرة التحذير إلى أن يبلغ مداها وعيداً بنار جهنم لمن يقتل نفسه (ينتحر يأساً أو ضيقاً) كما هو واضح في تعاليم الإسلام الحنيف لحرصه على الكيان الإنساني.

إلا أننا نفاجأ إذا علمنا أن اليهودية هي الدين الوحيد الذي تهاون في الأمر إلى حد إجازة الانتحار وزهق النفس، سواء أكانت متمثلةً بفرد أم جماعات.

مع بروز الدين كحاجة روحية للوجود الإنساني رافقته ظاهرة ما يسمى عملياً "حالة تغيير القناعات"، أو تغيير المواقف، وقد عولجت هذه الظاهرة من قبل الدين اليهودي بكثير من الغلو والتطرف، وكان من أشد الممارسات توغلاً في القسوة والإيذاء ما صدر من أمر مباشر من قبل موسى على أثر إرتداد اليهود على أوامر الرب، حيث طلب عملية انتحار جماعية، بقتل كل إنسان لأخيه الإنسان الذي هو من صلبه وملته. بل ازداد الأمر سوءاً بطلبه قتل كل شخص ابنه وأخيه على أمل أن يعطيه الرب بركة. تقول التوراة:

١ - "فقال لهم (موسى): هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة، واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه. ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى، ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة

آلاف رجل". (سفر الخروج:٣٢ - ٢٤ ٢٨). ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل حدث تصعيد آخر في عملية الانتحار الجماعية.

٢ - "وقال موسى املأوا أيديكم اليوم للرب حتى كل واحد بابنه وبأخيه. فيعطيكم اليوم بركة" (سفر الخروج: ٣٢ - ٢٩). إن الصيغة المطروحة توحي بأن هناك أمراً تتبعه نتيجة، وهي حدوث قتل، والأدق: انتحار جماعي.

نعم هناك عقاب جماعي يقوم به إله التوراة يهوه، فيكون هناك وباء أو حرب يتسلط فيها شعب من الشعوب على القبيلة العبرية بأمر من الرب، إلا أن أحداث سفر الخروج تكشف عن عملية قتل من الجماعة لنفسها بنفسها، فهو قتل منظم ينتهي بإبادة الجماعة، ومثل هذا الأمر يتكرر في السياق التوراتي، حيث يتحفنا سفر العدد بتكرار فعل الانتحار الجماعي.

٣ - "وقام إسرائيل في شطيم وابتدأ الشعب يزنون مع بنات مؤاب"، (سفر العدد ٢٥-١)، فكان الرد السريع من موسى على مثل هذا الانحراف: "فقال موسى لقضاة إسرائيل اقتلوا كل واحد قومه المتعلقين ببعل فغور". (سفر العدد ٢٥ - ٥). فهو أمر للحفاظ على السلوك الجماعي، وإن حالة التصدع الفكري لم تجابه بالحجة بقدر ما كانت الصولة والفعل للانتحار الجماعي كحل أمثل لتصريف مثل هذا التوتر المتأزم. إذن هناك إشكالية لم تحسم إلا بالانتحار الجماعي لتصريف مثل تلك الأمور. فهناك فارق رئيس بين القتل والانتحار، فالقتل عملية تتم بين ندين ونقيضين اختلفا في المصالح والفكر، والغالب على الفعل أنه محصلة حروب وصراع، صراع فرد أو صراع جماعة، والانتحار عملية اختيارية تنطلق من النفس إلى النفس، فهو برنامج إلغاء كيان روحي وعملية فقدان وجود تنتهي بانتهاء الفرد. وعملية الانتحار الجماعي ظاهرة تفرد بها الدين اليهودي، وكل انتحار جماعي كان خروجه من عباءة العهد القديم، وليس الانتحار الجماعي ظاهرة إنسانية عامة.

والمتابع للحركات الأصولية الغربية (الأصولية المسيحية أو المسيحية اليهودية المتطرفة) في سلوكها عند الأزمة، يجد أن أسرع حل لها هو الانتحار الجماعي.

مثل:

أ - الماسادا: "ماسادا" كلمة آرامية تعني القلعة، وهي آخر قلعة يهودية سقطت في أيدي الرومان أثناء التمرد اليهودي الأول ضد الإمبراطورية الرومانية. إذ قام القائد اليهودي

إليعازر بن يائير (حسب رواية يوسيفيس) بإقناع رفاقه بممارسة انتحار جماعي بدلاً من الوقوع أسرى في أيدي الرومان. حيث نسب إليعازر عملية الانتحار إلى تعليمات الشريعة ،حيث نجح إليعازر في إقناع المحاصرين برأيه، وقد أدى هذا إلى انتحار ٩٦٠ شخصاً من الرجال والنساء والأطفال، علاوة على ذلك أنهم أضرموا النار في منازلهم ومخازن مؤنهم عام ٧٣).

ب - الداودين: وهي مجموعة أمريكية قامت بإحراق نفسها في معقلها المسمى جبل الكرمل، وقائد هذه المجموعة فسنون هويل، ولكنه سمى نفسه ديفيد تيمناً بالملك داود، وعندما أصبح قائداً للمجموعة لقب نفسه بقورش تيمناً بالملك الفارسي قورش، وبهذا أصبح اسمه ديفيد قورش، وهنا يتضح مدى تأثير التوراة وقصص وقوانين العهد القديم على الساحة الأصولية المسيحية. وما قام به هو ما قام به اليهود المكابين في ماسادا.

ج - جماعة معبد الشمس: إذ قامت هذه المجموعة بانتحار جماعي سنة ١٩٧٨، في مدينة غويانا، حيث انتحر ٩٢٣ شخصاً مع مسيحهم جيم جونز.

د- في جبل الفير كور الفرنسي: عثرت الشرطة سنة ١٩٩٥ على جثث ستة عشر شخصاً من بينهم ثلاثة أطفال أربع عشرة جثة من الجثث مرتبة على شكل نجم في زاوية من زوايا الغابة، ويعود هذا الانتحار إلى مجموعة معبد الشمس.

هـ- في مرتفعات مورين: تم العثور على خمسة أشخاص موتى.

و -في فريبورغ بسويسرا: تم العثور على ثلاثة وعشرين جثة سنة ١٩٩٤ كذلك.

ز- وفي ولاية فاليس بسويسرا أيضاً، تم العثور على خمس وعشرين جثة رتب تسع عشر منها على شكل دائري.

ح- وفي عام ١٩٩٧: وجدت الشرطة الكندية قرب مونتريال جثثاً على شكل صليب لخمسة موتى من أتباع (معبد الشمس) من الذين كانوا يتوقعون الانتقال إلى سيروس أكثر نجوم السماء سطوعاً، ولم يتركوا سوى ورقة كتب عليها "ليس للموت من وجود. إنه تهيؤ خالص وحسب".

وإذا كان السياق السردي لما قدمنا فيه من التأويل ممّا يبعد شبح ظاهرة الانتحار، ويسعى لعدها فعلاً عقابياً من الرب نفذه موسى بحق التكوين اليهودي في حينه، فإننا نرى

حالات انتحار تمت ولم يكن هناك رد عليها، واعتبر ما تم من حدث فعلاً مقبولاً على أقل التقديرات، إن لم يكن الجواز هو الطابع العام لكل حدث من حوادث الانتحار.

في موضوع انتحار النبي شاؤل تحدثنا التوراة بما يلي:

٤ - "فقال داود للغلام الذي أخبره كيف عرفت أنه قد مات شاؤل ويونثان ابنه، فقال الغلام الذي أخبره اتفق أني كنت في جبل جلبوع وإذا شاؤل يتوكأ على رمحه وإذا المركبات والفرسان يشدون وراءه. فالتفت إلي فرآني ودعاني فقلت ها أنذا. فقال قف علي واقتلني لأنه اعتراني الدوار لأن نفسي بعد فيّ. فوقفت عليه وقتلته". (سفر صموئيل ثاني: ١ - ٨، ٩).

صورة كاملة لعملية انتحار من ملك شاهد انكسار جيشه، ولم يتحمل الملك وهو الذي بيده مقاليد الأمور حالة انكسار قواته وجيشه، فطلب الخلاص من هذا المأزق بالموت السريع. والذي حدث، حدث أيضاً مع نبي أصيب في معركة وفيه جرح ولم يتماسك، فطلب الخروج من مثل هذا الإشكال بطلب الموت السريع، فالموت السريع أو الانتحار هو الحل الأمثل. القاسم المشترك بين الاثنين هو وجود الأمر، ففي عملية الانتحار الجماعية كان هناك أمر من موسى، وفي عملية الانتحار الفردية كان هناك أمر مصدره شاؤل، مع مراعاة أن الاثنين نبيان. أي في أمرهما تشريع وجواز، فهما من أهم نويات التكوين السياسي والفكري للظاهرة اليهودية.

ونجد ذلك في قصة اليهودي (أخيتوفل) الذي أشار بمشورته إلى النبي داود وجيشه ولم يعمل بها، فما كان رد فعله إلا أن قرر أن ينتحر خنقاً.

٥ -"فلما رأى (أخيتوفل) أن مشورته لم يعمل بها، شد على الحمار وقام وانطلق إلى بيته إلى مدينته وأوصى لبيته وخنق نفسه ومات ودفن في قبر أبيه". (سفر صموئيل ثانٍ:-١٧ ٢٤).

وفي هذه القصة القصيرة المركبة من سطور في سفر صموئيل تعبير عن انهيار نفسي تام لشخص، لم يعتد برأيه، فما وجد له إلا مهرباً واحداً لتصريف هذا الخذلان، إلا وهو الانتحار خنقاً حتى الموت.

والمهم في استطلاعنا أنه لم يذكر عتاب أو زجر أو نهي أو توبيخ أو وعيد على كون هذا العمل غير مقبول شرعاً، لا في انتحار شاؤل ولا في انتحار أخيتوفل. والخطورة في انتحار الاثنين أن الأول نبي، فلانتحاره سند شرعي للمؤمنين به، والثاني انتحار شخص آخر أمام نبي الله داود ولم يعقب أو يزجر أو ينهي.

٦ - "في السنة السابعة والعشرين لآسا ملك يهوذا (زمري في ترصة) فسمع الشعب النازلون من يقول قد فتن زمري وقتل أيضاً الملك. فملك كل لإسرائيل عمري رئيس الجيش على إسرائيل في ذلك اليوم في المحلة. وصعد عمري وكل إسرائيل معه من جبشون وحاصروا ترصة. ولما رأى زمري أن المدينة قد أخذت دخل إلى قصر بيت الملك وأحرق على نفسه بيت الملك بالنار فمات". (سفر الملوك الأول:-١٦ ١٩، ١٦).

ويتكرر لدينا مشهد الانتحار، فيما حدث لملك إسرائيل ولم تكن لدية القدرة على استيعاب خسارته أو خروج الملك من يديه، فبمجرد أن علم أن جيوش عمري منافسه دخلت المدينة وأصبح هو في مهب الريح قام بإحراق نفسه.

٧ - "فجاء أبيمالك إلى البرج وحاربه واقترب إلى باب البرج ليحرقه. فطرحت امرأة قطعة رحى على رأس أبيمالك فشجت جمجمته. فدعا حالاً الغلام حامل عدته وقال له اخترط سيفك واقتلني لئلا يقولوا عني قتلته امرأة، فطعنه الغلام فمات. ولما رأى رجال إسرائيل أن أبيمالك قد مات (انتحر) ذهب كل واحد إلى مكانه". (سفر القضاة: -٩ ٥٣، ٥٢).

إنه المخرج المألوف، بل هو مخرج واحد لكل أزمة توتر واحتقان نفسي بسبب ألم بدني أو مضاعفات الحياة.. إنها الحرب يا أبيمالك، أمر طبيعي أن تضرب ويشج رأسك، لم الحل بالموت السريع (الانتحار).. لم الهروب من الألم؟ إنها قناعات راسخة في العقل اليهودي، تشرّع الانتحار من دون نص.

لذلك نرى ملكاً يطلب العون ممّن يسهّل له الموت السريع بسبب انكسار جيشه، ثم يؤكد على مبدأ الانتحار بعداً ما أصابه دوار بسبب جرح ألم به في المعركة.

وآخر يشنق نفسه لمجرد هزة نفسية حلت به لعدم الأخذ بمشورته.

وثالث يطلب الانتحار لأن امرأة أوقعت عليه صخرة فشجت رأسه.

إنها حالات لتصريف توتر وحل أزمات من خلال الانتحار، لم نجد إلا إشارة تمر مروراً سريعاً بتحفظ شديد حول موقف العهد القديم من الانتحار، ذكرت في سفر التثنية نذكر نصها: "قد جعلت قدامك الحياة والموت. البركة واللعنة. فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك". (سفر التثنية، الإصحاح ٣٠:- ١٩).

فهو نص عام، لا عقاب فيه ولا ثواب، ولا إنذار ولا تبشير. والمهم أنه ليس فيه أمر بتحريم قطعي لمثل هذا العمل الشنيع، لأنه مرتبط بالكيان الوجودي للإنسان، علماً أن سفر اللاويين أتحفنا بأوامر وتشريعات حول الأمراض الجلدية وتعليمات حول بيت ممسوح النعل وأوامر شراب الغيرة واللعنة من الرجل على المرأة، وترك مثل هذا الجانب الحساس بعبارة قال عنها المفسرون إنها نهي عن الانتحار ولم تقلها التوراة.

زيادة على حالات الانتحار المتنوعة من انتحار جماعي إلى انتحار فردي في العهد القديم، فقد غلب المفهوم التشاؤمي والصورة السوداوية لدى العهد القديم مما يلغي باعث الأمل بالحياة، مع خلو العهد القديم من الثواب والعقاب للعالم الآخر، وذكر العالم الآخر يبعث الأمل بمجاهدة النفس والسعي من أجل فردوس أخروي، وإذا كان هناك ثواب وعقاب فإن الثواب والعقاب دنيوي، مادي بحت. يقول كاتب سفر الجامعة ما يلي: "كلام الجامعة ابن داود الملك في أورشليم، باطل الأباطيل، الكل باطل، ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس". (الجامعة:١-٢، ١). بداية تشاؤمية تلغي كل مشروع للأمل والحياة لدى الإنسان.

"لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك، ونسمة واحدة للكل فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل. يذهب كلاهما إلى مكان واحد. كان كلاهما من التراب، إلى التراب يعود كلاهما. من يعلم روح البشر هل هي تصعد إلى فوق وروح البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل إلى الأرض". (سفر الجامعة: ٣ ٢١-، ١٦). ومع هذا التكريس للنزعة التشاؤمية التي هي القاعدة والمنطلق لكل الأمراض النفسية والتي تتوج على الأغلب بعملية الانتحار، هناك فوضى في مجموعة القيم لحل الإشكالات التي تظهر في التكوين العبري، مما يجعل التلاميذ وتلامذة التلاميذ يبدون حيرة وتيهاً على الصعيد الفكري أشد من تيه الآباء مع موسى. ومن معالم فوضى القيم تتحفنا التوراة بما يلي:

في حالة الردة التي رافقت الظاهرة اليهودية عند الخروج الأول، كيف كان علاج هارون لها: "ولما رأى موسى الشعب أنه معرى، لأن هارون كان قد عراه للهزء بين مقاوميه". (سفر الخروج ٣٢-٢٥). إن المرء لفي حيرة من أمره وهو أمام مثل هذا الحل في أدق قضية تواجه البشرية، إلا وهي التوحيد، نبي يطلب منهم التعري وكأن الوقت وقت سخرية، ومثل هذا الأمر لا يدفع المتدين للسخرية بمن يرتد بقدر ما يحدث في أعماقه شرخاً في مدى قوة الالتزام وشرخاً في ضوابط القيم.

بل إن التيه وخلط الأوراق يزداد عندما نعلم ما حدث لنبي السبي حزقيال الذي تصفه أسفار بني إسرائيل بما يلي: "عند نهر الخابور أن السماوات انفتحت فرأيت رؤى الله. في الخامس من الشهر وهي السنة الخامسة من سبي يوكاهين الملك صار كلام الرب إلى حزقيال". (سفر حزقيال:-١ ٣، ٢). هنا تأكيد للشخصية، فيه تم تأكيد المكان والزمان والشخص ودلالة من دلالات النبوة بانفتاح أبواب السماوات لحزقيال. بعد كل ذلك ما هي التعاليم الموجهة لهذا النبي؟

"وتأكل كعكاً من الشعير. على الخرء الذي يخرج من الإنسان تخبزه أمام أعينهم. وقال الرب، هكذا يأكل بنو إسرائيل خبزهم بين الأمم الذين أطردهم إليهم"، (سفر حزقيال:-٤ ١٤). وعندما ترجّى العبد الفقير رب التوراة، بأن يخفف عنه مثل هذا الأمر جاءه أمر جديد يقول فيه: "فقلت آه يا سيد الرب ها نفسي لم تتنجس ومن صباي إلى الآن لم آكل ميتة أو فريسة ولا دخل فمي لحم نجس. فقال لي أنظر قد جعلت لك خثي البقر بدل خرء الإنسان فتصنع خبزك عليه". (سفر حزقيال:٤ ١٦). تخفيف من خرء الإنسان إلى خثي البقر، وهل البناء النفسي يكون بهذه الشاكلة، وهل القيم الروحية تنبعث من هذه التعاليم، إنها الفوضى في المفاهيم، والفوضى في القيم، تجعل المتدين بدين العهد القديم في ضياع وذهول لعدم حصوله على حلول لمشاكله، مما يدفعه إلى مزيد من اليأس، والانتحار هو إحدى نتائج الهاوية في منظومة القيم في التوراة.

ومن فوضى في السلوك بدعوة هارون اليهود للتعري، إلى تعليمات الطعام وكيفية الأكل لحزقيال، تؤكد التوراة على المفهوم المادي المحسوس للثواب والعقاب: "فإذا سمعتم لوصاياي التي أنا أوصيكم بها لتحبوا الرب إلهكم وتعبدوه من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم، أعطي مطر أرضكم في حينه المبكر والمتأخر، فتجمع حنطتك وخمرك وزيتك، وأعطي لبهائمك عشباً

ﻓﻲ حقلك فتأكل أنت وتشبع، فاحترزوا من أن تنغوي قلوبكم فتزيغوا وتعبدوا آلهة أخرى فتسجدوا لها، فيحمى غضب الرب عليكم ويغلق السماء فلا يكون مطر ولا تعطي الأرض غلتها فتبيدون سريعاً عن الأرض الجيدة". (سفر التثنية:-١١ ١٧، ١٣). كل الذي نصل إليه من نصوص العهد القديم هو عقد مادي بين رب التوراة والعائلة العبرية، لهم إله يعبدونه يلتزمون به مقابل منافع مادية مباشرة منها ما ذكر في النص: منحهم أرضاً مجاناً وأسبغ عليهم من النعم المرتبطة بحركتهم اليومية من طعام وشراب وتوعدهم بالحرمان المباشر في حاله المعصية.

ثم يحدث تصعيد مادي بحت بجعل كل المكاسب المادية هي محور الرضا من الرب، فمقياس الرضا والغضب هو مجموع المكاسب المادية الآنية: "كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم". (سفر التثنية: ١١-٢٥).

وعبر أسفار العهد القديم التسع والثلاثون، يتنقل كلام الإصحاحات بالتأكيد على تحقيق البعد المادي في طبيعة العلاقة بين العبد وربه، فلا ذكر للآخرة ولا وعد بثواب أو جنة في يوم القيامة بشكل واضح ومؤكد، مما يعطي قيمة روحية لمبدأ الحساب والعقاب في الدار الآخرة.

حيث يختم سفر ملاخي آخر سفر من أسفار العهد القديم: "ارجعوا إلي أرجع إليكم قال رب الجنود: فقلتم بماذا نرجع. أيسلب الإنسان الله، فإنكم سلبتموني، فقلتم بما سلبناك، في العشور والتقدمة، لقد لعنتم لعناً وإياي أنتم سالبون هذه الأمة كلها. هاتوا جميع العشور إلى الخزنة ليكون في بيتي طعام وجربوني بهذا قال رب الجنود. إن كنت لا أفتح لكم كوى السماوات وأفيض عيكم بركة حتى لا توسع، وأنتهر من أجلكم الآكل فلا يفسد لكم ثمر الأرض ولا يعقر لكم الكرم في الحقل قال رب الجنود". (سفر ملاخي: ٣ - ١٢-٧). وهكذا سجال بين وعد ووعيد مادي مباشر من قبل رب التوراة: أرض مجاناً ومطر وزيت وخمر. لمن؟ للذي يؤمن به ويلتزم به!

فيما تقدم تكلمنا عن أحداث تمت راح ضحيتها أشخاص بكامل إرادتهم، حيث أنهوا مشروع كيان روحي متمثل بتكوينهم الذاتي.

وتطرقنا إلى تعاليم تزرع اليأس والتيه والشك والحيرة في عقول المتعبدين والمؤمنين

بقداسه العهد القديم. وانتهينا إلى أن الثواب والجزاء ينالهما الإنسان الآن، فهو ابن اللحظة العاجلة.

كل هذه الأمور تمت، ولكن ليس من خلال الأسطورة، ولا من خلال الميثولوجيا الشعبية. إنها نصوص مقدسة لها مريدوها وأتباعها، وتؤثر على ملايين من البشر. إنها نصوص دينية فاعلة، فلا يمكن إغفال الكيان الديني وما يحمل من أثر على شخصية الفرد، وبهذا نحن لا نؤكد على أن كل حالات الانتحار في العالم الغربي مصدرها العهد القديم، بل الذي نرمي إليه أن العهد القديم كان وما يزال عاملاً مساعداً للمتدينين والمتأثرين به، فهو يحتوي على أجواء مرخصة ومسهلة لظاهرة الانتحار. نعم لا يوجد هناك نص يجيز الانتحار في العهد القديم، ولكن لا وجود أيضاً لنص قطعي الدلالة والثبوت يحرم الانتحار أيضاً.

النص المقدس
وترويج المعلومة الكاذبة والمغلوطة

من الأكاذيب الشائعة التي تم ترويجها عبر الإعلام المبرمج والمدروس، هو الوجود التاريخي والثابت للعنصر اليهودي على أرض فلسطين، حيث عمل المؤرخون التوراتيون على إلغاء تاريخ فلسطين القديمة من قبل ظهور سيدنا موسى عليه السلام، وصبغوا الأرض بصبغة توراتية لتوحي للجيل الحاضر أن أصل تاريخ فلسطين عبارة عن تاريخ إسرائيل التوراتي الموغل في القدم، على الرغم من محدودية تاريخ التوراة، و قصر فترة ظهور الوجود العبري التوراتي في أرض فلسطين العربية، ولم يتم الاكتفاء بمثل هذا التضليل، بل تعداه إلى التمادي والقول إن العنصر اليهودي قد استقر وترك أثراً حضارياً وترك لأهل المنطقة فكراً وعلماً وحضارة ومدنية.

وأهم دعامة لتحقيق مثل هذا الأثر، هو البعد الفكري والثقافي للمجموعة البشرية المستقرة. وينتج عن هذا الاستقرار بناءٌ وزراعة، ثم فكر ليكون له بعد ثقافي، إلا أن الضعف الثقافي هو السمة المميزة للوجود اليهودي خلال ترحاله وكثرة تنقله في أرض فلسطين، فلم تستقر المجموعة اليهودية فكرياً، بل كانت مستقبلة للأفكار، وحاملة لما يجول في خاطر ووجدان الشخصية الفلسطينية من معتقدات وطقوس وممارسات، حتى بدت الشخصية العبرية ذات ملامح كنعانية فينيقية صيدونية مؤابية عمونية بمشارب فلسطينية، "وأهم ملمح كانت تتميز به الشعوب في تلك الفترة هي المعتقدات الدينية، فالأثر الديني هو الوعاء الفكري وهو الوسط المؤثر على العنصر البشري"، وقد كان العهد القديم وأسفار بني إسرائيل هو الدليل على عدم قدرة اليهود على تشكيل أثر فكري على الآخرين بقدر ما كان العهد القديم يشكو من كثرة ارتداد اليهود الفكري والعقائدي وحملهم معتقدات الآخرين في بعض أجزاء فلسطين التي سكنوا فيها. يروي لنا العهد القديم هذه الشهادات حول ضعف البناء الفكري لليهود وتقبلهم أفكار الأقوام الذين جاوروهم.

١ - بمجرد دخول المجموعة الخارجة من مصر إلى مشارف أرض فلسطين في سيناء ظهر أول الأثر في البنية الفكرية لليهودي بقبوله ثقافة الآخر وعدم الوثوق بالهوية الفكرية لديه، فصرح بذلك العهد القديم قائلاً: "أن اعبدوا العجل، هذه إلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من مصر فسجدوا له وذبحوا". (خروج: ٢٣ - ١، ٩).

٢ - "قال الرب ليوشع اصنع لنفسك سكاكين من صوان وعد فاختن بني إسرائيل ثانية" (سفر يوشع:-٥ ٣)، إن ترك مثل هذا التقليد الديني دلالة على أثر البيئة الاجتماعية في نسيان أو إلغاء تقليد ما.

٣ - "وكان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزنوا وراء البعليم وجعلوا لهم بعل بريث إلهاً". (سفر القضاة: ٨-٣٣). هي الإشارة إلى اتخاذ إله آخر ،أي اتخاذ ثقافة جديدة ومفاهيم جديدة، لذلك يجدر تنبيه القارئ إلى كثرة التحولات الفكرية والعقائدية عند اليهود خلال وجودهم الموقوت في بعض أراضي فلسطين، حيث يذكر العهد القديم مثل هذه التحولات بقوله: لقد تبعوا آلهة المؤابيين أو آلهة العمونيين.

٤ - "وعاد بني إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب وعبدوا البعيلم والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهه مؤاب وآلهة عمون وآلهة الفلسطينيون وتركوا الرب ولم يعبدوه"، (سفر القضاة: -١٠ ٦، ٧). وفي هذا إقرار على تعدد الأثر الفكري للمجاميع البشرية من أبناء الأرض على المجموعة اليهودية التي جاورتهم خلال ترحالها المستمر.

٥ - "وعند موت القاضي كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها"، (سفر القضاة: -٢ ١٩). وقد كان القضاة هم أصحاب الأثر الفكري والثقافي في المجتمع آنذاك، وكان بمجرد موت أحدهم يحدث الارتداد والانحراف، وفي كل ذلك دلالات على عدم النضج الفكري والقوة العقائدية لدى اليهود ليكون لهم أثر في جيرانهم، بل لم يكن لهم أثر في وسطهم اليهودي، حيث بلغت عوامل التأثير الثقافي والفكري من المجتمع المحيط، على المجموعة اليهودية الصغيرة، إلى حد قتل أولادهم للتعبير عن اندماجهم بالمجتمع الجديد، وفي هذا السلوك أقوى البيان على فقدان اليهود شخصيتهم الفكرية وتبعيتهم للآخر.

٦ - "بل اختلطوا بالأمم وتعلموا أعمالهم، وعبدوا أصنامهم فصارت لهم شركاء وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان وأهرقوا دماء زكية، دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنام

كنعان"، (مزمور: -١٠٦ ٣٣). حتى في حالات الإصلاح التي كانت تظهر بين الفترة وأخرى لم يكن بالإمكان إزالة الأثر العقائدي للجوار على اليهود.

٧ - "وملك يهوشافط على يهوذا. كان ابن خمس وثلاثين سنة حين ملك، وملك خمساً وعشرين سنة في أورشليم، وسار في طريق أبيه آسا ولم يحد عنها، إذ عمل المستقيم في عيني الرب. إلا أن المرتفعات لم تنزع، بل كان الشعب لم يعدوا قلوبهم لإله آبائهم". (سفر أخبار أيام ثانٍ: ٢٠ - ٢). والملاحظ في هذا النص أن فترة الإصلاح لم تكن قصيرةً، بل كانت خمسة وعشرين عاماً، ورغم ذلك يعترف العهد القديم بالأثر الفكري للآخرين، وعدم القدرة لمثل هذا المصلح من إزالة أفكار الجوار.

والذي نستنتجه من هذا السلوك هو عدم وجود ثقافة مشتركة لدى اليهود في ذلك العصر، مع التأكيد على أن استلهام ثقافة شعب آخر، والإصرار على هذه الثقافة يعني تبعاً لذلك استعمال مفرداتها اللغوية والفكرية، لذلك لا يمكن للتكوين اليهودي الأول الهروب من الأثر العربي المحيط به والذي قام بدور مهم في تشكيل كيانه الفكري.

ومن السمات المميزة للتجمع اليهودي حالة الترحال والبداوة وعدم الاستقرار، وكانت الدلالة الوحيدة لكل تجمع هي الخيمة. حتى المعبد كان يسمّى خيمة الرب، فلم يعرف اليهود المعابد المبنية، ولم يعرف اليهود حالة من التمدن أو الحد الأدنى من الرقي العمراني، والشواهد على مرجعية البداوة في السكن والاجتماع وتجييش الجيوش هي الخيمة طيلة أحداث متتالية وأسفار عدة من أسفار بني إسرائيل، حتى جاءت أسطورة الهيكل. وعند تصفح سيرة البناء وما حوى العهد القديم، نرى أن البناء والمواد ليست عبرية، بل هي من صيدا العربية، والطراز كنعاني، واليد المصممة من صور.

١ - وعندما "انفرد حابر القيني من قاين، خيم حتى بلوطة في صنعايم التي عند قادش". (سفر القضاة: -٤ ١١).

٢ - وحين أنهى يوشع من إلقاء أوامره على جماعته "قال لهم: انصرفوا الآن إلى خيامكم." (يشوع -٢٢ ٤).

٣ - وقام جدعون باختيار مقاتليه، وعندما أنهى عمله أمرهم بالتوجه "أرسل سائر رجال إسرائيل، كل إلى خيمته". (قضاة: -٧ ٨).

٤ – وعندما "اختار شاؤل لنفسه ثلاثة آلاف رجل..أرسل بقية الشعب، كل واحد إلى خيمته". (صموئيل أول: ‎-١٣ ٢)‎.

٥ – وحين "هرب الملك داود من الأرض لأجل ابشالوم (ابنه)..هرب ينو إسرائيل كل واحد إلى خيمته". (صموئيل ثانٍ: ١٩ – ١٨).

٦ – وعندما عين سليمان ملكاً على إسرائيل "بارك بنو إسرائيل الملك، وذهبوا إلى خيامهم". (ملوك أول: ‎-١ ٦٦)‎.

٨ – وحين "انهزم يهوذا أمام إسرائيل، هربوا، كل واحد إلى خيمته". (الملوك ثانٍ ١٤ – ٢٢).

٩ – وحين "خرج بنو إسرائيل من تحت يد الآراميين، أقام بنو إسرائيل في خيامهم كأمس وما قبله". (الملوك أول: ١٣ – ٥).

١٠ – وكان صنع الخيمة دقيقاً، بحيث يمكن فكها وحملها إلى مكان آخر. وكان موضع كل محلة والنقل إلى محلة أخرى وترتيب الارتحال مرسوماً من قبل البدو الرحل وسمة من سمات الممارسة اليومية، وللخيمة أسماء لطول فترة التعبد فيها وتعلق اليهود الأوائل بها، منها: الخيمة، خيمة الرب، مسكن الرب، خيمة الاجتماع، بيت الرب. وكذلك اقترن الاسم باسم المذبح الذي تقدم به القرابين لآلهة اليهود، حيث كانت تمارس الطقوس الخاصة بالذبح داخل الخيمة من خلال رش الدم على أركان الخيمة... وإن الاسغراق في هذا الباب واسع، لكثرة الشواهد على دور البداوة في سلوك اليهود الأوائل من خلال الخيمة أو من خلال سلوكهم اليومي كطريقه الأكل وما شاكل ذلك.

كتعاليم عيد فصح الرب: "ويأكلون اللحم تلك الليلة مشوياً بالنار مع فطير على أعشاب مرة"(سفر الخروج: ١٣ – ٨). وهذه الممارسات هي أفعال بداوة أكثر من كونها أفعال مدينة، حيث المدينة تمتاز بعامل الاستقرار، فيكون الغالب على طريقة طهي الطعام الطبخ والسلق بالقدور والماء، والنص يعطي انطباعاً بدوياً لا مدنياً.

ومن مظاهر التجمع القبلي للتكوين اليهودي داخل الأراضي الفلسطينية، هو عدم القدرة على فرض وجودهم على القبائل الأخرى، إذ أن الوجود اليهودي في أحسن أحواله لم يتجاوز كونه إمارة من الإمارات، التي ظهرت ثم اندثرت، ومن المبالغة في التحليل، بل وغبن للتاريخ، إضفاء صفة دولة يهودية في فلسطين القديمة، وليس ما نذكره بدعة من بدع التاريخ، بل هو

مذكور بين طيات العهد القديم وأسفار بني إسرائيل. يقول محرر (العهد القديم): "وأفضل تعبير عن الحالة التي عاشها الوجود اليهودي الطارئ هي صرخة الفلسطينيون في حروبهم مع العنصر الطارئ".

"تشددوا وكونوا رجالاً أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم فكونوا رجالاً وحاربوا. فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته، وكانت ضربة عظيمة جداً. وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل وأخذ تابوت الله" (سفر صموئيل أول: ٤ - ١٠). أي أن الوجود اليهودي لم يكن هو سيد الموقف، ولم يكن صاحب الأثر الفكري والثقافي، فأنى لمن هو مستعبد أن يؤثر؟ وباعتراف كتبة العهد القيم أن اليهود كانوا عبيداً للفلسطينيين، فكيف يكون لمن هو تحت رحمة أصحاب الأرض، أثرٌ فكري. والذي يغور في ثنايا العهد القيم يرى صوراً من الصراع بين الوافد الغريب وأهل هذه الأرض مما يثبت على عدم ثبوت العنصر القادم.

١ - "فحمي غضب الرب على إسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك آرام النهرين فعبد بنو إسرائيل كوشان رشعاتيم، ملك آرام ثماني سنين". (سفر القضاة: ٣-٨). يعني استعبدهم ملك آرام ثماني سنوات. واستعباد الآرامين لليهود دليل على كون اليهود ليسوا بآراميين، بل هم تجمع هجين من أجناس شتى، ونسبتهم إلى سيدنا إبراهيم الآرامي ليست دقيقة.

٢ - "وعبد ينو إسرائيل عجلون ملك مؤآب ثماني عشر سنة. وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب فأقام لهم الرب مخلصاً" (سفر القضاة ٣ - ١٤).

٣ - "واستعبدهم يابين ملك كنعان الذي ضايق بني إسرائيل بشدة طيلة عشرين سنة، لأنه كان له تسع مئة مركبة من حديد" (سفر القضاة: ٤ - ٣) وكثيراً ما يستغيث اليهود بسبب استعمال سكان المنطقة العربات الحديدية، وهذا الوصف مكرر، الأمر الذي يعطي انطباعاً عن تطور الآلة العسكرية في حينها لدى أبناء البلد، وجهل القادم الغريب بإمكانيات أهل المنطقة وقدراتهم.

٤ - (وأستعبدهم الفلسطينيون وبنو عمون، فحطموا بني إسرائيل ثماني عشر سنة. وعبر بنو عمون الأردن ليحاربوا أيضاً يهوذا وبنيامين وبيت أفرايم فتضايق إسرائيل جداً" (سفرا القضاة: ١٠ - ٧، ٩).

٥ -"وفي مرحلة من مراحل الحقبة الطارئة التي عاشها بنو إسرائيل على أرض فلسطين استعبدهم الفلسطينيون أربعين سنة" (سفر القضاة ١٣ - ١).

٦ - ولما سعى شاؤل لمحاربه الفلسطينيون "تجمع الفلسطينيون لمحاربة إسرائيل ثلاثين ألف مركبة وستة آلاف فارس وشعب كالرمل الذي على شاطىء البحر في الكثرة. تضايق الشعب، واختبأ الشعب في المغاور والغياض والصخور والصروح والآبار، وبعض العبرانيين عبروا الأردن إلى أرض جاد وجلعاد" (صموئيل أول: ١٣ - ٢، ٦). الملفت لنظر القارئ اعترافات كتبة التوراة بالواقع الحي لأبناء الأرض، حيث وصفوهم بأنهم كرمال البحر في كثرة عددهم ، فلم تخل أرض فلسطين من أبنائها عبر التاريخ، ولم نفاجأ باعترف محرري العهد القديم بتوضيح صورة اليهودي وما يمتلك من ذعر. وقسم منهم عبر نهر الأردن هرباً، وهذا ما نراه الآن من ذعر اليهودي عند أي ضغط، والهجرة المعاكسة عند كل فعل مقاومة هي صفتهم المميزة عبر التاريخ.

وفي أحسن الأحوال تقول التوراة:

٧ - "وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل، ولكن لم يطرد سكان الوادي لأن لهم مركبات حديد" (سفر القضاة: ١ - ٢٠). إذاً هي سيطرة نسبية لم تتجاوز بعض التخوم والمرتفعات.

٨ - وظلوا محصورين في التلال والشعاب، يجتنبون هبوط السهول خوفاً من سكانها. يذكر العهد القديم بقوله: "وحصر الأموريون بني دان في الجبال ولم يدعوهم ينزلون إلى الوادي" (سفر القضاة: ١ -٣٤).

٩ - واستعبدهم الميدانيون سبع سنين "فاعتزت يد مديان على إسرائيل وبسبب المديانيين، عمل بنو إسرائيل لأنفسهم الكهوف التي في الجبال، والمغاور والحصون.. وذل إسرائيل جداً من قبل المديانيين" (سفر القضاة: ٦ -٢).

وفي الوقت الذي جال في خاطر التجمع اليهودي العيش، أرسل موسى من يستطلع المكان، فكان وصفهم لما رأوه اعترافاً بحضارة المدن التي رأوها، فيحدثنا سفر العدد بذلك:

١٠ - "فساروا حتى أتوا إلى موسى وهارون وكل جماعة إسرائيل، وأخبروه وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها، وحقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز، والمدن حصينة عظيمة جداً، وأيضاً قد رأينا بني عناق هناك،

العمالقة ساكنون في أرض الجنوب والحيثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل، والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الطريق.. وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق من الجبابرة فكنا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم" (سفر العدد: ١٣- ٢٢، ٣٢). ففي النص اعتراف بعدم خلو الأرض من ساكنيها، فعدّد الكتل البشرية وبيّن مواقع سكنهم، ومن ثم بعد هذا الاعتراف أقر بوجود حصون وزراعة (وهي أهم دلالة على الحضارة في تلك العصور)، ولو قدر لهم الدخول إلى أرض هذه المدن لتحدثوا عن لغتها وثقافتها، إلا أن الوصف الخارجي يوحي بمثل هذه الأساسيات ويشير إلى البناء الاجتماعي الداخلي. بل إن الوجود اليهودي الطارئ لم يكن يملك أدوات استمرار البقاء العسكري، وكان اليهود يستمدون ذلك من أبناء الأرض ذاتها. يقول محرر سفر صموئيل:

١١ - "ولم يوجد صانع في كل أرض إسرائيل. لأن الفلسطينيون قالوا لئلا يعمل العبرانيون سيفاً ورمحاً. بل كان ينزل كل إسرائيلي إلى الفلسطينيون لكي يحدد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله" (سفر صموئيل أول: ١٣ - ١٩، ٢٠).

لذلك لم يتحرج سليمان لمعرفته بجهل وبداوة القبيلة العبرية حيث قال "ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين" (سفر الملوك أول: ٥- ٦)، فكان الأثر الكنعاني الفلسطيني هو البارز والفاعل طيلة الوجود الطارئ للقبيلة العبرية على أرض فلسطين، سواء أكانت وسائل نقل الأثر عبر الاحتكاك والموادعة سلماً أم بسبب الحروب. نعم الحروب تؤدي إلى تبادل الأفكار وتنقل السمات الثقافية للشعوب المتحاربة، إلا أن العهد القديم لم يذكر لنا أثراً فكرياً ثقافياً تركه العبرانيون على أبناء المنطقة، لا من خلال الحرب ولا من خلال السلم، كما لا يخفى على المتابع أن هناك فترات سكون وموادعة كانت نتائجها المصاهرة وزواج أهل المنطقة من العبرانيات، وكان من نتائج فترات الهدوء عبادة اليهود لآلهة المنطقة، واتباع طقوسهم إلى حد قتل أولادهم للتعبير عن الطاعة للممارسات المتواجدة في فلسطين.

هذه الوقائع النصية آتية من مصدر توراتي يقابله إصرار صهيوني على الكذب وترويج المعلومة المغلوطة، حول مملكة اليهود ودور هؤلاء في المنطقة و عبر التاريخ الغابر، ونحن نرى أن هذا الإصرار تستمده الحركة الصهيونية من إسقاطات كتبة العهد القديم الذين أجازوا شرعية الكذب من خلال سيرة ملوك وأنبياء بني إسرائيل، إذ تذكر لنا التوراة في

سفر صموئيل: "فقال الرب لصموئيل املأ قرنك دهناً وتعال أرسلك إلى يسي التلجمي لأني قد رأيت لي في بيته ملكاً. فقال صموئيل كيف أذهب. إن سمع شاؤل يقتلني. فقال الرب خذ بيدك عجلة من البقر وقل قد جئت لأذبح للرب، وادع يسي إلى الذبيحة وأنا أعلمك ماذا تصنع وامسح لي الذي أقول لك عنه" (سفر صموئيل: ١٦ -١، ٥)، فكان هناك أمر من الله إلى الكاهن الذي يبارك الأنبياء صموئيل، بالكذب على نبي الله شاؤل من أجل التعيين، ومنح البركة لنبي جديد هو داود.

إنها القاعدة الشرعية لمن استسهل الكذب وجعله منهجاً، ورغم كل هذا وذاك إلا أن التاريخ لم يسعفنا بما ينجي التوراة بدعواها، ولم تقدم لنا علوم التاريخ و الآثار ما تفقده الحركة الصهيونية من دليل، بل على العكس من ذلك.. لقد دام عصر القضاة قرابة قرنين من الزمان، ومع ذلك لم يستطع علم الآثار تقديم أي دليل على وجود ثقافة إسرائيلية متميزة، وخصوصاً في المواقع التي كانت مركز الأحداث في سفر القضاة مثل (شليوة) و (بيت أيل) و(جبعة) و (دان)). ولم يكن عصر المماليك (شاؤل، داود، سليمان) أكثر حظاً وأوفر ثقافة وعلماً، بل كان من أشد العصور صراعاً بين الملوك الثلاثة حتى انتهت (الأمارة القبلية) و(المملكة الطارئة) في فلسطين إلى الزوال.

أمام هذه الوقائع التاريخية من مصدر يهودي ومرجع مهم من مراجع الفكر الصهيوني الحديث، الذي يهلل ويزمر لحقيقة الوجود المزعوم لهم في أرض فلسطين، نرى الحقائق والوقائع التاريخية على العكس من ذلك، ففلسطين كانت لأهلها أصحاب الأرض بمختلف ألوانهم العرقية والقبلية واللغوية والتي تشكلت عبر آلاف السنين، وأصبحت عربية ولا تزال.

ألفاظ

بين القداسة والخرافة

يؤكد لنا علم النفس على أن التكرار (تكرار الظاهرة أو تكرار المعلومة) يوجد التوافق للأمور غير المألوفة، بل ويتجاوز حالة التوافق إلى حالة القبول والرضا بما هو غير مألوف وغير مقبول، كقبول الجميل العيش مع القبيح بسبب التكرار والتعايش معه، إلى حد أن يكون القبيح مقبولاً، بل وجميلاً.

ومثل مقاييس الجمال، كذلك مقاييس القيم، فإن تكرار القبح في القيم وتكريسه في الذهن يحدث ما يسمى بعملية غسل قيم لإحلال قيم جديدة عوضاً عنها، والتجربة الإنسانية تمثل رصيداً حياً لمثل هذه التحولات النوعية في منظومة القيم، فكثير من الظواهر الفكرية تمر بها البشرية كموجات تبدأ من تركيز ذهني عالي الفعالية يتبعه تكرار لما تم من تغيير، فيحدث أول ما يحدث القبول المبدئي ثم الرضا، ثم يتحول إلى التزام أخلاقي كونها قيم عصرها التي يجب الدفاع عنها، وهكذا دواليك.

ويعد النص الديني من أهم القوى الفاعلة لتشكيل منظومة القيم وشكل الأخلاق، والعلاقة الإنسانية عبارة عن قوتين تتجاذبان الفعل في حركة الوجود الإنساني، هما قوة الدين وقوة الاقتصاد، والدين هو مجموعة منظومة القيم والأفكار، والاقتصاد هو مجموع القوى الفاعلة من حركة السوق إلى حركة العسكر، وتعتبر الدولة والعسكرة أداة من أدوات تغيير منظومة القيم، ورغم تمظهر قوى جديدة في العصر الحديث على أنها الفاعل في تغيير المفاهيم والمصطلحات مثل حركه الشركات متعددة الجنسيات أو قوة الدولة أو العلمانية الحديثة أو العسكرة بدءاً من قوى الأمن إلى قوى الجيش، يبقى النص الديني هو الفاعل والمحرك لمنظومة القيم، وما نراه هو عبارة عن ظهور تداعيات أثر النص وقوته في تنظيم مجموعة القيم من خلال الدولة أو الاقتصاد أو قوى الأمن أو الجيش.

من بداهة القوانين العلمية أن كل تراكم كمي يؤدي إلى تغيير نوعي، والتراكم هنا هو "تراكم كم من الأفكار" ،أي "هو تكرار كم من الأفكار" ، ومثلما يحدث التراكم فعله كذلك يحدث التكرار فعله. وقوانين المادة وقوانين منظومة الأخلاق يشتركان بقاسم مشترك، هو فاعليه تكرار المعلومة، أي فاعليه تراكم المعلومة (معلومة دينية، معلومة علمانية، مفاهيم صائبة، مفاهيم مغلوطة، معلومة صادقة، معلومة مكذوبة) لكل منها أثر وفاعلية، وعند التكرار مع عامل الزمن يكون هناك تراكم كمي من الفعل الناتج عنها يشكل منظومة أخلاقية جديدة في السلب أو الإيجاب.

يشترك المنهج التربوي الديني في سمة عامة هي سمة التأكيد على المعلومة من خلال التكرار، في الحث والوعظ والترغيب لتحقيق تراكم كمي في منظومة القيم التي تشكل سمة ذلك الدين أو تلك الشريحة الدينية.

وبين أيدينا ثلاث مجموعات من النصوص المقدسة للأديان السماوية الثلاث (الإسلام و المسيحية و اليهودية) ، ومن خلال نصوصها وعّما تبحث عنه وتؤكد عليه، يتضح لنا النسق التربوي لخلق منظومة القيم، والسمة العامة لذلك الدين.

أ - ذكرت كلمة إحسان ومحسن ومشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من (١٨٠) مرة، وفي هذه الوفرة من التكرار للمعلومة والحث عليها، مع تراكم معلوماتي مصدره الوحي، يوجد كيان نفسي عالي الاستعداد للإحسان.

١ - "وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين" (سورة البقرة، آية ١٩٥) ، وهذا منهج تربوي كامل، وقد سبق الاحسان دعوة للإنفاق، باعتبار الإنفاق سبيل من سبل الطاعة ونيل رضا الله، والمثل الأحسن هو الإحسان في الإنفاق.

٢ - "من جاء بالحسنة فله عشرة أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون"(سورة الأنعام، آية ١٦٠). إنه تأكيد على صفقة رحمانية بين الله والعباد بمضاعفة أجور المحسن عشرة أضعاف ما قدم.

٣ - "الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب". (سورة الرعد، آية ٢٩)، تأكيد على أن كل عمل صالح يرجع بالفائدة على الفاعل وهو الإنسان، بأن له حسن المآل وحسن المقام، أمام كل عمل فيه حسنة وفيه خير للإنسان ولعموم البشر.

٤ - "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين" (سورة القصص، آية ٧٧). هنا تأكيد على الإحسان من خلال الحث على طلب العبد الدار الآخرة عن طريق الإحسان، وأفضل سبل الإحسان هي الإنفاق دون أن ينسى الإنسان نصيبه من الدنيا.

تمنحنا صور التعابير والأمثلة المستقاة من القرآن من خلال آلية التراكم الكمي المتنوع في الترغيب والترهيب، منظومة قيم تؤكد على مفاهيمها مع عامل الزمن لتشكل كل آية وكل دعوة قرآنية ظاهرة من ظواهر القيم أصبحت سمة بارزةً من سمات المجتمع الإسلامي.

وذكرنا لخصلة الإحسان لا يعني اقتصار القرآن عليها، وخلوّه من الدعوات الحسنة لمنظومة الأخلاق مثل البر والصدق والوفاء والأمانة وبر الوالدين وعفاف الفرج إلى غير ذلك من محاسن القيم، فهذه المجموعة هي من لوازم الإحسان، فلا يوجد إحسان دون بر بالوالدين، ولا إحسان دون الإنفاق سراً وعلانية لوجه الله. ولا قيمة للإحسان دون صدق، إلى غير ذلك من ارتباط المفاهيم بعضها ببعض لتكون منظومةً واحدةً ودالةً على الظاهرة الإسلامية.

ب - وتشترك المسيحية مع الإسلام في كونها حاملة قيم، وكما يعتبر الإحسان في الإسلام ركناً مهماً في منظومة الأخلاق، فكذلك الإحسان ركن مهم في منظومة الأخلاق في المسيحية، وقد عبرت الأناجيل عن حاجة الفرد والمجتمع إلى هذه الخصلة الطيبة وإلى هذه السمة المتفردة. فلم تتوقف الأناجيل عن تكرار الوعظ والإرشاد، فكانت موعظة الجبل عبر ثلاثة إصحاحات توزعت على (١١٠ أعداد) تأكيداً على المثل والأخلاق بأبسط التعابير وأسهلها وإن لم تشترك الأناجيل لفظاً مع القرآن بكلمة (إحسان)، إلا أن مفردات البر و الحب والدعوة إلى الخير والحث على الإنفاق والأمانة، هي ماهية ومستلزمات الإحسان، و هي السمة العامة لموعظة الجبل الخالدة.

١ - "ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل.. وفتح فاه وعلمهم قائلاً، طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى للحزانى لأنهم يتعزون.. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاشى إلى البر، لأنهم يشبعون، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون، طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله، طوبى لصانعي السلام، طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات" (إنجيل متى:٥ - ١١، ١). مقطوعة شعرية فيها رقة

الكلام، و كل معاني الإحسان ولوازمه، وفيها الإصرار على فعل الإحسان، والثمن جاهز: الجنة لكل فعل طيب، وفي كل مفصل تأكيد على الوعد ، إنه أمر لا ريب ولا شك فيه.

٢ - "أنتم ملح الأرض. ولكن إن فسد الملح فبما ذا يملح، لا يصلح بعد لشيء إلا لأن يطرح خارجاً ويداس من الناس" (متى: ٥-١٤، ١٣). بعد الموعظة والوعد في أول الخطبة يأتي التأكيد كي لا يصاب المرء بالغرور والفساد، فساق لهم مثال الملح إذا فسد، ويقصد بالملح العمل الصالح والعمل المحسن والإيمان بما جاء به.

٣ - "فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم في السماوات" (متي: ٥ -١٦). تأكيد على ضرورة نشر وإظهار الفضيلة و العمل الصالح أمام الناس كي تشيع الحسنات، فبإشاعة الحسنات وتكرارها يتم تركيز عالم الفضيلة.

٤ - "احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم. وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات، فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراءون". (متي:٦-٣، ١). تهذيب النفس البشرية عند التصرف، وتكرار وتراكم عالي الفعالية لمبدأ القيم ومساعدة الآخرين، فهي السمة العامة لموعظة الجبل التي أخذت ثلاثة إصحاحات من إنجيل متي.

الذي نسعى إليه هو توضيح فعالية الإرشاد والوعظ والترغيب والترهيب للحفاظ على منظومة القيم، وهذه الفعالية يخلقها النص، والمقصود بالنص هو كلمات الوحي، أي كلمات القداسة، لأننا نتعامل مع نص مقدس ، نحن أمام لفظ مقدس له أثر بالمؤمنين به سلباً أو إيجاباً، فهل حافظ النص المقدس في العهد القديم على قداسته لفظاً، أم خرج عن المألوف ليقع في تيه الخرافة؟؟ وهل حافظ اللفظ المقدس على منظومة القيم بأمثاله وتوجهاته، أم جنح إلى الخرافة أيضاً؟؟

ومثلما ذكرنا في مقدمتنا، إن منظومة مفاهيم القيم ليست بالضرورة ذات حد واحد أو مفهوم واحد، وإن التماثل والتطابق في موقف الديانتين المسيحية والإسلام من الأخلاق والإحسان لا يعني أن اليهودية تتماثل في أسلوب أفكارها ومنظومة قيمها و منهجها مع ما ذكرنا، إذ أن منظومة المفاهيم عند اليهودية تأخذ منحنىً آخر، وتحاول من خلال تسفيه الأخلاق زرع أخلاق جديدة، ومن خلال إفراغ منظومة القيم من مفاهيمها تحقيق منظومة

تراها هي أنها الأولى والأجدر، والركيزة الأساسية لمجموع القيم في الفكر الديني اليهودي تعتمد على مبدأ الفوضى في المفاهيم والفوضى في المصطلحات.

١ - "وكان إلي كلام الرب قائلاً يا ابن آدم ها أندا آخذ عنك شهوة عينك بضربة، فلا تنح ولا تبك ولا تنزل دموعك. تنهد ساكناً، لا تعمل مناحة على أموات. لف عصابتك عليك واجعل نعليك في رجليك ولا تغطّ شاربيك ولا تأكل من خبز الناس". (حزقيال: ٢٤-١٨، ١٥).

يلاحظ هنا خلط في المفاهيم، فليست دعوة الصبر على كرب يتم، ووفاة شخص عزيز لا تكون إلا بمثل هذه الممارسات، فما علاقة الصبر بالنعال وبتغطية الشارب وعدم أكل خبز الناس؟ هل القيام بمثل هذه الأعمال يتم الصبر على وفاة شخص، فهنا خلط مبالغ فيه في المفاهيم والمصطلحات، بل نرى هناك منحى آخر تصعيدياً في التعاليم لمنظومة القيم.

٢ - "وتأكل كعكاً من الشعير على (الخرء) الذي يخرج من الإنسان تخبزه أمام عيونهم.

فقلت آه يا سيد الرب ها نفسي لم تتنجس ومن صباي إلى الآن لم أكل ميتة أو فريسة ولا دخل فمي لحم نجس، فقال انظر قد جعلت لك غثي البقر بدل (خرء) الإنسان فتصنع خبزك عليه". (سفر حزقيال: ٤- ١٧، ١١). وإذا كان المقصود هو طلب الطاعة، فهل ندرت الأمثال حتى يسوق الرب مثال الخرء، وإن كانت الحكمة من أجل إظهار الفتنة للعائلة العبرية، فهل قصر التعبير عن إيجاد مثل حتى تلجأ الحكمة الربانية إلى مثل هذه الأمثال، أم هو خلط للمفاهيم، بل الأدق هو خروج اللفظ من دائرة القداسة إلى دائرة الخرافة.

بل وحتى عند تحديد العتاب من قبل رب التوراة على ذنب اقترف، أو توجيه اللوم من الوحي على حالة الضياع الروحي، نرى الغلو في تسفيه المفاهيم وفرض مصطلحات بعيدة عن المنطوق الديني، حتى ليبدو النص وكأن المتحدث خارج الدائرة الدينية:

٣ - "وكشفت زناها وكشفت عورتها فجفتها نفسي كما جفت نفسي أختها. وأكثرت زناها بذكرها أيام صباها التي زنت بأرض مصر... وعشقت معشوقيهم الذين لحمهم كلحم الحمير ومنيهم كمني الخيل، وافتقدت رذيلة صباك بزغزغة المصرين ترائبك لأجل ثدي

صباك". (سفر حزقيال: -٢٣ ٢١، ١٩)، وهل التعبير عن المعصية الروحية يشبّه بعشق الشخص لقضيب الحمير فيخرج لنا منيه كمني الخيل، إلا يوجد تمييز بين المفاهيم، إلا يوجد تباين بين المصطلحات، أم أن منظومة القيم لها منحى آخر في اليهودية خارج دائرة القيم الدينية.

وحتى عند الحديث عن المفاهيم الحربية، شحت التعابير عن ذكر اسم مقاتل أو محارب أو حامل سيف، بل تفاجئنا أسفار بني إسرائيل بمصطلح غريب كل الغرابة لتثبت للقارئ مفاهيمها عوض المفاهيم الدينية.

٤ - "ولكن حي هو الرب إله إسرائيل الذي منعني عن أذيتك إنك لو لم تبادري وتأتي لاستقبالي لما أبقي لنابال إلى ضوء الصباح، بائل بحائط"، (صموئيل أول: -٢٥ ٢٤). سؤال بسيط لماذا "بائل بحائط".ويأتي التأكيد الثاني عند الحديث على زمري أحد شخصيات بني إسرائيل في سفر الملوك أول:

٥ - "وعند تملكه وجلوسه على كرسيه ضرب كل بيت بعشا لم يبق له (بائلاً بحائط) مع أوليائه وأصحابه". (سفر الملوك أول: -١٦ ١١).

٦ – وفي سفر ملوك أول يكون التأكيد على هذا اللفظ "لذلك ها أنذا جالب الشر على بيت يربعام وأقطع ليربعام كل بائل بحائط". (الإصحاح ١٤ / ١٠).

٧ – إصرار آخر في سفر ملوك ثانٍ: "فيبيد كل بيت آخاب واستأصل لأخاب كل بائل بحائط". (الإصحاح ٩ – ٩). إن إصرار كاتب التوراة على إبراز هذه الصفة فيه دلالة ورمزية جنسية أكثر مما هي تعبير عن شدة البطش.

ولم تتوقف التوراة ولا أسفار بني إسرائيل عن إصرارها على تكوين مجموعة من منظومة القيم، تخرج اللفظ من القداسة إلى الخرافة، ومن العقلنة إلى الأسطورة، ومن الاعتدال إلى الغلو، ومن الأخلاق إلى سوء الأدب.

ومن غرائب التشريع في حالة وفاة الرجل وترك زوجة له، تنص الشريعة اليهودية على إلزام الأخ بالزواج من زوجة أخيه الميت، وعند الرفض يجيب العهد القديم:

٦ - "وإن لم يرضَ الرجل أن يأخذ امرأة أخيه تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى شيوخ، وتقول قد أبى أن يقيم لأخيه اسماً في إسرائيل. لم يشأ أن يقوم لي بواجب أخي الزوج. فيدعوه

شيوخ مدينته ويتكلمون معه فإن أصر وقال لا أرضى أن أتخذها تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه، وتصرح وتقول هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه فيدعى اسمه في إسرائيل بيت مخلوع النعل". (سفر التثنية -٢٥ ١٠، ٧)، وهنا نرى الغلو عوض الاعتدال في حل ظاهرة أسرية واجتماعية، ويعتبر ما ذكر خروجاً من دائرة القداسة إلى دائرة الخرافة، فما هي علاقة الزواج وعدم التراضي بالنعال والبصق ومسح وجه الرجل والغلو بالكتابة على باب بيته "باب مخلوع النعل".

وتمتزج الأسطورة والخرافة مع الاستهانة بمكانة المرأة في قصة مريم أخت موسى وهارون، إذ اقترفت ذنباً حسب ما تسوق التوراة، فيحل عليها غضب من يهوه، وعندها تحدث محاورة بين الرب وموسى في مرض مريم وشفائها.

٧ - "فحمي الرب عليهما ومضى، فلما ارتفعت السحابة عن الخيمة إذا مريم برصاء كالثلج... فقال هارون لموسى أسألك يا سيدي لا تجعل علينا الخطيئة التي حمقنا وأخطأنا بها... فصرخ موسى إلى الرب قائلاً اللهم أشفها، فقال الرب لموسى ولو بصق أبوها بصقاً في وجهها أما كانت تخجل سبعة أيام. تحجز سبعة أيام خارج المحلة وبعد ذلك ترجع، فحجزت مريم خارج المحلة سبعة أيام ولم يرتحل الشعب حتى رجعت مريم". (سفر العدد: -١٢ ١٦، ٩)، فما هي العلاقة بين شفاء مريض بسبب استجابة دعوة داعٍ وبصق الأب سبع بصقات بوجه ابنته، ولم البصق سبعاً في الوجه، ولم الاستجابة تأتي بعد البصقات التي كان بديلها سبعة أيام حجز، وبعد كل ذلك، لم كل هذا التكرار للعدد "سبعة".. أهي طلاسم أم خرافة اللفظ؟

وتستمر حمى الطلاسم والأسحار لتخرج اللفظ من دائرة القداسة إلى الخرافة.

٨ - "وتصنع جبة الرداء كلها من أسما نجوني، وتكون فتحة رأسها في وسطها، ويكون لفتحتها حاشية حواليها صنعة الحائك، كفتحة الدرع يكون لها، لا تشق، وتصنع على ذيلها رمانات من أسما نجوني وأرجوان وقرمز، على أذيالها حواليها. وجلاجل من ذهب بينها حواليها. جلجل ذهب ورمانة، جلجل ذهب ورمانة على أذيال الجبة حواليها، فتكون على هارون للخدمة ليسمع صوتها عند دخوله إلى القدس أمام الرب وعند خروجه لئلا

يموت". (سفر الخروج: ٢٨- ٣٥، ٣١). لماذا كل هذه الشعوذة؛ أهي عبادة، أم سحر؟ وبعد هذا التكرار والتأكيد يأتي النص المقدس لإعطاء قداسة لظاهرة الملبس:

٩ - "والثياب المقدسة التي لهارون تكون لبنيه بعده ليمسحوا فيها ولتملأ فيها أيديهم. سبعة أيام يلبسها الكاهن الذي هو عوض عنه من بنيه، الذي يدخل خيمة الاجتماع ليخدم في القدس". (سفر الخروج: ٢٩ - ٢٩)، وهل هناك قدسية لملابس بالية تنقل بالوراثة، أم أن منظومة القيم والمفاهيم هنا تختلف.

إن آلية التكرار والتأكيد هي سمة من سمات الفعل بتراكم المعلومة في العهد القديم مثلما لوحظت في النص المقدس في الإسلام والمسيحية. إلا أن الفارق بين قداسة اللفظ في موعظة الجبل وما تم تأكيده في القرآن الكريم على جانب من جوانب الحياة يعطي الفرق والبون الشاسع بين قداسة اللفظ وبين خرافة الكلمة، ما بين المسيحية والإسلام من جانب للحفاظ على مبدأ القيم، وبين اليهودية من جانب آخر لتحول اللفظ إلى خرافة، وقد جمع سفر ملاخي هذا المفصل على لسان الوحي بتشخيص الحالة اليهودية بقوله:

١٠ - "لقد أتعبتم الرب بكلامكم، وقلتم بم أتعبناه. بقولكم كل من يفعل الشر فهو صالح في عيني الرب وهو يسر بهم. أو أين إله العدل". (سفر ملاخي: ٢- ١٧).

تدين الصهيونية اليهودية

من الأمور الشائعة والتي أصبحت مسلمات لدى كثير من معتنقي الكتاب المقدس، والمسلمين أيضاً، أن اليهود شعب اتسم بشدة طاعته، وأنه شعب شديد التقوى، وقوي الالتزام دينياً، حتى بدا الرهبان والقساوسة وكأنهم أقل شأناً في منظومة قيم العبادة والصلاح، من اليهود العاديين، فأصبح التشبه باليهود دالة على التقوى، وأصبح الدفاع عن تقوى اليهود باباً من أبواب التقوى.

ولأجل فهم الظاهرة اليهودية تحت ظلال هذا الموضوع يجب الأخذ بعين الاعتبار جانبين من جوانب المنهج التربوي في هذا السياق.

أولهما أن الشخص اليهودي يرى نفسه لصيق إلهه يهوه:

جاء في سفر أرميا (الإصحاح ٢٤: ٧، ٦): "وأجعل عيني عليهم وأرجعهم إلى هذه الأرض، وأبنيهم ولا أهدمهم، وأغرسهم ولا أقلعهم، وأعطيهم قبلاً ليعرفوني أني أنا يهوه فيكونون لي شعباً" وكذلك في سفر زكريا (الإصحاح ٨: ٨، ٧): "ها أنذا أخلص شعبي من أرض المشرق ومن أرض مغرب الشمس، وآتي بهم، فيسكنون في وسط أورشليم ويكونون لي شعباً. وأنا أكون لهم إلهاً"، ما يؤكد أن الحظوة المبالغ فيها من قبل إله إسرائيل يهوه، فيما ذكر أعلاه وغيره من النصوص، كانت ولا تزال تدفع بقوة إلى حالة من التعالي، وكل تصور ذهني ونفسي وسلوكي لشخص بأنه هو الأفضل والأحسن والأمثل والأكثر كمالاً، بل هو الكمال كله، دالة على الهلوسة في القداسة، وهذه الهلوسة في القداسة هي أول باب من أبواب النخر الأخلاقي.

ويستمر التصعيد في القداسة للفرد اليهودي، بأن يحل الله فيه عبر التاريخ البشري بغض النظر عن ماهية ذلك اليهودي عبر الزمان والمكان. يذكر لنا سفر إشعيا (الإصحاح ٤٤ – ٣): "أسكب روحي على نسلك وبركتي على ذريتك"، وهذا يولد في التكوين النفسي

لليهودي الإحساس بالإطلاق، الإطلاق في ذهنيته، مما يجيز له الإطلاق في السلوك كمرادف للإحساس، دون النظر إلى هذه الممارسة كونها فحشاً أو قلة تقوى.

والأمر الثاني: ونتيجة لهذه النزعة العليه المتعالية بالقداسة، توجد نصوص تخدم هذه العبثية. والذي يسبر غور العهد القديم يرى صورة مغايرة لمنظومة القيم الروحية، حيث العبثية والتأكيد على العالم الحاضر؛ فهو البداية وهو النهاية.

فسفر الجامعة (الإصحاح الثالث: ٢٣، ١٩) يذكر لنا: "لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك ونسمة واحدة للكل فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطلان. يذهب كلاهما إلى مكان واحد. من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق وروح البهيمة هل تنزل إلى أسفل إلى الأرض، فرأيت أنه لا شيء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله لأن ذلك نصيبه، لأنه من يأتي ليرى ما سيكون بعده؟". وفي الإصحاح التاسع (٩، ٧): "ألتذ عيشاً مع المرأة التي أحببتها، كل أيام حياة باطلك التي أعطاك إياها تحت الشمس كل أيام باطلك لأن ذلك نصيبك في الحياة وفي تعبك الذي تعبته تحت الشمس، كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها".

نصوص عبثية ودعوة إلى اليأس من مبدأ العقاب والثواب، وهذا التوجه يعد أهم معول من معاول هدم منظومة القيم والضوابط الأخلاقية للأديان.

إذ تسعى الأديان السماوية خصوصاً، إلى ربط المريد وشده إلى العالم الآخر، لما لهذا العالم من أثر وفاعليه لسعي المؤمنين للكمال، فالعالم الآخر بالنسبة للمتدينين هو المعبر لعالم الخلد، حيث مزيد من الكمال، لذا ارتبطت قيم اليوم بكمال الغد، وخلو أي دين من تعميق مفاهيم اليوم الآخر، يتبعه خلوه كذلك من عمق للمفاهيم في عالمنا الحاضر.

ومن هذا المدخل نلج مع سيرة المثل والنموذج للشخصية اليهودية المتمثلة بالنبي داود: إذ يصف لنا سفر صموئيل ثانٍ (الإصحاح ١٢ – ٢٣، ١٩): "فقال له عبيده ما هذا الأمر الذي فعلت. لما كان الولد حياً صمت وبكيت، ولما مات الولد قمت وأكلت خبزاً. فقال لما كان الولد حياً صمت وبكيت لأني قلت من يعلم ربما يرحمني الرب ويحيا الولد. والآن قد مات فلماذا أصوم هل أقدر أن أرده بعد؟ أنا ذاهب إليه وأما هو فلا يرجع إلي".

حالة اليأس من دوام العبادة و عدم الاتكال على دوام الطلب من الله، وبين يأس إلى فوضى في المقاييس الأخلاقية يذكر لنا صموئيل في الإصحاح (١ - ٢٧، ١٩) رثاء داود على موت صديقه يونثان: "قد تضايقت عليك يا أخي يونثان، كنت حلواً لي جداً، محبتك لي أعجب من محبة النساء".

ويقدم لنا جان بوتير قراءة ثانية للنص من خلال الترجمة الفرنسية في كتابه "ولادة إله.. التوراة والمؤرخ"، (ص ٤٨):

"يونثان مجدّل على روابيك، قد ضاق ذرعي عليك يا أخي يونثان، لقد كنت شهياً إلي جداً، وكان حبك عندي أولى من حب النساء". (صموئيل ثانٍ: ١ - ١٩، ٢٧).

وتفسير النصين مع وحدة المصدر (كونه العهد القديم)، أن داود النبي كان مصاباً بالشذوذ الجنسي، و يتضح هذا التفسير من خلال ما يجري داخل الكيان الصهيوني كظواهر لأثر النص وتفسيره، ولم يخلُ التاريخ الديني للظاهرة اليهودية من وجود مثل هذه العملية، إذ ذكرها لنا العهد القديم في مواقع أخر، وفيها دالة على انتشار الفعل إن لم يكن دالة على تأصل الحالة.

تكشف لنا سيرة رحبعام بن سليمان الذي حكم سبع عشر سنة وهو ابن نبي، عن الضعف الديني في مواجه الشذوذ الجنسي، إذ تذكر هذه الحالة ضمن سياق وكأن الأمر مسلم به بوجود الشذوذ الجنسي داخل المنظومة الاجتماعية اليهودية عند التأسيس، ففي سفر الملوك أول (الإصحاح ١٤ - ٢٤، ٢١): "وعمل يهوذا الشر في عيني الرب وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التي أخطأوا بها وبنوا هم أيضاً لأنفسهم مرتفعات وأنصاباً وسواري على كل تل مرتفع وتحت كل شجرة خضراء، وكان أيضاً مأبونون في الأرض فعلوا حسب كل أرجاس الأمم". على الرغم من كون الحدث داخل الكيان اليهودي، إلا أن العبارة معومة وليست محددة باليهود. ويصف أن ملوك ثانٍ: (الإصحاح: ٢٣ - ٩، ٧) إحدى حركات الإصلاح: "وأخرج السارية من بيت الرب خارج أورشليم إلى وادي قدرون وأحرقها في وادي قدرون... وهدم بيوت المأبونين التي عند بيت الرب حيث كانت النساء ينسجن بيوتاً للسارية". أي تأكيد على وجود مثل هذه المجموعة داخل بيت الرب أي (معبد سليمان) دليل على انتشار الظاهرة، وقوة الاستخفاف لدى اليهود الأوائل بكل الضوابط.

ولم يتوقف الأمر على المأبونين، كظاهرة داخل الكيان اليهودي، بل كان بني بليعال يمارسون الشذوذ الجنسي، حيث ذكرت قباحتهم في سفر القضاة (الإصحاح ١٩ - ٣٠، ٢٣): "وكلموا الرجل صاحب البيت الشيخ قائلين أخرج الرجل الذي دخل بيتك فنعرفه. فخرج إليهم الرجل صاحب البيت وقال لهم لا يا إخوتي لا تفعلوا شراً، بعدما دخل هذا الرجل بيتي لا تفعلوا هذه القباحة".

وليس من باب العنصرية، بل من باب أثر النص على المريدين، نشير إلى أن أول جماعة عالمية للشواذ جنسياً من الذكور تشكلت من قبل (ماجنوس هيرشفليد، -١٨٦٨ ١٩٣٥) ومساعده (كورت هيلر ١٨٨٥ – ١٩٧٢)، وكلاهما كان يهودياً ألمانياً. وتبلغ نسبة الشواذ جنسياً بين الرجال ١٠٪ داخل الكيان الإسرائيلي. وفي عام ١٩٨٨ أصدر الكنيست الإسرائيلي قانوناً بإلغاء القانون الذي يجرم العلاقات الجنسية الشاذة. ويوجد في إسرائيل جماعة تسمى جماعة الدفاع عن الحقوق الشخصية أسست عام ١٩٧٥، وفي عام ١٩٨٨ ظهرت مجلات الشذوذ الجنسي في إسرائيل. وفي ١٩٩١ عقد في تل أبيب المؤتمر الدولي الثالث للشواذ جنسياً من الذكور والإناث والمخنثين).

جاء في سفر صموئيل (١:١٩ - ٢٤، ٢٣) عن شاؤل: "أين صموئيل وداود فقيل ها هما في نا يوت في الرامة، فذهب إلى هناك إلى نا يوت الرامة فكان عليه أيضاً روح الله فكان يذهب ويتنبأ إلى نايوت الرامة فخلع هو أيضاً ثيابه وتنبأ هو أيضاً أمام صموئيل وتنبأ هو أيضاً أمام صموئيل وانطرح عرياناً ذلك النهار كله وكل الليل لذلك يقولون شاؤل أيضاً بين الأنبياء". لا يوجد اعتراض على الكيف بحدوث الوحي والتنبؤ، إلا أن ظاهرة التعري عند حدوث الوحي هي همس جنسي، وإشارة إلى إمكانية القيام بصلوات روحية من خلال التعري، وهو إقرار لضرب من ضروب الخلاعة و الفعل الماجن.

ثم يكون هناك تأكيد على التعري في سفر إشعيا (٢٠ - ٣): "تكلم الرب عن يد إشعيا بن آموص قائلاً: اذهب وحل المسح عن حقويك واخلع حذائك عن رجليك، ففعل هكذا ومشى معرى وحافياً".

والسلوك التلمودي هو نتاج المزاج العام للعهد القديم الذي يغلب عليه الأثر الجنسي، ومن وصايا الحاخام (لوب ميلاميد)، أن يفكر الإنسان في امرأة عارية في أثناء الصلاة حتى يصل إلى درجات السمو.

ليس من حقنا رسم قيم لدين ما، أو فرض مقاييس معينة يتم بموجبها تحديد المسار الأخلاقي للديانة اليهودية، لذلك حددت اليهودية مقياس التدين في حدثين منفصلين يشتركان في الصفة وطبيعة الممارسة.

١ - يروي لنا سفر العدد (الإصحاح ٢٥ - ٢٥، ١)، كيف حدث الغضب الإسرائيلي لقيام شخص بعملية اقتران مع الزانية المديانية، انتهت بقتله مع المديانية، كون هذا الاقتران تسبب في خروج الإسرائيلي عن يهوديته.

٢ - وفي الحدث على الجانب الآخر، نرى في سفر يشوع (الإصحاح ٢ - ٧، ١)، الرضا الإلهي عن النبي يشوع، لأنه تزوج من الزانية، التي قدمت خدمة لليهودي وحمت الكيان اليهودي. الحدثان محصلتهما واحدة، ففي الأول إنسان عادي يقترن بزانية ينتج عنه القتل لكليهما، أما الحدث الثاني فكان أمراً ربانياً بوجوب الزواج من الزانية، لأن الرب كان راضياً عنها رغم زناها، لأنها قدمت خدمتها لإسرائيل. إذن المقياس الأخلاقي هو الولاء للتكوين اليهودي، أكثر من المقاييس الدينية المألوفة والمتعارف عليها مثلاً:

أ - "كان يفتاح الجلعاتي جباراً وهو ابن زانية". (سفر القضاة الإصحاح: ١١ - ١).

ب - "ثم ذهب شمشون إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخل عليها". (سفر القضاة:١٦-١).

ج - "حينئذ أتت امرأتان زانيتان إلى الملك ووقفتا بين يديه". (الملوك أول: ٣ - ١٦). وهذا مما يدلل على هوان مثل هذا الأمر، وانتفاء الرادع الشرعي والأخلاقي.

د - وفي نصيحة العمة لراعوث حيث طلبت منها أن تغتسل وتتطيب وتدهن جسدها ثم تمتد بين رجلي بوعز ليقدم لها معروفاً، فاستجابت وعملت بنصيحة عمتها، ودخلت كما جاء في سفر راعوث (الإصحاح ٣ -، ١٠): "ومتى اضطجع ادخلي واكشفي ناحية رجليه واضطجعي، وهو يخبرك بما تعملين.. فدخلت سراً وكشفت ناحية رجليه واضطجعت، وكان عند انتصاف الليل أن الرجل اضطرب والتفت وإذا امرأة مضطجعة عند رجليه، فقال من أنت، قالت أنا راعوث فابسط ذيل ثوبك على أمتك لأنك ولي".

ويبقى النص هو سيد الأخلاق للظواهر الدينية، وإسرائيل هي بنت الظاهرة الدينية، ويبقى المريد أسير النص بحكم المرجعية والتبعية له، والصهيونية هي المريد المطيع للنص.

و تكشف الدراسة التي أعدها (بوعز أيل باوم) وأصدرها في كتاب يحمل عنوان "دليل حكماء رؤساء إسرائيل"، عن تفاصيل غريبة حيناً ومهمة دائماً لفهم الجانب الشخصي لعشرة رؤساء وزراء لإسرائيل، والنموذج المعتمد في دراستنا سيكون غولدا مائير، أحد أهم رؤساء وزراء إسرائيل.

يكشف المؤلف أن غولدا مائير، كان لها عشاق أطلق عليهم حينئذ أصدقاء، وكانت تحب الرجال قصار القامة، وكانت لها غراميات مع الرئيس الثالث لإسرائيل وكان متزوجاً، ومع أول وزير للمواصلات (ديفيد ريميز) وكان متزوجاً أيضاً، وكانت على علاقة بالمليونير الأميركي لوبويار، ويضيف المؤلف قائلاً إنه على الرغم من أن غولدا كانت تتصف بالبلاهة في بعض الأحيان، وتخلط بين ما هو مسموح وما هو ممنوع، غير أنها تظل واحدة من ثلاثة رؤساء وزراء تمتعوا بالكاريزما (الآخران هما بن غوريون وبيغين)، وخطبها السياسية كانت تجذب المستمعين، ومعظمها كانت خطباً عدوانية شرسة، وقد وصفها بن غوريون بأنها الرجل الوحيد في الحكومة الإسرائيلية.

ومن الأمثلة الحية لاستغلال المرأة جنسياً ولحسابات سياسية، قصة العصر الحديث بما يعرف بفضيحة مونيكا لوينسكي مع الرئيس بيل كلينتون، غير العفوية، فقد كشف برنامج تحت الضوء الذي تبثه (قناة ٦) الأمريكية أن مونيكا دخلت البيت الأبيض، و هي مسنودة من جهات عليا، وأنها في الأساس لم تكن تمتلك أي كفاءة لتتمرن في مؤسسة رسمية بهذا الحجم، وكشف البرنامج شيئاً مهماً أيضاً، وهو أن مونيكا اليهودية من أصل بولوني، وأن والدتها وخالها كانا من مؤيدي جماعة يهودية دينية متطرفة، والتي ينتمي إلى عضويتها بعض الشخصيات من صقور البيت الأبيض.

ومعروف طبعاً أن مونيكا اليهودية لها صلات قربى في إسرائيل، وقالت في شهادتها التي أدلت بها في برنامج (لاري كينغ لايف): "لا أشعر بالخجل من نفسي، لقد استغلوني لأسباب سياسية، حيث وصلت المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية في ميريلاند، بمكسب عربي فلسطيني، في حال إتمامها، عندها كانت الضغوط وكانت الفضيحة ولم يكن أمام كلينتون من خيار غير الاستجابة للضغوط، لأن فضيحته كانت تتفاعل بكونه حدثاً عالمياً، عمل أصدقاء إسرائيل لجعله فخاً محكماً وقع فيه صاحب القرار الأول، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، ولا يجب أن يفلت منه، إلا إذا أغلق ملف السلام الإسرائيلي العربي، وخاصة الفلسطيني بما

يبرئ ساحة إسرائيل ويحمل الفلسطينيون المسؤولية عن الفشل".

واهم من يعتقد أن التزمت الصهيوني تدين.

واهم من يبرر تطرف الحركات الأصولية داخل إسرائيل بأنه تدين.

واهم من يذهب إلى اعتبار الغلو في السلوك والأخلاق تدين.

واهم من يرى أن التعصب الديني تدين.

كل هذا وغيره مرجعيته النص المؤسس للكيان الصهيوني.

علمانية تاريخ فلسطين..
ضرورة تاريخية

على الرغم من كون النص اليهودي، يهودي الكتابة، يهودي الفكر والنشأة، إلا أنه يتمتع بسمة الأثر الفلسطيني إلى حد القول إن ما في داخل الوثيقة اليهودية ليس بأثر بقدر ما فيه من تنوع الكيانات الفلسطينية داخل الوثيقة التاريخية اليهودية والتي تعرف بوثيقة "العهد القديم".

وكانت مساعي التاريخ اللاهوتي، ولا تزال، هي طمس حالة التماهي للشخصية الفلسطينية في التاريخ العبري والسعي المحموم لإصباغ حالة التجانس للتاريخ القديم، واعتبار التاريخ الفلسطيني تاريخاً يهودي التكوين والنشأة والمسار، وكأن الأرض هي أرض بلا شعب، برزت للتاريخ مع الظاهرة العبرية المؤقتة. ويتجاذب القضية الفلسطينية نصان:

أ- نص عربي إسلامي، يتعايش مع الآخر مع سقف عالٍ من التسامح بأن يكون الانفتاح سمةمن سمات التكوين الفردي والاجتماعي.

ب - نص يهودي، يدعو لاستئصال الآخر ليحل محله، وهذا الإحلال إحلال سكاني مبني على إحلال تاريخي، مع تضييق سقف التسامح إلى حد الانغلاق.

إلا أن القاسم المشترك بين النصين هو القداسة، هو العامل الديني، وعلى الرغم من التباين بين هذين النصين من حيث منظومة القيم، ودقة المعلومة التاريخية، إلا أن المقارنة بينهما تعود إلى خلفية واحدة، كونهما نصوصاً دينية، أي أن لكل منهما معلومة تاريخية ذات صفه دينية.

ولم يبذل أصحاب الأرض جهداً ببيان طبيعة الصراع، وأكثر ما ذهبوا إليه أن الصراع بُدء بمؤتمر بازل سنة ١٨٩٧ م، بتأسيس المنظمة الصهيونية العالمية، وصدور قرار تشجيع الاستيطان الصهيوني في فلسطين، ولم يَعِ النضال العربي الأحقية التاريخية للأرض والتاريخ

إلا متأخراً، وأكثر ما طرح من عمق تاريخي للقضية الفلسطينية هو العمق الإسلامي، وعلى الرغم من دقة المعلومة التاريخية للفترة الإسلامية حيث التوثيق أدق، إلا أن هذا الخيار ينقصه البعد التاريخي الأكثر غولاً في التاريخ، كما أن عليه تحفظات مشروعة من قبل العقلية الأكاديمية والعلمية كونه تاريخاً يقع تحت دائرة القداسة.

وبالمقابل، كان هناك سعي محموم من قبل الدوائر الدينية الصهيونية، لإثبات صحة تاريخ و جغرافية الكتاب المقدس، وبدأت جهودها في هذا المضمار قبل ظهور الحركة الصهيونية كتكوين سياسي، وهذا ما نلمسه وبشكل واضح في البيان التأسيسي لصندوق التنقيب في فلسطين، الذي تأسس سنة ١٨٦٥م، كأول هيئة أوروبية من نوعها للقيام بنشاطات تنقيب آثاري، فقد ورد في بيان الهيئة المذكورة أن الهدف الرئيسي لها: التحري الدقيق والمنهجي لآثار وطبوغرافية وجيولوجيا وعادات الأرض المقدسة، وتوضيح مسائل الكتاب المقدس.

وبذلك وُلد علم الآثار في فلسطين كعلم آثار توراتي.

إن الخروج من تأويلات النص المقدس وهيمنة السيرة الكتابية على البحوث الآثارية لجغرافية فلسطين وتاريخ فلسطين، لا يمكن تحقيقها إلا بكتابة تاريخ فلسطين خارج هيمنة المؤسسات الكتابية المحكومة بفعل سياسي مسبق، والملزمة برؤى تاريخية كتابية مسبقة للحدث التاريخي الفلسطيني، واعتباره حدثاً توراتياً، إلى حد الغلو في تصوير الأحداث ومجرياتها، فمتابعة صبي يرعى قطيعه غدا شاؤل، أول ملوك إسرائيل، وأصبحت أي فتاة تقف عند نبع هي سارة أم العرق المختار، مع الإصرار على تجاهل أبناء البلد وبيئتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية.

وتوالت صور التنبؤات لأنبياء العهد القديم، كحزقيال وأرميا وأشعيا، وما وعدوا به من دمار وخراب في الأرض المقدسة، وغدوا السبب الكامن وراء الخراب، وتم إسقاط العوامل البيئية والجغرافية عبر التاريخ السحيق للمنطقة، فكان كل تحول زراعي يوعز إلى رؤيا كتابية، وكل جفاف إلى تفسير كتابي، وكل تطور في المنطقة إلى ظاهرة توراتية، ولم يعد علم الآثار علماً محايداً يخدم المعلومة العلمية المجردة.

وأصبح علم الآثار الكتابي علماً ذا خلفية دينية صرف مع بعد سياسي، يسعى جاهداً لسرقة الماضي وتوظيف الحاضر، لأغراض الحركة الصهيونية المسيحية.

وأصبحت المسميات الأكاديمية الكتابية محرمات لا يمكن تجاوزها، ومع مرور الوقت وتراكم التأكيد على المعلومة الكتابية تحولت المعلومة من معلومة علمية مجردة إلى "جيتو" أكاديمي، لا يمكن تجاوزه، وكأن تاريخ فلسطين لا يتجاوز إلا قروناً محدودة، تبدأ بالخروج وتمر بالتيه والقضاة وتنتهي بعصر الملوك.. معلومات توراتية تحولت إلى مسلمات أكاديمية وإن خالفت علم الآثار.

إن المسميات العلمية المجردة، مثل جغرافية فلسطين وتاريخ فلسطين، مسميات وتوصيفات لاختصاصات لا يمكن لها أن ترى النور المعرفي و الأكاديمي دون التأكيد على علمانية تاريخ فلسطين.

إن التأكيد على علمانية تاريخ فلسطين هو الأسلوب الأمثل للخروج من "الجيتو" الأكاديمي الموهوم، وكذلك هو المخرج لتحرير تاريخ فلسطين من أسر النص المقدس.

إن سرقة ماضي هذه الأمة هو جزء من سرقة حاضرها.

ومن خيارات النضال العربي الحق التاريخي لنا كأمة وكوجود في هذه الأرض قبل آلاف السنين، مع جل الحق للتاريخ العربي المسيحي والعربي الإسلامي في هذه الأرض.

إنها دعوة حق؛ لا تسرقوا تاريخنا، ونحن أحقّ به.

لا أميل إلى نظرية المؤامرة...
إلا أنها مؤامرة

إن للتوراة وأسفار أنبياء بني إسرائيل في ما يعرف بالعهد القديم، اهتمامات عدة، ولسنا هنا بصدد تصويب أو رفض أفكار حملها العهد القديم، بقدر ما شغلنا شدة اهتمام العهد القديم بالعراق، واعتبار نظرية استئصال العراق جزءاً من العقيدة اليهودية. والدالة العملية على العراق في العهد القديم هي بابل.

فبابل نالت حظوة الله، فكان اسمها بإرادة الرب، وإذا تجنبنا الشطط كان اسم بابل فعلاً من أفعال الرب نالت به بابل تسميتها، يقول لنا سفر التكوين (الإصحاح ١١١-٩): "وكانت الأرض كلها لساناً واحد ولغة واحدة... وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل، ولأن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوا هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض...لذلك دعي اسمها بابل. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض".

ورغم هذه الحظوة الإلهية لما فيها من دلالات تاريخية كون بابل هي أول المدن، وهي أول الحضارات، وهي أول مجتمع إنساني واحد ذو لسان واحد (حسب دلالات النص)، إلا أنها لم تنل الرضا اليهودي، إذ لم تحظ مدينة من المدن مثل ما حظيت به بابل من لعنات ودعوات عليها بالويل والثبور، ولم تحظ مدينة من تعليمات بالفناء والإلغاء في التوراة مثل بابل، ولم تتوقف هذه السلسلة إلا بإلغاء بابل من الوجود الجغرافي والإنساني والتاريخي، مع الإصرار على أن هذه العملية تأخذ صفة الدوام بقول التوراة على الدوام "دور فدور وإلى الأبد".

إن من أرق صفحات الأديان هي صفحة العبودية، ووجهها الممثل لها عبر التاريخ الإنساني منذ أن عرفت العبودية هي الدعاء. والدعاء هو رق للقلب وزيادة في الوجد وشدة في الشوق وحب للذات الإلهية ليسع ويشمل الإنسانية والوجود في سعة حبه، فلا شيء بين العبد ومعبوده إلا رقة المناجاة، فيكف يدعو اليهودي ربه؟ تذكر لنا تسبيحة المزمور (الإصحاح ٨٣):

"اللهم لا تصمت لا تسكت ولا تهدأ يا الله ...لأنهم تآمروا بالقلب معاً. عليك تعاهدوا عهداً. خيام آدوم والإسماعيليين مؤاب والهاجريون. جبال عمون وعماليق فلسطين مع سكان صور. آشور أيضاً اتفقت معهم. صاروا ذراعاً لبني لوط".

ذكرت التوراة كل القبائل العربية مع ذكر آشور، وفي ذلك دلالة على الكراهية العامة للشعوب، ثم تستمر المناجاة..."يا إلهي اجعلهم مثل الجل مثل القش أمام الريح، كنار تحرق الوعز كلهيب يشعل الجبال، هكذا اطردهم بعاصفتك وبزوبعتك روعهم أملأ وجوههم خزياً....")مزامير داود، الإصحاح ٨٣ ١-١٥).

ثم يسترسل بالدعاء إلى حد القتل: "يا بنت بابل المخرَّبة، طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا، طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة" (مزمور ١٣٧ - ٧-٩).

طبعا ضربُ شخص بحجر أمر هين، إذ ثمة احتمالات الإصابة والخطأ والشدة والخفة، إنما ضرب جسم طفل بحجر فهذه الزيادة في الإيلام عنف مبالغ فيه لإضمار الحقد اليهودي بحق أطفال بابل، ثم أسبغ على هذا الأمر بمسحة دينية بأن له الجنة، فاليهودية هو الدين الوحيد الذي يمنح الجنة لقاء قتل طفل. وأمام هذه الدعوات في سفر المزامير يستجيب رب التوراة في سفر أشعيا بحق إحدى مدن العراق وهي البصرة... "يوم انتقام سنة جزاء من اجل دعوى صهيون" (سفر أشعيا: الإصحاح ٣٤-٨).

وهذه الاستجابة لدعوى صهيون كيف يفصلها سفر أشعيا.. "لأن للرب ذبيحة في بصرة، وذبحاً عظيماً في أرض أدوم، ويسقط البقر الوحشي معها، و العجل مع الثيران، وتروى أرضهم من الدم، وترابهم من الشحم يسمن".

وبعد هذه الذبيحة ماذا تكون مدن العراق وأنهار العراق... "وتتحول أنهارها زفتاً، وترابها كبريتاً، وتصير أرضها زفتاً مشتعلاً، ليلاً ونهاراً لا تنطفئ إلى الأبد من دور إلى دور تخرب إلى أبد الآبدين.... ويرثها القوق والقنفذ و الكركي والغراب يسكنان ويمد عليها خيط الخراب ومطمار الخلاء".

وبعد هذا التفصيل المخيف بحق مدن العراق يختتم الإصحاح ٣٤ من سفر أشعيا، بمسلمة مفادها أن هذا الأمر هو حتمية إلهية، ومن ضمن التقدير الإلهي، لا راد له، وهو يعبر عن جبرية قسرية قاتلة تبرز العقل اليهودي وتمنحه شرعية فعله. يقول سفر أشعيا (الإصحاح ٣٤): "فتشوا في سفر الرب واقرءوا واحدة من هذه لا تفقد لا يغادر شيء صاحبه لأن فمه هو قد أمر وروحه هو جمعها" (أشعيا، الإصحاح ٣٤ - ١-١٧).

ويستمر الخطاب: "انزلي واجلسي على التراب أيتها العذراء ابنة بابل، اجلسي على الأرض بلا كرسي يا ابنة كلدان لأنك لا تعودين ناعمة مترفة".

لماذا مثل هذا التحذير لبابل؟ والجواب: "فادينا رب الجنود اسمه قدوس إسرائيل".

من أجل أي نتيجة: "اجلسي صامتة وادخلي في الظلام يا ابنة كلدان" (أشعيا الإصحاح: ٤٧ ١-١٥)، ويزيد أشعيا لتثبيت هذه الحقيقة مستعملاً وطالباً من الناس استعمال كل ممكن: "اخرجوا من بابل، اهربوا من أرض الكلدانيين، بصوت الترنم أخبروا ونادوا بهذا.. شيعوه إلى أقصى الأرض.. قولوا قد فدى الرب عبده يعقوب" (سفر أشعيا: الإصحاح ٤٨).

إنه تركيز وتأكيد على مبدأ إلغاء بابل وإلغاء شعب بابل، آشور وكلدان، وعلى الناس أن يشيعوا ذلك ويرددوا ذلك بترنم، أي أنها جزء من الصلاة، من الدعاء، من العبادة، ومن ترنيمة اسمها إلغاء بابل وأرض بابل وما في بابل، ومن نحن!! نحن أبناء بابل أبناء كلدان وآشور.

وفي الوقت الذي يسعى يهود العصر الحديث الآخرين إلى إلغاء العراق الحديث، نرى أن هذا السلوك هو جزء من فعل توراتي وممارسة قديمة تدعو إليها التوراة... "ها أنذا ذا أهيج عليهم المادِيين".. صفات هؤلاء القوم... "لا يرحمون ثمرة البطن (وفيه إشارة لجواز قتل الحامل)، لا تشفق عيونهم على الأولاد (وفيه إقرار بجواز انتهاك حرمة الطفولة)"، ومن ثم: "تصير بابل بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانيين كتقليب الله سدوم وعمور، لا تعمر إلى الأبد ولا تسكن إلى دور فدور، ولا يخيم هناك أعرابي، ولا يربض هناك رعاة.... بل تربض هناك وحوش القفر ويملأ البوم بيوتهم، وتسكن هناك بنات النعام. وترقص هناك معز الوحش". (سفر أشعيا: ١٣ ١-١٧). والذي يلاحظ أن اهناك إصراراً توراتياً على أن لا تسكن بابل إلى أبد الآبدين، أي أن الرواية ماضٍ مستمر للمستقبل.

ويعرض لنا سفر أرميا النبي تأملات وتصورات الموقف اليهودي من بابل. يقول أرميا في الإصحاح ٥٠: "الكلمة التي تكلم بها الرب عن بابل وعن أرض الكلدانيين على يد أرميا النبي ... أخبروا في الشعوب واسمعوا وارفعوا راية لا تخفوا. قولوا أخذت بابل"، أي المنهج نفسه الذي اتبعه أشعيا بالتأكيد على أن إلغاء بابل هو جزء من واجب ديني، لأن المتكلم هنا هو الرب، وناقل الكلام هو نبي الله أرميا، بحق من؟ بحق بابل والكلدانيين وآشور. إقرار ديني

ثم يتبعه استمرار في النهج الإعلامي للإعلان بين الناس أن بابل أخذت، في الوقت الذي كانت بابل موجودة. إن دعوة أرميا هي للإلغاء، وكلامه ليس يحصل حاصل لما حدث.

يقول أرميا في الإصحاح ٥٠: "بسبب سخط الرب لا تسكن، بل تصير خربة بالتمام كل مار ببابل يتعجب ويصفر بسبب كل ضرباتها. اصطفوا على بابل لا توفروا السهام لأنها قد أخطأت إلى الرب. اهتفوا عليها حواليها، قد أعطت يدها، سقطت أسنتها، نقضت أسوارها، لأنها نقمة الرب هي. فانقموا منها كما فعلت افعلوا بها... اقطعوا الزارع من بابل وماسك المنجل... يقول السيد رب الجنود لأنه قد أتى يومك حين عقابي إياك، رب الجنود اسمه يقيم دعواهم لكي يريح الأرض ويزعج سكان بابل، سيف على الكلدانيين يقول الرب وعلى سكان بابل على رؤسائها، سيف على المخادعين فيصيرون حمقى.. سيف على أبطالها فيرتعبون... سيف على خيلها وعلى مركباتها... سيف على خزائنها فتنهب... حرٌّ على مياها فتنشف... لذلك تسكن وحوش القفر مع بنات آوى وتسكن فيها رعال النعام ولا تسكن بعد إلى الأبد ولا تعمر إلى دور فدور" (سفر أرميا: الإصحاح ٥٠ ١-٤٢).

إن هذا السخط الإلهي التوراتي يأخذ صفة التعليمات للإلغاء، ويستمر في التصعيد إلى حد تجفيف المياه، لتحل الطيور الجارحة عوض الإنسان، فهي نزعة ثأرية ذات قيمة دينية، لأن المتحدث هو الرب، والفاعل هو الرب، والمنفذ هو الرب، استجابة لدعوى صهيون ليتحقق مفهوم يهودي موازٍ لوعد التوراة بأرض فلسطين، وهو مفهوم إلغاء بابل. مفهومان متلازمان، فمن أجل أن يستقر الوجود اليهودي في فلسطين عليه إلغاء الوجود البابلي. وعندما تكون أفكار الرب تخريباً، ومقاصد رب الجنود تهييج الآخرين لإلغاء شعب والانتقام من بابل، فكيف سيكون اليهودي المؤمن بتوراته عندما يقرأ مقاصد التوراة في ذلك الأمر؟

يقول أرميا النبي: "لأن أفكار الرب تقوم على بابل لتجعل أرض بابل خراباً بلا سكن" (أرميا: الإصحاح ٥١ – ٣٠).

ويقول: "ظلمي ولحمي على بابل تقول ساكنة صهيون ودمي على سكان أرض الكلدانيين تقول أورشليم" (أرميا: الإصحاح ٥١ - ٣٥).

ويقول: "لذلك هكذا قال الرب وتكون بابل كوماً ومأوى بنات آوى ودهشاً وصفيراً بلا سكن".

هذه هي النتيجة المؤلمة من أفكار الرب ومن دعوى ساكنة صهيون؛ خرابٌ يعقبه خرابٌ لبابل من دور إلى دور. الحتمية الجبرية لإلغاء العراق وفق المفهوم اليهودي.

"فلو صعدت بابل إلى السماوات ولو حصنت علياء عزها فمن عندي يأتي عليها الناهبون يقول الرب" (سفر أرميا: الإصحاح ٥١-٥٣).

"يقول رب الجنود اسمه... هكذا قال رب الجنود أن أسوار بابل العريضة تدمر، وأبوابها الشامخة تحرق بالنار فتتعب الشعوب للباطل والقبائل للنار حتى تعيا" (سفر أرميا: الإصحاح ٥١-٥٨).

توجيهات أرميا إلى سرايا..."وقال أرميا لسرايا إذا دخلت إلى بابل ونظرت وقرأت كل هذا الكلام... فقل أنت يا رب تكلمت على هذه المواضيع، لتفرضه حتى لا يكون فيه ساكن من الناس إلى البهائم، بل يكون خرباً أبدية ويكون إذا فرغت من قراءة هذا السفر أنك تربط به حجراً وتطرحه إلى وسط الفرات وتقول هكذا تغرق بابل، ولا تقوم من الشر الذي أنا جالبه عليها ويعيون".. إلى هنا كلام أرميا (الإصحاح ٥١-٦٠-٦٤).

إذاً خرجت الدعوة إلى دعوة طلاسم وكتابات، وتم وضعها في الأنهار لتثبيت مثل هذه الأمور التي تشكل جانباً مهماً من جوانب الفكر اليهودي، فلا يهدأ بال اليهودي المعاصر سواء كان علمانياً يسكن فلسطين المحتلة أو متطرفاً، إلا بتحقيق نبوءة الأنبياء (دور فدور على بابل إلى أبد الآبدين لسكان بابل)، لأنه يعلم أن هناك شيئاً ما قادم من بابل، ومن أرض اسمها بابل، لشعب يسكن بابل.

نحن في استعراضنا هذا لا نسقط نصاً على حاله، ولا نسعى للي ذراع الرواية التوراتية التاريخية، فهي من الوضوح بما لا يحتاج إلى مثل هذا الجهد للي ذراع النص والإسراف في التأويل، لأن هناك سبباً عملياً، يتمثل في أن إسرائيل الحالية هي الدولة الوحيدة التي تم تشكيلها على أساس معتقد ديني، أرضيته التوراة وأسفار أنبياء بني إسرائيل، فهي لهم منهج عمل. واليهودي الصهيوني ينظر إلى نبوآت العهد القديم على أنها وحي مستمر الفاعليه مستمر الحضور، فكل محذور في التوراة هو الماضي القديم الحاضر في فكر العقلية اليهودية. والعلماني الصهيوني المتواجد فيما يسمى "دولة إسرائيل" شدّ الرحال من أراضي العالم ذاهباً إلى فلسطين برغم يساريته، وبرغم توجهه العلماني، لأن دينه وعقليته الدينية حكمت عليه بالرحيل لاغتصاب فلسطين.

وما نراه هي حالة "تمظهر" ﭬ السلوك لبناء وضع اجتماعي وسياسي مستحدث ﭬ الدولة العبرية. فتلون هيكلية البناء لا يلغي الأصول المؤسسة لـ"دولة إسرائيل"، التي تقوم على نظام ديني مبني على تجمع ديني بسبب دعوة دينية أساسها التوراة، ومعالم سلوكها التلمود وحاخامات اليهودية. ومنطق إسرائيل مع دول العالم العربي تحكمه مفاهيم توراتية، فلا غرابة من أن تكون النزعة الثأرية تجاه العراق هي وجه من أوجه معالم الفكر التوراتي تجاه العراق.

وعراق اليوم ليس ببعيد، وأساليب تبخير العراق من خلال الحصار ومن أجل تدمير مدن العراق، ومساعي إسرائيل ﭬ تقديم المساعدات الفنية والمالية إلى تركيا لتعطيش الفرات وسكوت الأسرة الدولية غير المفسر لتجفيف الأهوار مع حرص العدوان الأمريكي البريطاني على تخريب البيئة العراقية باليورانيوم المنضب، هي أحلام توراتية تتحقق الآن على أرض الواقع.

إن الأثر الإسرائيلي لتحقيق أكبر قدر ممكن من سياسة إضعاف العراق من خلال مشاريع استمرار الحصار من أجل عراق أضعف، هي أمور أصبحت ماثلة أمامنا، والمصالح اليهودية ﭬ تنويع آثار الحصار ونتائجه أصبحت من الأمور المسلمة لدى الشارع العراقي، وباتت من الأمور المتيقن بها لدى المواطن الذي يدفع ثمن الحصار، وإن الحصار له بعد سياسي هو إتمام العملية السلمية وتحقيق أمن "إسرائيل".

ولقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من وضع العراق وما سيؤول إليه واعتبر حالة التشظي للوضع العراقي، وسعي كل طرف للفوز بموارد العراق، على أنه علامة من علامات الساعة، كما ورد ﭬ صحيح الإمام مسلم: (..عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ قَالَ كُنْتُ وَاقِفًا مَعَ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ فَقَالَ: لاَ يَزَالُ النَّاسُ مُخْتَلِفَةً أَعْنَاقُهُمْ ﭬ طَلَبِ الدُّنْيَا، قُلْتُ: أَجَلْ، قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "يُوشِكُ الْفُرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَإِذَا سَمِعَ بِهِ النَّاسُ سَارُوا إِلَيْهِ، فَيَقُولُ مَنْ عِنْدَهُ: لَئِنْ تَرَكْنَا النَّاسَ يَأْخُذُونَ مِنْهُ لَيُذْهَبَنَّ بِهِ كُلِّهِ، قَالَ: فَيَقْتَتِلُونَ عَلَيْهِ فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ").

نعم هناك الكثير من العوامل الداخلية لعراق مأزوم وفساد إداري وفرعون يستحوذ على كل ما ﭬ الفرات، إلا أن ذلك لا يلغي الأثر الخارجي، ومن مظاهر الاختراق الخارجي ما نراه ﭬ شمال العراق، وسعي كل طرف للاستحواذ على ما وصل إليه، مع الإصرار لأن يكون نداً

للآخر، حتى ليبدو أن هناك محميات، ولا مناطق محمية. يقابل هذا الوضع وعود معسولة لأكثر من طرف على أن ينال ما يريد في جنوب العراق.

إن رقعة العمل الإسلامي في العراق لا تزال في وضع صحي جيد، ولها الأثر البليغ في الشارع العراقي، ونقصد بهذه الرقعة جميع ألوان الطيف المذهبي والسياسي الإسلامي في الساحة العراقية.

نقول لهم ... اللهَ ... اللهَ في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأن لا نكون من هذه الفتنة، وعلينا بخطاب العقل والدعوة للحفاظ على تراب الوطن ووحدة أراضي العراق ووحدة موارده الاقتصادية والبشرية.

وأخيراً... أما آن الأوان للخطاب العقلاني أن يكون هو السائد بيننا نحن العراقيين؟!

لا أميل إلى نظرية المؤامرة..
إلا أنها مؤامرة[٢]

لا يخفى على المطلعين في علم الأديان بأن أناجيل العهد الجديد لم تخلُ من الأثر اليهودي، خصوصاً الأناجيل المثلثة (لوقا، متي ومرقس)، حيث كانت تسمى بأناجيل الحوار، وهي الأناجيل التي خاطبت الوجود اليهودي في فلسطين بالبشارة بالعهد الجديد، حيث أوضحت حادثة المرأة الكنعانية مدى الأثر اليهودي لدى القديسين الأوائل. وعلى الرغم من خصوصية إنجيل يوحنا كونه إنجيل الأمم، حيث أصبغ خطابه بصبغة فلسفية، إلا أن الأثر اليهودي من الناحية الفكرية إن لم يكن واضحاً في إنجيل يوحنا، فإن رؤية يوحنا اللاهوتية فيها بعضاً من الأثر اليهودي رغم ما حوت من رمزية الدلالة وكثرة الإشارات. ومتابعة هذا الأثر وارتباط العهد الجديد بالعهد القديم رغم استقلالية العهد الجديد الفكرية والمنهجية، توضح معالم ما يسمى بالقاعدة الخصبة لولادة ونمو ما يسمى بالصهيونية المسيحية.

ورؤية يوحنا تحتوي على خطاب إلى الكنائس السبعة. ويعتبر الباحثون الإصحاحات التي تحوي على مضمون هذه الخطابات الإنجيلَ اليهودي النصراني الذي كان متداولاً عند المسيحيين في القرن الأول للميلاد، ويدعو هذا الإنجيل إلى تطبيق شريعة موسى لأن خلاص الإنسان لا يتحقق من دونها.

والذي نراه أيضاً من الأثر اليهودي ما ذكرت الرؤيا عن يوم الدينونة وآخر الزمان. تقول لنا رؤية يوحنا: "قائلاً للملاك السادس الذي معه البوق فك الأربعة ملائكة المقيدين عند النهر العظيم الفرات"(رؤية يوحنا: الإصحاح ١٩-١٤). لماذا هذا الأمر الجواب في الإصحاح نفسه "لكي يقتلوا ثلث الناس". (رؤية يوحنا: الإصحاح ١٩-١٦)، ثم يأتي دور الملاك السادس "ثم سكب الملاك السادس جامه على النهر الكبير الفرات فتنشف ماؤه لكي يعدوا طريق الملوك من المشرق". (رؤية يوحنا: الإصحاح ١٦-١٣). إنها النزعة العدائية نفسها التي حملتها التوراة بحق الفرات، دلالة العراق على مر العصور والبينة الواضحة لبلاد الرافدين، من أجل أي أمر؟ لأمر مهم وحيوي هو تنشيف الفرات، علماً بأن الأرض تحتوي على أنهار أكبر من الفرات وأكثر طولاً من نهر الفرات. فهل يوم القيامة لا يتم لكل المعمورة، أم أن القيامة هي للفرات فقط؟ "وصارت المدن العظيمة ثلاثة أقسام ومدن الأمم

سقطت وبابل العظيمة ذكرت أمام الله ليعطيها كأس خمر سخط غضبه" (رؤية يوحنا: الإصحاح ١٦-٢١). إذن يوم القيامة يبدأ من بابل وينتهي عند بابل، لأن الله قد أعطى بابل كأس خمر فيه سخط غضبه، وهنا نرى بدائل العقاب، ففي التوراة في عالم الدنيا كان العقاب بالفناء والإلغاء للإنسان والحيوان والأنهار والنبات لمن في بابل، وفي يوم القيامة نرى أن العملية العقابية الإلهية تكون لبابل أيضاً لأنها ذُكرت أمام الله، ثم يستعرض الإصحاح ١٧ لمزيد من الإيضاح عن يوم الدينونة: "ثم جاء واحد من السبعة الملائكة الذين معهم السبعة جامات وتكلم معي قائلاً لي هلم فأريك دينونة الزانية الجالسة على المياه الكثيرة". وعند السؤال من هي هذه المرأة الزانية؟ تجيب الرؤية بقولها: "وعلى جبهتها اسم مكتوب، سر بابل العظيمة أم الزواني ورجسات الأرض" (رؤية يوحنا: الإصحاح ١٧-٦). وهنا ثمة سؤال مباشر: لماذا بابل دون غيرها؟ "ورأيت المرأة سكرى من دم القديسين ومن دم شهداء يسوع فتعجبت لما رأيتها تعجباً عظيماً" (رؤية يوحنا: الإصحاح ١٧-٦).

إن هذا الإصحاح فيه أمران؛ الأول ترويع المؤمنين بالعهد الجديد وتخوفيهم من قتلة القديسين وشهداء يسوع؛ والأمر الآخر هو تحديد القاتل كونه مدينة المدن بابل. ومن المعروف تاريخياً أن بابل لم يكن لها أي أثر سياسي أو كيان فعال عند العصر الأول للتاريخ المسيحي، كما أن التاريخ لم يعرف أحداثاً عن اضطهاد العراقيين للمسيحيين ولم توجد هناك حرب عرقية، بل عل العكس، كانت التصفيات الشاملة للجيل المسيحي الأول على يد الإمبراطورية الرومانية، وعند فجر الإسلام والعصر الحديث لم نر دم شهداء يسوع ولا القديسين يذبحون عند أبواب مدن بابل، إلا أن قارئ النص - وحسب قدسية النص - سيجد أن بابل إن لم تكن اليوم قاتلة القديسين، فستكون غداً كذلك إذاً اللعنة على بابل وعلى سكان بابل.

إن هذه البذور المشتركة المزروعة في الأناجيل تشكل بمجموعها الجسر الذي تسير عليه أفكار صهينة المسيحي، وذلك من خلال استثمار شعوره الديني لخدمة أغراض يهودية: "ثم بعد هذا رأيت ملاكاً آخر نازلاً من السماء له سلطان عظيم واستنارت الأرض من بهائه وصرخ بشدة بصوت عظيم قائلاً: سقطت سقطت بابل العظيمة وصارت مسكناً لشياطين". (رؤية يوحنا: الإصحاح١٨: ١-٣). ثم بعد ذلك ماذا تفعل الملائكة؟ "ورفع ملاك واحد قوي حجراً كرحى عظيمة ورماه في البحر قائلاً هكذا سترمى بابل المدينة العظيمة ولن توجد فيما بعد" (رؤية يوحنا: الإصحاح١٨: ٢١-٢٢). وما هو موقف الناس من بابل وسكان بابل؟" ويقولون ويل المدينة العظيمة". ولم تكتف الرؤية بذلك، بل طلبت من الجميع نشر التجهيل ما

يحدث في بابل، وهذا ما يمثل موقف الإعلام الحديث: "وصوت الضاربين بالقيثارة والمغنين والنافخين بالبوق لن يسمع فيما بعد" (رؤية يوحنا: الإصحاح١٨-٢٣).

عند تتبع رؤية يوحنا نجد أن يوم الدينونة لم يتسع لكل الأرض رغم سعة خيال الرؤية، ولم يتجاوز أثر هذا اليوم وفعله سوى بابل ونهر الفرات، رغم كثرة الشخوص والملائكة والأرواح والتصورات المجازية والرمزية، وبعد ذلك تكون لنا المفاجأة: "ثم سمعت صوتاً آخر من السماء: اخرجوا منها يا شعبي لئلا تشتركوا في خطاياها" (رؤية يوحنا: الإصحاح ١٨-٤). أي شعب هذا الذي تتحدث عنه الرؤية؛ أهو الشعب الذي أخرجه قورش من بابل؟ المتتبع للتوراة يعلم علم اليقين أن هذه العبارة هي خصوصية يهودية كون اليهود شعب الله، وأن العهد الجديد لم يستعمل كلمة "شعبي" أو "شعب الله" للمؤمنين بالبشارة.

وعند ذلك نرى الترابط بين كون هذه الرؤية رؤية مسيحية وبين المسحة اليهودية التي ختمت بها بالحرص على الشعب الموعود بقول الرؤيا "اخرجوا منها يا شعبي"، مع الحرص اليهودي لإلغاء بابل. وبعد هذا الترابط النفسي بين الدين المسيحي والمفاهيم اليهودية نرى أن الاستجابة للمفاهيم الصهيونية، أمر له أرضيته وخلفيته الدينية القوية، هذا إذا أضفنا العوامل الاقتصادية، ودور الاستعمار الحديث لتبرير مشاريعه والسعي لتنفيذها، فكان هناك التقاء مصالح والتقاء قيم سياسية والتقاء مفاهيم، ومن ثم تعاون أديان وانصهار أديان لخدمة أديان، وهذا ما نراه في المشاريع الصهيونية للدولة الإسرائيلية وتبني الصهيونية المسيحية لهذه المشاريع بحق عراقنا الحاضر.

١. لقد كشفت مجلة "دايركشنز" التي تصدرها المنظمة الصهيونية العالمية في فبراير ١٩٨٢، في مقال كتبه عوربيد بنيون أحد مستشاري الأمن في الخارجية الإسرائيلية عن خطة إلى تقسيم العالم العربي إلى دويلات عرقية وطائفية، على اعتبار أن ذلك سيمثل الحل الأمثل لما ستواجهه السلطات اليهودية من تحديات أمنية في المستقبل، ومن ضمن هذا المشروع (فقرة د): "تقسيم العراق إلى ثلاث دول أو أكثر حول المدن المهمة كالبصرة وبغداد والموصل، أما المناطق الشيعية فتنفصل عن المناطق السنية والكردية في الشمال".

٢. جاء في تقرير اليهودي بنيون أوديت بعنوان استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات: "إن العراق الغني بالنفط من ناحية، والممزق داخلياً من ناحية أخرى، يعتبر مرشحاً مضموناً لأهداف إسرائيل، فتفكيكه يعتبر بالنسبة لنا أكثر أهمية من تفكيك سوريا".

نحن لسنا بصدد القيام بدراسة ظاهرة التطرف الديني المؤازر لليهود، واعتبار أن الإيمان المسيحي لا يتم إلا بوجود إسرائيل كنبوءة للعهد القديم، إلا أن المواقف العامة التي تتمتع بها الإدارة الغربية تفرض هذه القيمة الدينية في الفعل السياسي، فمن ذلك إعلان الرئيس الأمريكي كارتر سنة ١٩٧٦ "إن تأسيس إسرائيل المعاصرة هو تحقيق للنبوءة التوراتية". وعند زيارة الرئيس الأمريكي كارتر إلى الكنيست الإسرائيلي ١٩٧٩ أعلن "أن أمريكا وإسرائيل تتقاسمان تراث التوراة". وهذه المقولة كفيلة بأن تخلق عشرات المنظمات المسيحية المدافعة عن إسرائيل، علماً بأن في أمريكا أكثر من مائتي طائفية مسيحية يؤمنون بالقضية الصهيونية. ومن تلك المواقف إيمان الرئيس الأمريكي ريغان سنة ١٩٨٤ بنظرية بهرمجدون ودور إسرائيل في معركة نهاية العالم واقتراب العودة الثانية للمسيح المخلّص، ولم يذهب الرئيس الأمريكي ريغان بعيداً، فإن ما قاله هو عين ما حملته رؤيا يوحنا في الإصحاح ١٦: "وتذهب إلى ملوك المعمورة كلهم تجمعهم للحرب في ذلك اليوم العظيم يوم الله القدير... تجمعهم في المكان الذي يقال له في العبرية هرمجدون".

إن تقدمينا لهذا النموذج المختصر هو للتأكيد على استعداد الإدارة الأمريكية بصفتها راعية للصهيونية الحديثة بأن تحقق مشاريع إسرائيل، وبأي اتجاه كان، وهذا ما يفسر شدة اندفاع المدارس الإنجيلية الحديثة في كل من أمريكا وبريطانيا التي تواصل قمع العراق من خلال تمديد الحصار وبأي مبرر كان، ومن دهاليز التيه لعراقنا الحبيب بالونات الاختبار التي تطلق بين الفينة والفينة من أجل محميات مصطنعة.

إن هذا الاستدراج الأمريكي البريطاني هو واحد من أساليب الغرب لإجهاض كل أمل من أجل تجربة ديمقراطية لغد عراقي سعيد. إن الوهم أو الإيهام بديمقراطية المحميات هو عين التيه، وإن حل القضية العراقية لا يكون إلا بعراق ديمقراطي موحد.

وأخيراً... في إشارة لحديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "رباط يوم وليلة في سبيل الله كصيام شهر وقيامة أن مات عليه أجر المرابط حتى يبعث ويؤمن الفتان"، لفتة كريمة لمن ألقى السمع وهو شهيد بضرورة المرابطة لأجل الحفاظ على الوطن الذي يعد الموت في الدفاع عنة شهادة إن كان المبتغى هو إعلاء كلمة الله، وعراق اليوم في أحوج ما يكون للمرابطين في شتى المجالات.

لماذا أمنا سارة
وأبونا جميعاً إبراهيم ؟

على الرغم من سياسة الاستحواذ للظاهرة الإبراهيمية والتأكيد على نسبة اليهود لإبراهيم، إلا أن حقيقة الوثيقة اليهودية تكشف عن غير ذلك، أو هي توضح بعدم صدقية هذا المنطق. فإذا كان الأمر بهذا الشكل، فما هي نتائج الظاهرة الإبراهيمية حسب الوثيقة اليهودية؟؟..

كانت لإبراهيم ثلاث زوجات هن: سارة، هاجر، وقطورة. فمن سارة كان له إسحاق الذي اعتبر عبرياً حسب التوراة، ومن هاجر كان له إسماعيل الذي اعتبر عربيَّ النشأة والتكوين، وقد وصفت التوراة أبناءه بالإسماعيليين. ويعقب قاموس الكتاب المقدس على ذلك ص٧٥: "وأحياناً يستعمل الاسم (إسماعليين) للدلالة على القبائل البدوية التي كانت تسكن شمال الجزيرة العربية، ولذا فيدعى المديانيون إسماعليين" (سفر تكوين: ٣٧: ٢٥، ٢٨،) وقد كانت غالبية هذه القبائل من البدو، ولكن بعضاً منها استقر بها الأمر، وأسست ممالك مستقلة كالنبطيين والتدمريين والغساسنة واللخميين. وإذا كان اختلاف الزوجات يبرر اختلاف الذرية في اللغة، فإن من غرائب الأمور أن إسحاق الذي هو ابن سارة وزوج رفقة ينجب توأمان أحدهما يعقوب الذي يعود اليهود له، وعيسو الذي أصبحت له ذرية عربية الظاهرة والتكوين. ومن أولاد عيسو العماليق، حيث تصفهم التوراة في سفر العدد بقولها: "عماليق أول الشعوب، وإما آخرته فإلى الهلاك". (الإصحاح ٢٤ - ٢٠). ويذكرهم قاموس الكتاب المقدس كون العماليق هم أولاد عيسو، وكذلك يصفهم كونهم مصدر إزعاج للعبرانيين (ص ٦٣٦، قاموس الكتاب المقدس - القاهرة).

أما قطورة فهي معجزة الظاهرة الإبراهيمية، إذ تنجب قطورة ستة من الأولاد يكونون نواة لستِّ قبائل عربية: يقول قاموس الكتاب المقدس حولها في الصفحة ٧٣٨: "هي زوجة إبراهيم، ذكرت في سفر التكوين الإصحاح ٢٥، ولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان

ويشباق وشوحا. وهم أباء ستة قبائل عربية، وذكر مؤرخو العرب قبيلة قطورة التي تسكن بالقرب من مكة" انتهى النص.

وابن أخيه لوط ينتج شعبين عربيين هما العمونيون والمؤابيون. (سفر التكوين، الإصحاح ١٩:٣٠). فالملاحظ أن الدائرة الإبراهيمية دائرة عربية من أولادة إلى ابن أخيه وباقي زوجاته.. بينما هناك خيط رفيع يفرض نفسه كون إبراهيم يختلف عن باقي أخوته لغةً وتكويناً، ويعتبر نفسه يهودي التكوين. إنه أمر يحتاج إلى مزيد من بحث وتحقيق، لتأكيد حقيقة عروبة إبراهيم، إذ لا يقبل عقلاً أن نتاج الظاهرة الإبراهيمية عربية.

لوط.... شعبان عربيان الذين هم أبناء الأردن.

إسماعيل... شعب عربي في الجزيرة العربية وصفتهم التوراة بالإسماعيليين.

عيسو... شعب عربي موغل في القدم هم العماليق حسب وصف التوراة لهم، ويشكلون جنوب سوريا.

القبائل الست.... الذين هم أبناء قطورة.. الآن أصبحت قبيلة قطورة إحدى قبائل مكة العربية.

وأمام هذه الحقائق سعى يهود السبي البابلي وما بعد السبي البابلي الذين كتبوا التوراة إلى سياسة الإقصاء المتعمد للامتداد العراقي الذي شكل السلالة الإبراهيمية، وما تبعها من توسع وما سبقها من تشكيل، ليس بهدف الأمانة التاريخية بقدر ما هو نتيجة أغراض نفسية كالحسد والبغض، أو لأسباب تاريخية طارئة كانت في حينها الشغل الشاغل للعنصر العبري، حيث دخلوا في حروب مع أبناء عمومتهم وأبناء جنسهم في المنطقة التي عاشوا فيها، وبسبب هذه الصراعات والكره المتبادل اعتبرت الرواية التاريخية التي ذكرت في التوراة وأسفار العهد القديم مع مرور الزمن مسلمات عقائدية نتج عنها تكريس مفهوم "العرق المختار". أما ما دون ذلك من الأخوة وأبناء العمومة فقد تم إلغاؤه، فهو لا يمت بصلة إلى السلالة الإبراهيمية بشيء.

فقد يصل الإقصاء إلى إهمال متعمد وعدم ذكر لقوم مثل ما حدث للعماليق، حيث تم إهمالهم وعدم ذكرهم ضمن النسب في جملة القبائل العربية بسبب العداء الحاصل بين اليهود والعماليق، على الرغم من اعتراف التوراة أن العماليق من أقدم شعوب المنطقة: "ثم رأى عماليق أول الشعوب، وأما آخرته فإلى الهلاك". (سفر العدد: الإصحاح٢٤-٢٠).

وقد يصل الإقصاء إلى خلط الأوراق من باب التجهيل، مثل ما ذكر بحق الكنعانيين، وهم من أولاد سام، حيث اعتُبروا من الحامين أولاد حام ابن نوح (سفر التكوين، الإصحاح: ١٠ - ٦).

أو لأجل إثبات نقاء هذا العرق يصل الأمر إلى حد الغلو في التركيبة الأسرية لبقاء الدم المختار دون امتزاجه بدم جديد مثل ما ذهبت إليه التوراة بزواج عمرام من عمته يوكابد: "وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له، فولدت له هارون وموسى". (سفر الخروج: ٦-٢٠).

أو التأكيد على تثبيت ظاهرة النقاء بحصر الزيجات، إذ ما تم من زواج لعمرام من عمته قابله زواج ثانٍ لا يقل غلواً عنه، هو زواج عنثئيل من ابنة أخيه كالب: "فقال كالب، الذي يضرب قرية سفر ويأخذها أعطيه عكسة ابنتي امرأةً، فأخذها عنثئيل بن قناز أخو كالب الأصغر منه، فأعطاه عكسة ابنته امرأةً، وكان عند دخولها أنها غرته بطلب حقل من أبيها" (سفر القضاة، الإصحاح -١ ١٢،١٣).

ونحن لا نذهب إلى مثل هذا الشطط من أجل صفاء العرق اليهودي بزواج الرجل من عمته أو زواج البنت من عمها، ونعتبر ما ذكر في الكتاب المقدس في سفر الخروج وفي سفر القضاة سقطة من سقطات كتبة التوراة.

ولم تكتفِ التوراة بهذا الأمر، بل راحت بكل ما عندها من تشويه لتخريج العائلة الإبراهيمية وتحجيمها جهد الإمكان، مثل ما فعلت من تجريح وتسقيط بحق عائلة لوط من المؤابيين والعمونيين واعتبرتهم أولاد زنا بفعل فاحش، وتحول جدهم لوط إلى أب لهم، من خلال ممارسة الجنس مع بناته، (سفر التكوين: الإصحاح ١٩ - ٢٠).

وكذلك ما حدث لعسيو أخي يعقوب، حيث خرجته التوراة من سياق الفعل والحدث كونه لم ينل البركة، وأُهمل هو وأبناؤه من السيرة التوراتية رغم كونه عبراني الأم والأب (حسب المفهوم التوراتي) ومن سلالة النبوة المختارة لإسحاق عليه السلام: "فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك". (سفر التكوين:٢٧-٣٥).

أو الادعاء على أبناء إسماعيل أنهم أولاد الجارية، فهم -بذلك- خارج دائرة الاختيار: "فوجدها ملاك الرب على عين ماء في البرية.. وقال يا هاجر جارية ساراي. من أين أتيت، وإلى أين تذهبين؟ فقالت أنا هاربة من وجهة مولاتي ساراي. فقال لها ملاك الرب: أرجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها" (سفر التكوين:١٦-٧،٩). إن في النص قساوة وتجريحاً

لهاجر، وتهويناً لمكانة النبوة في إسماعيل، كما أن في النص عرقية عالية واستخفافاً بالآخر.

والأشد من ذلك إهمال التوراة لأبناء قطورة الزوجة الثالثة لإبراهيم عليه السلام التي تزوجها بعد وفاة سارة، والتي أنجبت له ستة أبناء، وهم آباء لست قبائل عربية. وذكر مؤرخو العرب قبيلة قطورة التي تسكن بالقرب من مكة، واكتفت التوراة بذكر زواج إبراهيم منها، وأسماء أولادها. (سفر التكوين: الإصحاح ٢٥-١).

وكل هذه التخريجات والهلوسة التاريخية القصد منها إبقاء عرق واحد مختار، وعنصر واحد هو الأمثل والأنقى، وهم أبناء يعقوب، كونهم هم أبناء اليهودية. وتم التعميم بعد ذلك وبشكل تصعيدي بالغ الغلو بضرورة الحفاظ على العرق المختار من خلال الزواج باليهودية دون غيرها، وتم اعتماد سلسلة النسب بأثر واحد هو الامتداد الناتج عن سارة أم إسحاق كرهاً وبغضاً بإسماعيل وكل الموجات العربية التي خرجت من أولاد قطورة أو العرب المنحدرين من أبناء لوط أو العرب الذين تشكلوا من زواج عيسو من أبناء عمومته الإسماعيليين. وانهالت أوامر التوراة بالويل والثبور لكل من يخرج عن هذا الأمر الإلهي، واعتبر الزواج من اليهودية جزءاً من العقيدة اليهودية.

١ - "ولكن إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب أولئك الباقين معكم وصاهرتموهم ودخلتم إليهم وهم إليكم. فاعلموا يقيناً أن الرب إلهكم لن يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم فيكونوا فخاً لكم"، (سفر يشوع: ٢٣ - ١٢،١٤).

٢ - "لأنك قد جازيتنا يا إلهنا من آثامنا وأعطيتنا كهذه، أفنعود ونتعدى وصاياك ونصاهر شعوب هذه الرجاسات". (سفر عزرا: -٩ ١٥). يلاحظ في النص العنصرية العالية باعتبار الشعوب الآخرين رجساً كما يفهم من سياق النص أن الأمر عقدي وجزء من التفكير الديني.

٣ - "في تلك الأيام أيضاً رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشد وديات وعمونيات ومؤابيات. ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودي ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودي بل بلسان شعب وشعب. فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم أناساً ونتفت شعورهم استحلفتهم بالله قائلاً: لا تعطوا بناتكم لبنيهم، ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم، ولا لأنفسكم. أليس من أجل هؤلاء أخطاء سليمان" (سفر نحميا: ١٣ - ٢٣،٢٦).

٤ - "يا ابني أصغ إلى حكمتي، أمل أذنك إلى فهمي لحفظ التدابير.. لأن شفتي المرأة الأجنبية تقطران عسلاً، وحنكها أنعم من الزيت، لكن عاقبتها حادة كسيف ذي حدين، قدماها تنحدران إلى الموت، خطواتها تتمسك بالهاوية". (سفر الأمثال: ٥-١،٥). فهل حفظت هذه الأوامر والنواهي العرقَ المختار من الامتزاج بشعوب المنطقة؟ وهل حققت مثل هذه التدابير ما كان يرمي إليه كتبة التوراة؟

أم أن الطبيعة الإنسانية هي الأقوى والأشد فاعلية؟ تجيبنا الأسفار عن ذلك:

١ - "وحدث في ذلك الزمان أن يهوذا نزل من عند إخوته ومال إلى رجل عدلامي اسمه حيرة، ونظر يهوذا هناك ابنة رجل كنعاني اسمه شوع، فأخذها ودخل عليها" (التكوين: ٣٨-١). إنه زواج من كنعانية، أي أن هناك دماً عربياً دخل التكوين اليهودي، وسنرى مثل هذه الزيجات كثيراً.

٢ - كذلك اقتران يهوذا بزوجة ابنه عير الذي توفي، فدخل عليها: "واسمها ثامارا، وهي كنعانية كذلك"، وأنجبت له توأمان هما فارص وهو جد النبي داود، والآخر زارح (سفر التكوين:٣٨ - ٢٧،٣٠).

٣ - "وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها،لأنة كان قد اتخذ امرأة كوشية".(سفر العدد: ١٢-١). هذا موسى صاحب الدعوة من بين من اخترقوا الناموس وتزوجوا من أجنبيات، وهي دلالة على عدم نقاء الدم اليهودي.

٤ - "وكان لكاهن مديان سبع بنات.. فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل، فأعطى موسى صفورة ابنته فولدت ابناً فدعا اسمه جرشوم" (سفر الخروج: ٢-١٦). وهذا الكاهن هو رعوئيل، وهو ما يعرف عند المسلمين بالنبي العربي شعيب، ونلاحظ دوام تدفق الدم العربي على التكوين اليهودي.

٥ - زواج النبي داود من امرأة أوريا الحثي التي ولدت له سليمان (صموئيل الثاني:١١-٣). وهي امرأة حثية؛ أي دم آخر يصب في التكوين المزعوم.

٦ - زواج سلمون من رحاب الكنعانية والتي ولدت له بوعز، وهو أحد أجداد داود (يوشع: ٦،١٧). وهذا تأكيد على هيمنة الدم الكنعاني في التشكيل الأولي لليهود.

٧ - "فأخذ بوعز راعوث امرأة ودخل عليها فأعطاها الرب حبلاً فولدت ابناً.. ودعت اسمة عوبيد هو أبو يسي أبي داود" (سفر راعوث: ٤-١٢) وراعوث هي مؤابية الأصل.

٨ - "وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات، من الأمم الذين قال الرب عنهم لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون اليكم.. وكانت له سبع مائة من النساء السيدات وثلاث مائة من السراري" (الملوك أول:١١ - ١،٥). وفي سلوك نبي الله سليمان ينتفي قانون الدم المختار، فهذا المزيج من ألف زوجة متنوعة العرق والنوع يلغي مثل هذة الخرافة. وفي زيجات بني إسرائيل ينتفي العرق الأنقى، ويفرض أمر حقيقي؛ أن اليهودية دين تشكل من كل منبع من المنابع العرقية، فالظاهرة اليهودية هي ظاهرة دينية، وليست شعباً أو أمة، والذي يدعم موقفنا هذا نصُّ الكتاب المقدس، حيث يقول:

٩- "وكذلك الأجنبي الذي ليس من شعبك إسرائيل هو، وجاء من أرض بعيدة من أجل اسمك.. فاسمع أنت من السماء مكان سكناك وافعل حسب ما يدعو به إليك الأجنبي" (الملوك أول: ٨-٢٧)، وفي هذا إقرار بقبول الأجنبي ضمن الدائرة اليهودية بقبول دعائه ودخوله المعبد، ومن ثم الطلب من إله إسرائيل أمرة. ولم تكتف التوراة بهذا الأمر، بل أقرت أن التشكيل اليهودي الأول لم يكن لأبناء يعقوب" بل اتسع ليشمل شعوباً أخرى، حيث لم يكن الزواج هو وسيلة تشكيل الظاهرة اليهودية، بل الدين نفسه.

١٠ - "وكثيرون من شعوب الأرض تهودوا، لأن رعب اليهود وقع عليهم" (سفر أستير: ٨-١٧).

إذن هناك من تهود قناعةً أو خوفاً.

فليست الظاهرة اليهودية هي إمداد اثني عشر ابناً من أحفاد النبي إبراهيم حتى تكون لهم الحظوة المفتعلة والموهومة على بقية شعوب العالم بتكوين جنس مختار، فإذا كان ما تحدثنا به من أمر قد تم في التاريخ الغابر في تشكيل الظاهرة اليهودية مع امتداد الزمن، فهو أمر طبيعي لمثل هذا التشكيل، وهو أمر إنساني تتشكل به أديان شعوب الدنيا، فحديثنا الآن ليس مع العربي المتهود فقط، بل مع المسلم الذي بدأ يتهود نقول له: اتقِّ الله في قوله تعالى: "ما كان إبراهيم يهودياً" (آل عمران، آية ٦٧).

فلسطين
بين الحقيقة التوراتية ووعد التوراة

من المعروف لقراء الكتاب المقدس أن هناك وعداً بمنح (أرض فلسطين) للعائلة الإبراهيمية. ورغم قوة الوعد المذكور في سفر التكوين، إلا أن هذه الأرض بقيت من خلال أسفار الكتاب المقدس تسمّى بأرض فلسطين، وسكانها باسم أهل فلسطين، فما هي قوة الوعد أمام الحقائق التاريخية التي يدلي بها الكتاب المقدس، وأيهما أشد فعلاً؟

١ - "وقال الرب لإبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك..

واجتاز إبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة، وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض. وظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض" (سفر التكوين: ١٢- ١،٦،٧). نلاحظ أن النص يحوي أمرين:

أ- إن العطاء كان محدوداً، ولم يتم تثبيت أبعاد الأرض الموعودة.

ب- إن العطاء هو لعموم النسل، ولم يقل النص إن الوعد لأبناء هاجر دون سارة، ولم يقل إن الوعد لسارة دون قطورة الزوجة الثالثة لإبراهيم التي ولدت له ستة أولاد، وهم أبناء ست قبائل من العرب.

٢ - "وقال لإبرام بعد اعتزال لوط: ارفع عينيك وانظر من الموقع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد". (سفر التكوين: ١٣ - ١٤،١٥).

هذا النص يؤكد على أن الوعد لعموم النسل ولإبراهيم بقوله "لك أعطيها ولنسلك"، والأمر الآخر هو زيادة رقعة الأرض واتساعها، حيث بدت لها أبعاد بحد مرمى البصر، ولها حدود شمال وشرق وغرب وجنوب.

٣ - "في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات". (سفر التكوين: ١٥ - ١٨). وعد جديد بتحديد المساحة الفعليه والنهائية لهذه الوعود، ولكن مع الإصرار على حقيقة واحدة مسلّم بها عبر الوعود الثلاث؛ إنها لجميع نسل إبراهيم أو عموم نسل إبراهيم من أولاد قطورة وسارة وهاجر، كما أن هذه الوعود جميعها تمت من قبل الرب، ولم ينجب إبراهيم أي ذرية له خلال الوعود الثلاثة.

٤ - "وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي، أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم، هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك يختتن كل ذكر ..." (سفر التكوين: ١٧ - ٩).

٥ - وكان إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة حين خُتن في لحم غرلته: "وفي ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم إسماعيل ابنه" (سفر التكوين: الإصحاح ١٧ - ٢٢،٢٤)، وهذا يعني أن إسماعيل هو أول من نفذ العهد وختن مع الإقرار أن الآخرين من بعده قد اختتنوا.

٦ - "فقال الرب هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله.. إني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب" (سفر التكوين: ١٨ - ١٧،٢٠) ودلالة النص هي لجميع أبنائه بشهادة الرب أن إبراهيم سيوصي كل بنيه من بعده، ولم يقل سيوصي إسحاق في أمر التكليف أو الهبة.

إن اليهود يقيمون حجتهم على أحقية الوعد بالأرض بأن هناك خصوصية في النص تشملهم (أي تشمل أولاد سارة) ولا تشمل أولاد هاجر أو أولاد قطورة مستندين إلى نص في سفر التكوين في الإصحاح- ١٨:

٧ - "فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق وأقيم معه عهداً أبدياً لنسله من بعده" (التكوين: ١٨ - ٢٠). والنص يتضمن كلمة "عهد" وليس "وعد بالعطاء"، والعهد يشمل البركة والرعاية والنبوة والتشريف وكل المكارم الروحية التي حبا بها الله عبيده المختارين، أما لفظ "أعطي" فهي وعد لأمر مادي ملموس الفائدة أو الضرر، ومنح الأرض واستملاك أرض يدخل ضمن هذا السياق، لذلك نلاحظ عند الحديث عن إسماعيل أن الله تكلم عنه بقوله.

٨ - "أما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره، وأكثره كثيراً جداً" (التكوين: ١٧ - ٢٠) فهو عهد بالرعاية الإلهية، ولم يتطرق إلى ذكر الوعد حول أرض فلسطين لا لإسماعيل ولا لإسحاق ولا لزمران وأخوته الذين هم أبناء قطورة.

ويستدل من ذلك أن النصوص تتكافأ للدلالة على أن هذه الهبة للعائلة الإبراهيمية جميعاً، وما يقال هو ضمن التفسير أو التأويل أو إقحام نص مقابل نص، وبهذا فإن الوعد المقصور لليهود إن لم يتبخر فإنه يتزعزع من حيث الخصوصية من أجل إبعاد أحد أطراف المعادلة من العائلة الإبراهيمية وهم أولاد هاجر أو أولاد قطورة.

ومن الأمور الملفتة للنظر أن التوراة وأسفارها هي الكتاب الديني الوحيد الذي وثق الوجود الفلسطيني في أرض فلسطين، من خلال تثبيت أسماء القبائل والأقوام وأسماء الأماكن والمدن، وكذلك الحروب التي تمت بين اليهود وأبناء المنطقة و إثبات المعارك التي انتصر فيها الفلسطينيون، وتبيان عاداتهم وطقوسهم وسلوكهم القتالي والاجتماعي. ومجموع ما ذكر في العهد القديم يعد وثيقة تاريخية، وهو أيضاً مرجعية تاريخية للوجود الفلسطيني في أرض فلسطين (مع بعض التحفظ وليس الإطلاق)، ومن أمثلة ذلك ما ذكر في العهد القديم:

١ - قصة الرجل اللاوي المغترب حسب وصف التوراة له في سفر القضاة.

"فلم يرد الرجل أن يبيت، بل قام وذهب وجاء إلى مقابل يبوس، هي أورشليم ومعه حماران مشدودان وسريته معه، وفيما هم عند يبوس والنهار قد انحدر جداً قال الغلام لسيده: تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها. فقال له سيده: لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا". (سفر القضاة: ١٩ - ١٠،١٣).

أ- إن النص أثبت حقيقة تاريخية بأن مدينة القدس أصلاً اسمها يبوس وعرَّفها "إن يبوس تعني أورشليم"، ويبوس هي قبيلة عربية سكنت القدس، وهي التي بنت القدس وكان أصل اسمها يبوس نسبة إلى القبيلة العربية "يبوس".. وتتنوع الأسماء من بعد ذلك من "أور سليم" إلى "أور شليم" إلى "أيليا" إلى "القدس"، وذلك نتيجة الموجات البشرية التي تعاقبت على المنطقة، إلا أن تعدد الأسماء لا يلغي الأصل لهذه المدينة، كما أن تنوع الموجات البشرية لم يخرج المدينة عن دائرة الموجات العربية سواء أكانت من الجزيرة العربية أم من وادي الرافدين أم من منطقة حران.

ب- إن النص اعترف بأنها مدينة الغرباء (لا نميل إلى مدينة غريبة)، وبهذا إقرار إلى عدم يهودية المنطقة.

ج- إن النص أقر بعدم وجود العنصر البشري اليهودي في المنطقة بقول النص: "ليس أحد من بني إسرائيل هنا".

د- لو كان الوعد حقاً ومخصوصاً لهم، أي لأبناء إسحاق وتفريع إسحاق الذين هم أبناء يعقوب، لكان اللاوي دخل يبوس وهو يحمل شرعية وجوده دون أن يقول لغلامه: "تعال نتقدم إلى أحد الأماكن ونبيت في جيعة أو في الرامة" (السفر السابق: ١٤). وهذه دلالة على عدم الاكتراث بالميراث الشرعي وفق المفهوم اليهودي، وهذه الحالة لدى اللاوي المغترب هي ليست الحالة الأولى ولا الأخيرة، وليست هي الحالة الاستثنائية حتى يمكن تجاوزها؛ بل هناك ما يؤكد عدم الاكتراث بالوعد الموعود في مواطن عدة منها:

•• "وحدث جوع في الأرض. فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديداً" (سفر التكوين: ١٢ – ١٠). هذا هو أول رحيل عن أرض اللبن والعسل.

•• "وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب، وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار" (سفر التكوين:٢٠ – ١). الرحيل الثاني عن أرض اللبن والعسل.

•• "وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم، فذهب إسحاق إلى أبيماليك ملك الفلسطينيون إلى جرار" (التكوين:٢٦ – ١). هو رحيل ثالث، ولكن فيه طلب العون من ملك فلسطين، ففيه إقرار بملكية الأرض للوجود الفلسطيني.

•• "وقال عيسو في قلبه: قربت أيام مناحة أبي فاقتل يعقوب أخي، فأخبرت رفقة بكلام عيسو ابنها الأكبر، فأرسلت ودعت يعقوب ابنها الأصغر.. فالآن يا بني اسمع لقولي وقم واهرب إلى أخي لابان إلى حران وأقم عنده". (التكوين –٢٧ ٤١، ٤٤). خواطر في قلب رجل في لحظة غضب تدفع بصاحب الوعد بالتخلي عن أرض الميعاد، وهذا هو الرحيل الرابع.

•• "فقال فرعون ليوسف قل لأخوتك افعلوا هذا، حملوا دوابكم انطلقوا اذهبوا إلى أرض كنعان وخذوا آبائكم وبيوتكم وتعالوا إلى فأعطيكم خيرات أرض مصر وتأكلوا

دسم الأرض" (التكوين:٤٥ - ١٩،١٧)، اللطيف في هذا النص أن وعد فرعون أشد فعلاً من وعد الرب بأرض اللبن والعسل، وهذا الرحيل هو الهجرة الكاملة للعائلة اليعقوبية عن أرض الميعاد، ومن مفارقات العهد القديم ما جاء في سفر التكوين بين إبراهيم وابن أخيه لوط.

●●● "فقال إبرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك، رعاتي ورعاتك، لأننا نحن أخوان أليست كل الأرض أمامك، اعتزل عني إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً، وإن يميناً فأنا شمالاً". (التكوين: ١٣- ٨). لو كان الوعد ذا خصوصية خاصة لبعضٍ من ذريته لقال إبراهيم: هذه الأرض لبعض من أهلي بحكم وعد الله، ولك الخيار. إذ لو كانت رغبة لوط في أرض كنعان أين سيكون الوعد؟

●●●"فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث وكلمهم قائلاً: إن كان في نفوسكم أن أدفن ميتي من أمامي فاسمعوني والتمسوا لي من عفرون بن صوحر أن يعطيني مغارة المكفلية التي في طرف حقله بثمن كامل يعطيني إياها في وسطكم" (التكوين: ٢٣ - ١٠،٩). يوضح سياق النص أن شراء إبراهيم لمغارة المكفلية لدفن زوجته هو سياق الغريب الذي يطلب مكرمة من صاحب الأرض، كما أن عملية السجود من قبل إبراهيم فيها إقرار لشرعية أصحاب الأرض بأرضهم.

●●● "وألقى سائر الشعب قرعاً ليأتوا بواحد من عشرة للسكن في أورشليم مدينة القدس والتسعة الأقسام في المدن" (سفر نحميا: ١١ - ١)، إذ لو كان الوعد متجذراً في نفوس الناس من اليهود لتدافعوا للسكن دون قرعة، فالقرعة هي وجه من أوجه الإكراه لرفع الحرج، وما يؤكد ذلك هو قيام الآخرين بالدعاء لمن سكن القدس: "وبارك الشعب جميع القوم الذين انتدبوا للسكن في أورشليم" (نحميا:١١ - ٣)، ويُفهم من النص ليس البشارة للسكن في أرض الموعد بقدر ما يُفهم منه الإجبار على السكن فيها.

كما أنه ليس من السهل إحصاء عدد المرات التي ذُكر اسم فلسطين أو اسم مدينة الفلسطينيون أو أُشير فيها إلى الأقوام والقبائل الفلسطينية، ولكن للأمانة العلمية فإن أكثر أسفار العهد القديم قد تناولت هذا الاسم، سواء كان مدحاً أو ذماً حسب دلالة الحدث.

ولا أخال القارئ الكريم يستغرب سعينا للبحث عن حق عربي إسلامي بحجة توراتية، فهذا ليس عجزاً منا أو فقراً في مفردات قواميسنا العربية والإسلامية، وإنما التركيز على

الحجج التوراتية أمر مقصود قُصد منه ذلك العربي المهود الذي لا يعرف منطقه ثابتاً ولا حجة تمتد جذورها للعروبة أو للإسلام بصلة، ولكي يعلم أن الحق أحق أن يتبع من قبل أن يتهود وينسلخ عن هويته وجذره، فنحن شعبٌ له تاريخه، ولم تكن فلسطين عبر التاريخ أرضاً بلا شعب.

شجرة الزيتون
بين اليهودية والإسلام

في لقاء تلفزيوني في إحدى القنوات الفضائية تحدث أحد الأخوة المحاورين بأن مجموع ما تم قطعة من الأشجار في الضفة الغربية خلال تسعة شهور من عمر الانتفاضة بلغ (٣٩٤،٦٤٢) ألف شجرة، ومجموع الأراضي التي تم تجريفها خلال الفترة نفسها بلغ (١٨ ألف دونم). وليس هذا الرقم بالهين حتى يمر مرور الكرام، وليست الفترة بطويلة حتى تسمح لمثل هذا التغيير في طبيعة الأرض، مما أثار تساؤلات عدة في النفس والعقل عن الخلفية الشرعية لمثل هذا العمل. فإذا سلمنا بأن هناك رجال دين، وحَمَلة كتب دينية في أرضنا المحتلة، فكيف يسوغ رجل الدين مثل هذا الفعل سواءً أكان كاهناً أم حاخاماً، حَمَلة مما دفع بنا إلى الولوج ثانية في الكتاب المقدس بأسفاره القديمة لنستشف موقف الديانة اليهودية من البيئة والنبات والإنسان معاً.

يذكر لنا العهد القديم بعض النصائح والتوجهات البيئية:

١ - "كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم" (سفر التثنية: ١١ - ٢٤).

٢ - "فحلف موسى في ذلك اليوم قائلاً إن الأرض التي وطئتها رجلك لك" (يشوع:١٤ - ٩).

إن الخطاب الديني الذي يعتبر العلاقة بين الإنسان والطبيعية علاقة استعلاء وصراع، وليس تكاملاً بين الإنسان وما حوله، هو خطاب الند والضد، مما يولد حالة من التراكم بالاستخفاف بالطبيعة.

ثم يعقب ذلك تصعيد في تنمية القطيعة بين اليهودي والبيئة:

٣ - "صوت الرب مكسر الأرز ويكسر الرب أرز لبنان" (مزامير:-٢٩ ٥).

٤ - "ومتى أتيت إلى الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيباً وامتلكتها وسكنت فيها، فتأخذ

من أول كل ثمر الأرض" (سفر التثنية: ٢٦ - ١). لم يذكر النص" ازرع من كل ثمار الأرض"، بل قال "خذ"، والفرق واضح.

ومن ثم يأتي تصعيد آخر:

٥ - "فحرمناها كما فعلنا بسيحون ملك حشيون محرمين كل مدينة الرجال والنساء والأطفال. لكن البهائم وغنيمة المدن نهبناها لأنفسنا" (تثنية:٣ - ٦،٧).

٦ - "وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقِ منها نسمة، بل تحرمها تحريماً" (التثنية:٢٠ - ١٩) من المتعارف عليه في لغة التوراة إن تعبير ((تحريم)) يعني الإبادة التامة لشعوب المنطقة

٧ - "واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها" (يشوع: ٦ - ٢٤). و"كل ما بها" تشمل النبات والحيوان والإنسان.

٨ - "وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهة، وأخذوا المدينة وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف" (يشوع: -٦ ٢٠).

٩ - "وأحرق يشوع عاي وجعلها تلاً أبدياً إلى هذا اليوم" (يشوع:-٨ ٢٨).

وتجنباً للإطالة والتكرار يذكر لنا سفر يوشع في الإصحاح ١٠ والإصحاح ١١ أسماء (٣٠ - مملكة) بأسمائها وملوكها ومدنها وشعوبها وجيوشها مكرراً عباراته المعهودة "تحريم المدن تحريماً"، "حرق المدن"، "نهب،سلب، قتل ثم قتل دون تحديد لطفل أو شيخ أو حيوان أو نبات" إن هذا النسق من ثقافة العنف، مع الاستمرار على مثل هذة التربية الدينية، مع استغلال الحركة الصهيونية للرواية التاريخية وتحويلها من سيرة تذكّر إلى عقيدة، مع تعميم مثل هذه السقطات التاريخية التي تحفل بها الرواية التوراتية وتحويلها إلى برنامج عمل صهيوني يخلق أجواء في عقل اليهودي تجعله في صراع دائم مع الآخر. وهذا الآخر سواء أكان إنساناً أم حيواناً أم نباتاً ليس بمهم، المهم هو مبدأ التحفز والخوف من الآخر، والإيمان على الدوام أن هناك حالة صراع لا حالة سلام أو مسالمة.. كلها عوامل ساعدت وتساعد على ترسيخ مبدأ القطيعة مع البيئة والإنسان.

وفي الطرف الآخر، لا يوجد مثل هذا الفطام بين الإنسان والأرض على الرغم من كونها ذكرت لأكثر من ٤٥١ مرة، والمتتبع لمواقع ذكر الأرض في القرآن الكريم يلاحظ أنها:

١ - علامة من علامات الهمة الروحية لترفع بالإنسان إلى مقام الخلافة، بقوله تعالى:

"أمن يجيبُ المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض آلهة مع الله قليلاً ما تذكرون" (سورة النمل، آية ٦٢).

٢ - مع رعاية إلهية لمنع الإنسان من الإفساد لأجل بقاء صلاح الأرض لما يعرف اليوم بالمصطلح العصري "البيئة النظيفة"، بقوله تعالى:

"ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضلٍ على العالمين" (سورة البقرة، آية٢٥١)

٣ - لأن القانون الحقيقي للخلق هو الحق، أي الحق في الخلق، والحق في الإبداع، والحق في استمرار نعمة واجب الوجود على الوجود كله، ولا يتحقق هذا الحق إلا بقانون المصالحة الدائمة بين الإنسان والأرض بقوله تعالى:

"خلق اللة السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين" (سورة العنكبوت، آية ٤٤).

فليس عبثاً ولا من باب التكرار أن يذكر لنا القرآن الأرض لأكثر من ٤٥١ مرة، وبألفاظها المختلفة حسب مواقعها، ويؤكد على حقيقة تلازم الظواهر الطبيعية، فنراه يتنقل من ظاهرة إلى أخرى، فيذكر لنا الشجر والنخيل والنبات، بل وأصناف النبات، ثم الأنهار والجبال، وليست لمرة واحدة، بل لمرات ومرات. وفي كل موقع نرى فيه إشراقة من إشراقات الإيمان، وعلامة من علامات اليقين، وتأكيداً على مبدأ الارتباط العضوي بين الإنسان والطبيعية والإيمان، كقوله تعالى:

٤ - "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض" (سورة الأعراف، آية ٩٦)، إذ نلاحظ العلاقة وثيقة بين إيمان العبد وبركة الله عليه، و هذه البركة هي خيرات السماوات وخيرات الأرض، ولا يكون الخير إلا ببيئة نظيفة وحرص على موارد الطبيعة.

وكأن حال كتاب اللة يقول للإنسان: "هذا جسمك غير المرتبط بك عضوياً فاحرص عليه، ولا حياة لك وأنت خارج هذا الجسم الكبير". إنها قيم بيئية لم نألفها في الديانات السابقة، إلا أنها من خصائص الإسلام.

كذلك رسخت المدرسة النبوية مثل هذه العلاقة، حيث يتألق الارتباط بين الإنسان وبيئته في ذروة الأزمة والفعل يوم ينسى الإنسان أخيه الإنسان ويتنكر لكل ما حوله، نرى نداء رسول الله في هذا الموقف الجلل يوصي بحديثه المشهور بقوله: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل".. الذي فيه الحث على عدم إهمال الموازنة بين موارد الطبيعة رغم كل ظرف صعب، فإذا كان هذا حال المسلم يوم القيامة، وهذه هي وصية النبي محمد فكيف ستكون تعاليمه في عالم الدنيا للبشر ولعموم الإنسانية. وتنهال أحاديث رسول الله في هذا الجانب التربوي في مجال صحة البيئة والحرص عليها.

عن قتادة سمعت أنساً رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "هذا جبل يحبنا ونحبه"، وهذا فية دلالة على ارتباط الإنسان بالطبيعة.

عن عمرو بن الشريد يقول، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله عز وجل يوم القيامة منه يقول يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني لمنفعة"، وفيه إشارة للحفاظ على الثروة الحيوانية.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الريح، فإنها من روح الله تأتي بالرحمة والعذاب، ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها"، فلم يترك رسول الله ظاهرة طبيعية إلا وربطها بالإنسان وبالإيمان إنها معادلة لطيفة لا تخفى عن كل منصف، كما أن هذه العلاقة الحميمة بين الإنسان والطبيعة لم تنقطع في ظروف الحرب، إذ لم تذكر لنا كتب السيرة ولا كتب التاريخ أن رسول الله خلال غزواته أوصى بحربه على الطبيعة من خلال أوامره بحرق المدن وهدر الموارد البيئية (مياه، نبات، حيوان)، أو من خلال جيوش أرسلها، فلم يوصها بمثل هذا الأمر، بل لم تشهد لنا كتب التاريخ بمثل هذا الأمر لدى الرعيل الأول خلال عصر الخلافة الراشدة أو جيل الصحابة أو التابعين، وحتى كتب الفقه لم تجز لمثل هذا العبث بالبيئة أو مظاهر الحياة. ومن وصايا تلميذ المدرسة النبوية الشريفة سيدنا أبي بكر الصديق:

قال أبو بكر لأسامة وجنده: "لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً كبيراً و لا امرأة، ولا تعزقوا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيراً إلا للأكل. وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.. إلخ". إن هذه الوصايا مع سلوك دائم شكلت صورة بيانية للشخصية

المسلمة في حروبها وموقفها من الطبيعة خلال غزوات الرسول الكريم وفتوحات المسلمين من بعده على يد أصحابه، هي دالة واضحة المعالم لموقف الإسلام من الطبيعة، وإنه لمن حسن طالع الإسلام أنه عقد صلحاً أبدياً بين الإنسان والطبيعة، وإنه لمن سؤ طالع اليهودية أمران؛ أولها أنها أسيرة الحركة الصهيونية، ومن ثم أنها في حالة صراع وحرب مع البيئة والإنسان.

إيمان بنت حجو
والتوراة والطفولة

في مطلع شهرنا هذا تهل علينا ذكرى استشهاد الطفلة إيمان بنت حجو والتي ترافقت شهادتها مع ذكرى اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الباسلة والتي تعرف بانتفاضة الأقصى..

ومن الأمور الجديرة بالتحليل في انتفاضة الأقصى ظاهرة قتل الأطفال، إذ لم يتوقف الأمر عند هذا الحدث، حدث استشهاد الطفلة إيمان بنت حجو، بل بلغ عدد الأطفال الذين تم تعويقهم برصاص القوات الإسرائيلية أكثر من ٢٥٠٠ طفل بإصابات تسبب الإعاقة الدائمة، وهناك أكثر من ٣٣٠٠ مواطن استشهدوا خلال عمر انتفاضة الأقصى.

وفي الوقت الذي يسعى المراقبون إلى تفسير مثل هذا الحدث واعتبار مقتل محمود الدرة على أنة نتيجة تبادل للنيران، وأن مقتل إيمان بنت حجو هو محصلة خطأ غير مقصود، فإن هناك من يذهب به الشطط ليقول إن الفلسطينيون يدفعون بأبنائهم في الواجهة ليقتلوا من أجل إحراج إسرائيل، في حين أن الأمر ليس هذا ولا ذاك، لأن الحقيقة الغائبة في التحليل على الدوام هي عدم ذكر أو عدم التركيز على أن إسرائيل هي دولة دينية تحكمها قناعات دينية وتمارس سلوكاً دينياً.

فما يحدث في الأرض المحتلة تجاوز الحادثة المفردة إلى حوادث عدة، وتحول استشهاد الطفلة إيمان إلى سلسلة من الشهداء، بُدئت ولن توقفها إسرائيل، لأن اليهودي محكوم بقناعات ملزم بها قبل كل فعل، فله سلوكه الخاص به في التعامل التجاري، أو الموقف الخاص به في حالة السلم أو الحرب، وظاهرة قتل الطفولة هي إحدى الميزات التوراتية:

ذكر في سفر العدد: الإصحاح٣١، ما يلي،

١ - "وسبى بني إسرائيل نسأ مديان (وأطفالهم) ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل مواشيهم وكل أملاكهم وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار". (العدد:-٣١ ٩،١٠).

ولسنا هنا بصدد تحليل النص وما فيه من صلاحيات، إلا إن المهم هو متابعة كثرة النصوص بجواز قتل الطفولة.

٢ - "وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من (طفل) وشيخ حتى البقر والحمير بحد السيف". (سفر يشوع:٦-٢١).

٣ - "ولا تعف عنهم، بل اقتل كل رجل وامرأة (طفلاً رضيعاً) بقراً وغنماً جملاً وحماراً". (صموئيل أول:١٥-٤). إن هذا يمثّل القاعدة الشرعية لمقتل الطفلة إيمان بنت حجو.

٤ -"فتهلك السامرة لأنها بغت على إلهها فيبادون بالسيف (وأطفالهم) ينطرحون وحبلاهم تشق بطونهم". (هوشع: ١٣-١٦). هذا الأمر من غرائب التشريع بجواز بقر بطون الحوامل من النساء، وهو الأمر الوحيد بجواز بقر بطن المرأة الحامل في الأديان.

٥ - "فالآن اقتلوا كل ذكر من (الأطفال) وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها" (سفر العدد: ٣١-١٥).

كما تروي لنا التوراة قتل النبي داود لأولاد النبي شاؤل:

٦ - "قتل داود لأولاد شاؤل السبعة بعد وفاة أبيهم النبي شاؤل" (سفر يوئيل:٣-٨).

٧ - "وأهلك بك الممالك، وأكسر بك الفرس وراكبه، وأسحق بك المركبة وراكبها، وأسحق بك الرجل والمرأة، وأسحق بك الشيخ و(الفتى)، وأسحق بك (الغلام) والعذراء". (سفر أرميا: ٥١-٢٠،٢٣). دعاء مستجاب، فلم يترك رب التوراة موقعاً لقتل الطفولة إلا وأوصى به.

٨ - إن للطفولة سلوكها المميز بكثرة الحركة أو الاعتراض أو حتى السخرية البريئة، التي هي أساساً ليست سخرية بقدر ما هي قوة ملاحظة وذكاء للطفولة، مثل ما نرى من سلوك الأطفال ومشاكساتهم وهم في رحلات المدارس وغيرها من مفردات الحياة، إلا أن التوراة لا تترك موضع قدم إلا وفيه الاستخفاف بالطفولة. ولا يقتصر الأمر على تهوين الطفولة، بل يتجاوزه إلى حد وصول النهاية المرجوة في السياق العام للتربية التوراتية، إلا وهو موت الطفولة، حيث يروي لنا سفر الملوك الثاني في الإصحاح الثاني قصة النبي إيليا، وكيف أن بعض الأطفال بمجرد أن لاحظوا قرعته وقالوا له "يا أقرع" كان الحل التوراتي السريع

هو موت ٤٢ طفلاً بمجزرة غلفت بطابع أسطوري حتى تأخذ شكل القبول، وبالمقابل حتى يكون الموت الجماعي لاثنين وأربعين طفلاً أمراً مقبولاً.. تقول التوراة في سفر الملوك:

"وفيما هو صاعد إذا بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له يا أقرع، اصعد يا أقرع، فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الرب،فخرجت دبتان من الوعر وافترستا منهم أثنين وأربعين ولداً، وذهب من هناك إلى جبل الكرمل ومن هناك رجع إلى السامرة" (سفر الملوك الثاني: ٢ - ٢٢،٢٥). نلاحظ أن نهاية الفعل هي ذهاب النبي إيليا دون اكتراث ودون متابعة للطفولة، وكأن النبوة تعني مزيداً من القسوة أو كأنها رخصة شرعية بجواز قتل الطفل.

٨ - ولم تكتفِ التوراة بمثل هذه التشريعات والرخص بالجواز، بل تمادت إلى حد منح الجنة لمن يفعل ذلك. تقول لنا مزامير داود، الإصحاح ١٣٧، ما يلي:

"يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا، طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة". (مزامير: ١٣٧ - ٩و٧). ومن خلال هذا العرض المتواضع نرى بأنه لم يحفل دين من الأديان بكثرة التشريعات في جواز استلاب الآخر في حالة السلم والحرب، ولم تحظى مجموعة دينية بخدمة يقدمها النص المقدس لها، مثلما يقدم العهد القديم وأسفار بني إسرائيل في خدمة الوجود اليهودي. ونحن في عرضنا لهذا الموضوع وغيره لا نقصد به إسباغ عبارات الاستغراب والاستهجان بقدر ما هو تحليل ظاهرة وتثبيت إدانة، لأن ما يحدث في إسرائيل هو من المعطيات المؤسسة للدولة اليهودية في فلسطين.

النزعة الصهيونية
من زوربابيل إلى هرتزل

بين الحين والآخر تقع ثلة طيبة من النخب الفكرية وبعض مثقفينا، في مطب التعبير عن الصهيونية على أنها حركة علمانية، ذات أهداف سياسية، وأنها في أقصى بعدها، نتاج للفعل القومي اليهودي. ورب سائل يسأل: أليست الصهيونية هي الحركة القومية للديانة اليهودية؟؟

نعم. هنا المقتل وهنا الجواب: عبر التاريخ السياسي هل هناك حركة علمانية تؤكد أن مرجعيتها دينية، وعملها وفق تصور ديني، وسعيها لتحقيق نبوءات دينية، وكل تكويناتها الثقافية دينية؟

وبين المنطلق الذي انطلقت منه الصهيونية لتحقيق وعد الرب، إلى النتيجة؛ أي تحقق الوعد، مساحة من التحالفات والمصالح، فعلاقة الصهيونية بالرأسمالية ليست دالة على علمانيتها، بقدر ما هي دالة على تبعيتها، وكون الصهيونية أداه بيد الاستعمار والإمبريالية ليس فيه دلالة لسمة علمانية، فهذا مرتبط بالطبيعة اليهودية، كون اليهودية على الدوام ذات طبيعة وظيفية.

ولسنا هنا أمام ظاهرة غريبة حتى تكون هناك إشكالية جدلية، فالسياق التاريخي، للعودة إلى أرض فلسطين، هي من مهام الفعل اليهودي، فكراً وممارسةً.

وتعتبر أول شخصية صهيونية في التاريخ القديم هي شخصية زوربابيل الذي قاد أول حملة للعودة، بعد سقوط الدولة البابلية على يد الإمبراطورية الفارسية الصاعدة، وذلك سنة ٥٣٩ – ٥٣٨ ق.ب. وقد ورد ذكر هذه العودة في سفر عزرا (الإصحاح الثاني) بقيادة زوربيال.

والحملة الثانية من حملات العودة قادها عزرا في عهد أرتحشتا، وذلك سنة ٤٥٨ – ٤٥٧ ق.ب. وقد ذكرت هذه العودة في الإصحاح السابع لسفر عزرا.

والحملة الثالثة كانت على يد النبي نحميا سنة ٤٤٤ - ٤٣٢. ق. ب. وقد ذكرت هذه الدعوة والعودة في سفر نحميا (الإصحاح الثاني).

وإذا كانت الحملة الأولى للعودة تمت من خلال الحنين لأرض المنشأ والسكن، ولها ما يبررها كون زوربابيل هو حفيد يوقاهيم ملك يهوذا عند السبي، فإن التفسير المنطقي لعزرا لقيامه بحملة ثانية للعودة إلى أرض الميعاد هو وجود نوازع صهيونية. وإذا علمنا أن عزرا عاد بعد مائة وتسع وثلاثين سنة من السبي فهو ليس من جيل النكبة، ولا من المسببين، بقدر ما هو من أحفاد الأحفاد، هذا إذا أضفنا الحملة الثالثة للنبي نحميا لتؤكد على النزعة الصهيونية ذات المنشأ الديني.

ومن المظاهر الصهيونية هناك دعوة المسيح المنتظر، فأساس هذه الدعوة ليس وجود مخلص، ونبي، ورجل سلام، فهذه الموصفات، يمثلها ويجسدها سيدنا المسيح عليه السلام، ولكن من خصائص هذه الدعوة أمر مهم مرافق لها، وهو العودة إلى فلسطين، فالمفهوم المسيحي وفق المنظور اليهودي مرتبط بالعودة إلى أرض الميعاد، فالنزعة الصهيونية متلبسة السلوك الديني، والمعتقد اليهودي في آلية الشخصية وحركتها صهيوني النتائج.

- ومن هذا المنطلق برز شاب يهودي سنة ٦٤٠.ب.م، من بيت أرامايا من قرية الفلوجة بالعراق على اعتبار أنه المسيح المنتظر، وتسبب خروجه بإحداث شغب وتم القضاء على حركته.

- وفي عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز وأول خلافة يزيد الثاني سنة ٧٢٠ – ٧٤٠ ب.م، من بلدة شيرين خرج داعية يعتبر نفسه المسيح المنتظر، وكانت أولى مهامه تحقيق معجزة العودة إلى فلسطين.

- وفي القرن نفسه ظهر يهودي آخر من أصفهان يدّعي أنه المسيح المنتظر، يدعى عبيد الله أبو عيسى بن يعقوب، وأساس دعوته أن عودة فلسطين لا تتم إلا بالقتال، وأعد جيشاً من اليهود في عهد السفاح، إلا إن الخليفة المنصور قضى على الحركة وهزم جيش اليهود، وفر أبو عيسى باتجاه الشمال.

- وفي أوائل القرن الثاني عشر ظهرت حركة خلاص صهيونية تدعو للخلاص من خلال العودة إلى فلسطين، وكان صاحب هذه الدعوة يهودياً من خزاريا اسمه سليمان بن

دوجي. ولم يكن الداعي خزارياً فقط، بل إن هذه الدعوة ظهرت في خزاريا، حيث تهودت هذه المجموعة في القرن العاشر بعد الميلاد، وفي أقصى الأمر القرن التاسع بعد الميلاد، فهم ليسوا طرفاً في الشتات، ولا هم من أبناء يعقوب، وليست لهم علاقة بالهيكل أو ما يسمى معبد سليمان.وفي الدعوة الصهيونية التي انطلقت من خزاريا دليل على الأثر التوراتي والتلمودي لإنعاش وتحريك النزعة الصهيونية في الوسط اليهودي.

وكان من أبرز تلامذة سليمان ابن دوجي، داود ابن روحي، حيث كانت حركة داود أشد أثراً.

وفي حوالي سنة ١١٦٠.ب.م حدثت فتنة كان سببها يهودياً يدعي داود بن روحي كان قد ادعى أنه المسيح المنتظر. وهو من اليهود الخزر، وأرسل أحد رسله إلى بغداد ثم اختار العمادية في شمال العراق ليعلن نبوته، وطلب من الناس أن يتجمعوا في ليلة بذاتها على أسطح منازلهم ريثما تحملهم السحب إلى مواقع المسيح المنتظر، فاستجاب له عدد من اليهود من العجم وأذربيجان وسواد الموصل. وتذكر الأخبار أن داود أبن روحي قتل مذبوحاً أثناء ما كان غارقاً في نومه.

والذي يهمنا من دعوة داود أمران:

- **النجمة السداسية التي أصبحت رمز الوجود الصهيوني.**

فوفقاً لأحد التفسيرات، فإن درع سليمان المسدس الذي يزين علم إسرائيل قد بدأ ظهوره كرمز قومي مع الحركة الصليبية لداود، ويكتب بارون: ومنذ ذلك الحين اقترح درع داود المسدس لأغراض زخرفية أو كرمز سحري، ثم بدئ باتخاذه الرمز الديني القومي الأول لليهود، وقد استخدم لفترة طويلة بالتبادل مع النجمة الخماسية ونسب إلى داود في كتابات صوفية ودينية جرمانية تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي فصاعداً، ويورد باورن ملاحظة تتناول هذه الفقرة بالتقييم مشيراً إلى أن الصلة بين داود الروحي والنجمة المسدسة ما زالت تنتظر مزيداً من التفسير والإثبات.

• **بقاء أثر داود ابن روحي:**

وقد تجلى أثر داود الروحي بأن النجمة السداسية التي اقترحها، أصبحت دالة على الفعل الصهيوني، إذ تم رفع العلم اليهودي حاملاً النجمة السداسية سنة ١٥٢٧، في براغ، كمفهوم صهيوني، واستمرت نجمة داود حتى عصرنا الحديث، رمزاً دينياً وفعلاً سياسياً.

ومن المدّعين الكذَبة ذات النزعة الصهيونية شبتاي تسفي، وهو من أقوى الشخصيات تأثيراً في العصر الحديث، حيث أعلن عن كونه مسيح هذا الزمان سنة ١٦٥٦.

وكان اللورد شافتسبري السابع (١٨٠١ – ١٨٨٥)، مؤسس الفكر الصهيوني الحديث، طالب بتوطين اليهود في فلسطين بحيث تحل أوروبا مسألتها اليهودية عن طريق التخلص من الفائض اليهودي فيها، وكان الحل هو جوهره الفعل الصهيوني، وكل تطورات آلية العمل في أوروبا وأمريكا تستند في رأينا على هذه الديباجة.

ومن الشخصيات الصهيونية الفريد نوسيج (١٨٦٤ – ١٩٤٣)، إذ يعتبر أحد مؤسسي الحركة الصهيونية الحديثة، ونشر أول عمل صهيوني له بالبولندية.

وكان ثيودور هرتزل (واسمه اليهودي بنيامين زئيف ١٨٦٠ - ١٩٠٤) مهندس مؤتمر بازل الذي عقد سنة ١٨٩٧ والذي يعدّ تتويجاً لسلسلة من الممارسات والدعوات الصهيونية، ولم يكن التاريخ اليهودي تاريخاً فارغاً من الدعوات الصهيونية، إلا أن اعتبار مؤتمر بازل وما نتج عنه برئاسة هرتزل، علمانياً، والمقياس على علمانية عدم تدين راعي المؤتمر، لكن عدم التدين لا يلغي التعصب، وأهم سمة للصهيونية هي التعصب، كما أن هناك زعماء قوميين متعصبين وعلى درجة كبيرة من الشهرة مثل يوفال نيمان والجنرال رفائيل إيتان، لم تطأ أقدامهم أبداً عتبة المعابد اليهودية، مثلهم مثل جميع أعضاء الحكومات الإسرائيلية.

وأفضل ما قيل هو ما كتبه أستاذنا الفاضل جورجي كنعان:

"هذه الشخصية المختارة، كان لا بد لها من أرض تأخذ بها أبعادها، والأرض أيضاً مختارة حددها الرب في وعوده المتكررة لأنبياء إسرائيل".

فالارتباط اليهودي بأرض فلسطين قوي جداً، لأنه نتيجة حتمية لارتباطه بدينه، من هنا كانت الديانة اليهودية قومية. كما كانت القومية اليهودية دينية، فلا فرق عند اليهودي

بين دينه وقوميته، ولا معنى لأحدهما من دون الآخر، لأن هذين المقومين يكوّنان شخصيته الدينية والدينوية.

ومخطئ من يقول إن اليهودية دين، والصهيونية أرض، وإن خلط بينهما. أقول: مخطئ من يدعي هذا القول، لأن الدين اليهودي يتضمن جميع مبادئ الصهيونية، والصهيونية متجذره في الدين اليهودي. ولا وجود لحدود فاصلة بين شريعة اليهود الدينية، وبين مقومات قوميتهم. لأن الشريعة اليهودية تتلخص في تمجيد عنصرهم وتقديس عرقهم، وتبشيرهم بأنهم شعب الله المختار ووعدهم بأرض يخطط حدودها الرب.

الطبيعة الوظيفية لليهودية
من وعد قورش إلى وعد بلفور

يطلعنا استاذنا الفاضل عبد الوهاب المسيري في موسوعته التفسيرية، "اليهود واليهودية والصهيونية"، بتوضيح ماهية الجماعات الوظيفية: "الجماعات الوظيفية هي مجموعات بشرية صغيرة يقوم المجتمع التقليدي بإسناد وظائف شتى إليها يرى أعضاء هذا المجتمع أنهم لا يمكنهم الاضطلاع بها لأسباب مختلفة. قد تكون هذه الوظائف مشينة في نظر المجتمع ولا تحظى بالاحترام في سلم القيم السائدة (كالتنجيم – البغاء - الربا)....

ويحاول الاستعمار دائماً أن يحول أعضاء الأقليات إلى جماعات وظيفية تضطلع بوظائف يسندها إليها وتتمتع بمزايا تقدمها لها حتى تدين له بالولاء".

ويحدد الدكتور المسيري بعض سماتهم: "(هم) يعيشون فعلاً في المجتمع المضيف، يؤدون وظيفتهم فيه بشكل يومي، ومن ثم فهويتهم هوية وهمية. وعضو الجماعة الوظيفية هو إنسان اقتصادي محض له بعد واحد (وظيفة محددة) متحرر من القيم الأخلاقية السائدة، يكرس ذاته لمنفعته ولذته ويؤمن بازدواجية المعايير.

أما الدولة الوظيفية، فيرتبط مفهومها بمفهوم الجماعة الوظيفية، والدولة الوظيفية هي الدولة التي تؤسس أو يعاد صياغة توجهها أو توجه نخبها لتضطلع بوظيفة معينة ويصبح جوهرها هذه الوظيفة، فالدولة الوظيفية هي إعادة إنتاج لدور الجماعة الوظيفية في العصر الحديث.

والدولة الصهيونية الوظيفية هي دولة تتسم بكل سمات الجماعات الوظيفية، فهي تدخل في علاقات تعاقدية نفعية مع الغرب خدمة للمصالح الغربية نظير أن يقوم الغرب بحمايتها، وهي دولة جيتو - قلعة منعزلة عن محيطها الحضاري، ولديها إحساس عميق بتفوقها ورسالتها المقدسة وتتبنى أخلاقيات مزدوجة في علاقتها مع الذات ومع الآخر".

والسؤال الذي يطرح نفسه عند تحليل الظاهرة الصهيونية، قديما وحديثاً: هل نتلمس في التكوين اليهودي مثل هذه السمات؟؟

يذكر لنا آرثر كوستلر في "إمبراطورية الخزر" (ص ٢٣١) هذه الحادثة وما لها من دلالة: "تضمنت إحدى كراسات الربانين المتداولة في بولندا في القرن السابع عشر الميلادي دعاء يقول: لتكن إرادة الله أن تفيض البلاد بالحكمة وأن يتكلم اليهود الألمانية"، إن هذا الدعاء يعبر عن الحالة النفعية للشريحة اليهودية وحاجتها إلى القوة الصاعدة، فهو إرضاء لها وتعبير عن القابلية عن الخدمة والاستعداد لذلك، ويؤكد هذا السلوك المصدر اليهودي المتمثل بالتوراة الذي يشكل شرعية وقاعدة لمثل هذا التعامل حيث يقول سفر إرميا:

"هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل، ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها، واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها، وصلّوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام.." (سفر إرميا، الإصحاح ٢٩: ٩،٥). فالمصلحة هنا أن سلام اليهود مقترن بسلام الإمبراطورية البابلية، رغم السبي البابلي، لذا وجب الدعاء والتجاوز عن مسمى العودة، بل وجب السكن والبناء وغرس المزروعات، إنها صورة نفعية، وهي إحدى سمات المجتمع الوظيفي.

والسلوك النفعي الوصولي نراه يتجلى في أقوى صورة عند السعي لتأسيس كيان يهودي، بغضّ النظر عن هذا الكيان ومدى صلاحيته وقوته، إذ نرى السمات المادية البحتة للعلاقة الوظيفية للشريحة اليهودية تبرز على الفور.

"جاء في تاريخ ابن العبري أن كورش ملك فارس الذي على يديه تمت إعادة قسم من اليهود إلى بابل، برئاسة زوربابيل، أن كورش تزوج من أخت زوربابيل ولما دخل بها ارتفعت عنده وقال لها اطلبي مني ما شئت، فطلبت منه عودة بني إسرائيل إلى أورشليم وأن يأذن لهم بعمارتها".

ليس في الأمر غرابة، فهذا السلوك التاريخي له ما يبرره في التوراة، حيث تذكر لنا التوراة أكثر من قصة حول جواز استغلال المرأة وظيفياً، ففي سفر أستير قامت أستير بالدور نفسه: وبتوجيه من قبل مردخاي الموظف اليهودي في بلاط الملك الفارسي أحشويروش، وكُرمت ومُنحت سفراً باسمها سمي سفر أستير، وفي سفر راعوث يتم الحديث عن امرأة قامت بعمل

مثل ذلك ولكنه أدنى درجة، إذ تقوم راعوث بتنفيذ وصية عمتها وتمتد بين فخذي بوعز لتنال نعمته ورضاه، وتكريماً لفعلتها الجنسية المثيرة سمي السفر باسمها، وكذلك قصة الرجل اللاوي الذي قدم زوجته فدية جنسية عوضاً عنه وتم اغتصابها حتى الموت، وقصتها ذكرت في الإصحاح التاسع عشر من سفر القضاة من أسفار العهد القديم.

إن هذا الاستعداد سيسهل لنا المدخل لقابلية اليهود بأن يشكلوا دولة وظيفية، تقوم بخدماتٍ ما لقاء مكاسب محددة، ترى هذه الشرائح الوظيفية بأن ما تحققه من مكاسب يسد حاجتها ويكفيها.

الدولة الوظيفية اليهودية عبر التاريخ

إن القيام بالدور الوظيفي للتكوين اليهودي كان ثمنه باهظاً، فليس كل سلوك مردوده مردوته نفعي بحت، فالتقلبات اليهودية بين قوى الصراع كلفها كثيراً، إذ كانت المنطقة من شرق الفرات إلى وادي النيل، هي قطبا الصراع بين قوتين دوليتين، هما (آشور، بابل) ومصر، وبينهما دويلات على شكل إمارات أو مشايخ قبلية تعلن ولاءها لإحدى القوتين وكانت الشريحة اليهودية تمتاز عن غيرها بسلوك انتهازي بين القوتين مما سبب لها خسائر كثيرة، وبسبب كثرة التقلبات تعرضت الإمارة اليهودية إلى حملات عسكرية:

١ – حملة ملك آشور تغلات فلاسر (٧٤٥ – ٧٢٧). سفر الملوك الثاني:١٥ ٢٧،٢٩–.

٢ – حملة ملك آشور شلمنصر الخامس (٧٢٦ – ٧٢٢). سفر الملوك الثاني: ١٧ – ٣.

٣ – حملة ملك آشور سنحاريب (٧٠٤ – ٦٨١). سفر الملوك ثاني: ١٨ ٧،١٤–.

استقر الأمر لإمبراطورية آشور في المنطقة، وتبع ذلك الاستقرار، استقرارٌ في كل الولايات التابعة لها ومنها فلسطين (دويلة أورشليم) تسعين عاماً حتى سقوط المملكة الأشورية وقيام دولة بابل بقيادة نيو بلاصر، وكان شعور الدولة المصرية بخطر الدولة البابلية، واستثمار مصر للتواجد اليهودي، وتقديم الدعم لهم ليقوموا بخدمة وظيفية هي القتال.. قد عوض الدولة المصرية لقاء الدعم المصري.

"كما تزايد عدد اليهود المرتزقة، وبدأت بعض الجماعات اليهودية تتحول إلى جماعات وظيفية استيطانية وقتالية وتجارية. ومع ظهور التجمعات اليهودية المختلفة خارج فلسطين،

بدأ أعضاء الجماعات اليهودية يبتعدون عن الزراعة ويعملون في التجارة. ويمكن القول إن أول دياسبور يهودي حقيقة هي الجماعة العبرانية الاستيطانية القتالية التي وطّنها فراعنة مصر في جزيرة إلفنتاين، لحماية حدود مصر الجنوبية، وهو تقليد استمر بعد ذلك في مصر البلطمية وفي سوريا السلوقية".

كان سلوك اليهود في بابل هو سلوك من لا وطن له، يحيا في أرض بابل ويأكل من خيراتها، ثم يتعاون مع الأجنبي لاحتلالها، والثمن أن يكون ستراً ومتراساً للإمبراطورية الصاعدة، إذ تذهب بعض التفسيرات التاريخية إلى أن مساعي كورش كانت لسببين، أولهما رد الجميل لما قام به اليهود من خدمات له، والآخر هو أن ينشئ دولة جديدة في فلسطين تحت سيطرته تكون مانعاً بشرياً عسكرياً بين مصر وفارس.

كانت إسرائيل القديمة حسب وعد كورش هي الحد الفاصل بين مشرق الأمة ومغربها، وها هي إسرائيل العصر الحديث حسب وعد بلفور. أليست هي كما كانت قديماً، لها دور وظيفي خدمي تقوم به؟ وهل تختلف من حيث المهام والدور؟ إسرائيل القديمة فعلٌ من قوة عظمى هي إمبراطورية فارس، وإسرائيل الحالية هي فعلٌ من أفعال الدول العظمى ليس إلا.

أما موقف النص المقدس من الراعي للتكوين اليهودي، فيذهب في الغلو مذهبه، فيوصف ملك مثل كورش بأنه مسيح الرب، حسب ما ذكر في سفر إشعيا: "هكذا يقول الرب لمسيحه كورش، الذي أمسكت بيمينه، لأدوس أمامه أمماً ويضعف سلطان ملوك، لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق، أنا أسير قدامك والهضاب أمهد، أسكر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد، وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ". (سفر إشعيا: الإصحاح ٤٥: ١، ٤).

ولسنا هنا بصدد مقارنة هذا النص مع نصوص سفر الخروج، والحلة التي منحت لكورش كما منحت لموسى، بقدر ما هي إشارة لتوظيف النص المقدس للحالة النفعية للجماعات الهامشية، لوضع طارئ مؤقت.

ويلاحظ القارئ الفارق بين نص سفر أرميا ونص إشعيا، الأول يمجد ببابل لأنها كانت الإمبراطورية الفاعلة، والثاني يمجد بفارس كونها الإمبراطورية الصاعدة.

وبالمقابل نرى الإيقاع نفسه مع اختلاف مفرداته، فالعالم الحالي الذي يغضّ الطرف عن هذه الدويلة هو العالم المتحضر، عالم النور، قوى السلام، المجتمع المتمدن، والرجل الأول في العالم الذي يدعم ويغطي أفعالها، يُمنح كل الصفات، إذ ليس من السهل وصفه مثلما وصفت التوراة كورش كونه مسيح الرب، ولكن نرى المديح والثناء الديني للشخصيات السياسية الداعمة لإسرائيل، وهذا ما نراه في الإيقاع مع شخص مثل دبليو بوش، فهو صاحب المهمة السماوية، وهو التائب، وهو الذي يخوض الحرب العادلة من أجل الإنسانية.

العلمانية الكذوبة
في إسرائيل

في أوائل القرن السادس عشر، ومع ظهور حركة الإصلاح الديني، في أوروبا خصوصاً، بدأت إفرازات التحرر من الكهنوت، بدعوة الإصلاح، ثم أعقبتها دعوة فصل الدين عن الدولة، وكانت خصخصة المؤسسة الدينية بتثبيت الدعوة بفصل الدين عن السياسة.

ومع كل دعوة وممارسة علمانية تتعزز ظواهر مرافقة، أو الأدق هي إفرازات للظاهرة العلمانية: وهي تدعيم الممارسات الديمقراطية وتكوين مؤسسات المجتمع المدني.

وكل ردة عن هذه الظواهر السياسية والاجتماعية لا يمكن قبولها.

إذ ليس من المنطق وصف مجتمع ما بكونه علماني وهو يمارس الاضطهاد الديني. وليس من الإنصاف وصف المجتمع ذاته، بالمجتمع الديمقراطي وهو يقوم بكل الأفعال ذات التميز العرقي والمبنية على أساس ديني. ولن تمر سياسة التضخيم والتهويل للتكوينات الأصولية المتشددة وإسباغ صفة المجتمع المدني عليها، حيث تقوم هذه الكيانات بسياسة إلغاء وقمع كل الظواهر التي تختلف معها أو تكون معارضة لها.

يراهن العالم الغربي عموماً، والأمريكي خصوصاً، على الكيان الصهيوني، كونه النموذج والأمثولة في الشرق الأوسط، حيث المثل الأقوى للعلمانية والأفضل في الديمقراطية.

وسُخّر للترويج لمثل هذا المشروع قوى دولية وإقليمية ومحلية، حتى بدأ النخر في الأوساط الشعبية البسيطة من ترويج لمثل هذه المعلومة المغلوطة، كما بدأ المواطن يضرب المثل تلو المثل بالكيان الصهيوني، إنه التطبيع الخفي الذي يسبق البرتوكولاً الرسمية. ولكن هذا المواطن لا يعلم أن هذا التكوين هو عبارة عن قوة دينية متشددة، تحركها أجندة دينية وتمارس الفعل الديني بكل تفاصيله، فلا يبدو في الأفق إلا كيان أصولي متطرف.

تحدثنا التوراة في سفر اللاويين، الإصحاح ٢٥، عن طقس ديني يتمثل بوجوب سبت الأرض كل ست سنوات: "وكلم الرب موسى... وقل لهم متى أتيتم إلى الأرض التي أنا أعطيكم تسبت الأرض سبتاً للرب ست سنين تزرع حقلك وست سنين تقضب كرمك وتجمع غلتها، أما السنة السابعة ففيها يكون للأرض عطلة سبتاً للرب... ويكون سبت الأرض لكم طعاماً لك ولعبدك ولأمتك ولأجيرك ولمستوطنك النازلين عنك ولبهائمك وللحيوان الذي في أرضك". ولسنا في معرض النقد للمعتقد كون الله قد سبت بعد خلقه الكون، وعليه وجب السبت على الأرض والإنسان والزراعة والحيوان، ولا يهمنا ما يحمل النص من الخرافة أو الأسطورة، إلا أن الخطورة أن يتم إحياء مثل هذا المعتقد وتطبيقه وإلزام الدولة العلمانية بتحقيقه، وهذا القانون كان من ضمن القوانين المعمول بها في الوسط الزراعي اليهودي في التجمعات اليهودية. ومع بداية تأسيس المستوطنات الزراعية الأولى في فلسطين، أصبحت المسألة ذات أهمية عملية، فابتدع الحاخاميون المتعاطفون مع المستوطنين إعفاءً، وقام خلفاؤهم في الأحزاب الدينية الصهيونية بتحسينه حتى أصبح جزءاً من التقاليد الراسخة الإسرائيلية، وهكذا يعمل النظام الجديد: قبل كل سنة سبتية بوقت قصير يعطي وزير الداخلية الإسرائيلي لكبير الحاخامين سنداً يجعله المالك القانوني لكل الأراضي الإسرائيلية (والأرض المحتلة سنة ١٩٦٧) ليبيعها لشخص غير يهودي مقابل مبلغ رمزي، ويوقع معه وثيقة مستقلة تقضي بإلزام المشتري بأن يعيد بيع الأرض عند انتهاء السنة. وتتكرر هذه الصفقة مرة كل سبع سنوات. إن بيع دولة بأكملها كل ست سنوات لشخص، لتحقيق طقس ديني من قبل جهة رسمية متمثلةً بوزير الداخلية، لكبير الحاخامين، لدوام حركة الحياة داخل هذا الكيان، لا يتناسب مع أبسط المفاهيم العلمانية التي يتبجح بها منشئو هذا الكيان.

ومن طقس إلى طقس تموج هذه الدولة التي توسم بالعلمانية، وكل جزئيات حياتها اليومية التي تمثل أعلى مراحل الأصولية الدينية المتشددة.

ومن سبت الأرض إلى سبت الحليب، الذي يتضمن تحريم حلب البقر يوم السبت مما يدفع المستوطنين الإسرائيليين إلى استعمال العنصر العربي في فلسطين كي يقوم بمهمة الحلب، وكذا تحريم البذر، إذ لا يجوز وفق الشريعة اليهودية زراعة نوعين من البذور في أرض واحدة. (سفر اللاويين: الإصحاح ١٩ – ١٩)، وتتسع رقعة التحريم السبتي إلى تحريم المواد المخمرة إلى حظر الطحن يوم السبت، وكان المخرج للتلفيق بين علمانية إسرائيل ونزعتها

الأصولية، بـ"وفي إسرائيل جعل البيع الصوري أكثر إحكاماً، فاليهود يبيعون ما لديهم من المواد المحرمة إلى الحاخامين المحليين، وهم بدورهم يبيعونها إلى الحاخام الأكبر، وهو يبيعها إلى شخص غير يهودي، ويعتبر هذا البيع شاملاً المواد المحرمة لدى اليهود غير المتدينين". وبحكم سيطرة الأصولية الدينية على العقل المؤسس للكيان الصهيوني، وامتداد هذا الأثر عمودياً وأفقياً، قامت الدوائر الرسمية بإعداد كتيب حديث عن الواجبات الدينية أُعِدّ للجنود الإسرائيليين، حيث يعلّم هؤلاء الجنود كيف يحدّثون العمال العرب الذين يستخدمهم الجيش الإسرائيلي كغرباء السبت.

وفي الوقت الذي يتداعى البناء الكذوب للكيان العلماني، ليظهر أعلى حالات التطرف الديني سلوكاً، ويكشف عن أصولية دينية متشددة، نرى انعكاس ذلك على باقي مظاهر الفعل المرافق للعلمانية، إلا وهي الديمقراطية، فما هي ديمقراطية الكيان الصهيوني، الذي يفتخر الغرب عموماً كون إسرائيل النموذج الغربي في الوسط المتخلف؟

تجاوزاً لمرحلة التكوين و لما رافقها من مجازر بدءاً بدير ياسين، يطلعنا استطلاع من داخل الكيان الصهيوني، نشر بتاريخ ٢٠/١٠/ ٢٠٠٤، قامت به شركة (كيشت) التي أنتجت الفيلم الوثائقي "الحرب القادمة"، أن ٦٠ ٪ من الإسرائيليين يؤيدون طرد الفلسطينيون من طرفي الخط الأخضر، ونقلهم بالشاحنات إلى دول الجوار. وأن نسبة ٢٧ ٪ من الإسرائيليين يعتقدون أن الحاخام الفاشي (مئير كاهان) الذي اغتيل في الولايات المتحدة الأمريكية، كان صادقاً في مبادئه، والتي تتضمن طرد العرب من داخل الكيان الصهيوني وعموم فلسطين. ويؤيد ٣٠ ٪ من المستطلعين بإلغاء الحضر على حركة الكاهانا العنصرية.

وأظهر الاستطلاع أن ١٤ ٪ من اليهود داخل إسرائيل يرغبون أن يتزعمهم رجل على شاكلة كاهانا بسبب آرائه العنصرية.

إن تصاعد النزعة العنصرية داخل إسرائيل يتمثل من خلال مجموع ممارسات بدءاً بالانتخابات، بإصرار الناخب الإسرائيلي على إسناد اليمين المتطرف. فبعد تنحية (إيهود باراك)، تم انتخاب (نتن ياهو)، وبعد ذلك كان المنحى تصعيدياً بفوز (شارون)، إن فوز اليمين في داخل الكيان لا يحمل سمة سياسية فقط، بقدر ما يحمل سمة اعتقادية، حيث يلاحظ أن السمة الدينية هي الطابع الغالب على كل الظواهر السياسية اليمينية المتشددة، ليس في إسرائيل فقط، إنما هي صفة مرافقة لليمين المتطرف في عموم العالم الغربي.

إن هذه النزعة هي جزء ملازم للتكوين العنصري داخل إسرائيل، إذ رغم قصر عمر هذا الكيان، إلا أنه حافل بالممارسات الدموية وغير الديمقراطية، منها ما يعرف بحديث عام ١٩٨٠، داخل إسرائيل: "إذ في صيف عام ١٩٨٠ بعد محاولة بعض الإرهابيين اليهود بمحاولة اغتيال بسام الكشعة، رئيس بلدية نابلس الذي فقد رجليه، وكريم خلف رئيس بلدية رام الله، الذي خسر إحدى رجليه، تجمهرت مجموعة من النازيين اليهود في جامعة تل أبيب وشوت بعض القطط، وقدمت لحمها للمارة على أنه كباب من أرجل رؤساء البلديات،، وأي شخص شاهد هذه العربدة المرعبة – كما فعلت – لا بد وأن يقر بأن بعض الفظائع تستعصي على الإيضاح".

ومن ممارسات دموية إلى نسق تربوي لتأصيل النزعة العدوانية تجاه الآخر، "إذ قام الأستاذ (تاماران) بتجربة لأكثر من ألف طالب من الصف الرابع إلى الصف الثامن (المرحلة الأولية من الدراسة) حيث تدخل دراسة سفر يشوع في المنهج، ومن ضمنها رواية مذبحة أريحا التي قام بها يشوع، ثم سأل السؤال التالي: (لنفترض أن جيش إسرائيل احتل قرية عربية في الحرب، فهل يفعل مع أهلهم ما فعله يشوع مع أهل أريحا؟؟). كانت الإجابة بنعم بين ٦٦ ٪ و٩٥ ٪، حسب المدرسة والمستعمرة"، ومن خلال هذه الاستبانة يتضح مدى الأثر الديني في المؤسسة التعليمية لدولة علمانية كذوبة.

وقد صرح أحد الحاخامات في جيش إسرائيل أثناء غزو لبنان (لصحيفة هاآرتس)، في ٥ / ٧ / ١٩٨٢، بما يلي: "علينا إلا ننسى أجزاء التوراة التي تبرر هذه الحرب، فنحن نؤدي واجبنا الديني هنا (في أرض لبنان)، فالنص المكتوب يفرض علينا واجباً دينياً، هو أن نغزو أرض العدو".

ولم يكن تصريح الحاخام وفي صحيفة رسمية موقفاً فردياً، بمقدار ما هو توجه عام تولد ضمن التكوينات المتطرفة داخل إسرائيل، ومنها النزعة التبريرية والشرعية بجواز قتل المدنيين من عرب فلسطين، ففي عام ١٩٧٣ أذيعت هذه العقيدة على نطاق واسع لإرشاد الجنود الإسرائيليين. وقد نشر هذا التحريض رسمياً لأول مرة، في كتيب صادر عن قيادة المنطقة الوسطى في الجيش الإسرائيلي، والتي تشمل ولايتها منطقة الضفة الغربية. ويكتب الكاهن الأول في القيادة هذا الكتيب: "عندما تلتقي قواتنا بمدنيين خلال الحرب أو خلال ملاحقة ساخنة أو غزو، ولم يكن مؤكداً أن أولئك المدنيين غير قادرين على إيذاء قواتنا،

فوفق أحكام الهالاخاه، يمكن، لا بل يجب قتلهم.... عندما تهاجم قواتنا العدو، فهي مصرح لها، لا بل مأمورة وفق أحكام الهالاخاه، بأن تقتل حتى المدنيين الطيبين" .

سؤال يطرح نفسه: في أي بلد عربي يوجد رجال دين يحرضون جنودهم على قتل المدنيين، وفي أي مدرسة من مدارس العالم العربي تدرس النزعة العدوانية ضد الآخر، وأي حاكم من حكام العرب يبيع دولته لعالم دين مسلم لمدة عام كامل لأجل تحقيق طقس ديني؟

فأين العلمانية في دولة إسرائيل حيث كونها وطناً للجنس اليهودي فقط؟

وأين العلمانية لدولة ترعى الأحزاب الدينية المتطرفة؟

سؤال مشروع لليبراليين الجدد دعاة محو الهوية من دون ثمن.

العملية السلمية
بين الإرادة السياسية والعقدة التوراتية

إن الحياة التي نحياها رغم اتساعها وعقدها، تحمل كثيراً من البساطة في أصل توازن العلاقات فيها، وهذا المدلول يتأتى من كون كل علاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ناتجة عن عقد.

فالزواج هو عقد بين طرفين، وإيجار المسكن هو عقد بين طرفين (إيجار واستئجار) ومهما اتسعنا في هذه العلاقة نرى أن الفاعل هو العقد أو العقود، فالعلاقة بين بلدين هي عقد سواءأكان هذا العقد سياسياً أم ثقافياً أم تجارياً، وهكذا كل عقد. وأساس نجاح العقود، أي أساس نجاح واستمرار دورة الحياة يتأتى من خلال الالتزام بعقودها، أي الوفاء بالعهد أو الوفاء بالعقد.

والعملية السلمية هي أيضاً عقد بين طرفين، وباختلاف المداليل و المضامين حول عملية السلام، أهي عقد أم هدنة أم معاهدة سلام، فإن محصلة هذه المضامين هو وجود طرفين متعاقدين. وقد مرت أكثر من عشر سنوات على عملية السلام، وعلى الرغم من المكاسب التي جنتها إسرائيل من هذه العملية إلا أنها ولا تزال ترفض العملية السلمية.

فهل الرفض بسبب الدعم الأمريكي، أم أنه بسبب العنجهية اليهودية؟ أم أن هناك عقدة تهيمن على العقل اليهودي بالرفض وعدم الوفاء لأي عهد أو أي عقد؟ إن القاعدة الدينية والفكرية التي تحكم المؤسسة العاملة في داخل الأرض المحتلة هي النص المقدس، ويجب على الدارسين لدولة إسرائيل عدم إغفال الأثر التوراتي والتلمودي عند تحليل الظواهر في المجتمع الإسرائيلي، والغريب في الأمر أن الصحف والفضائيات عندما تتجنب ذكر اسم إسرائيل تقول "الدولة العبرية"، وهذه الصيغة هي صفة دينية، إلا أنه عند رصد الظاهرة اليهودية وما فيها من سلوك، نرى عبوراً وتجاوزاً عن أثر النص الديني المؤسس لهذه الدولة، وكأن الدولة اليهودية ولدت من فراغ فكري عقائدي.

نعم هناك عوامل خارجية ودور استعماري ومطامع في المنطقة كانت سبباً في وجود إسرائيل، إلا أن تحليل سلوك المفردة الاجتماعية داخل الدولة اليهودية وموقف اليهودي من الآخر لا يمكن إرجاعه إلى العامل الخارجي، إذ أن التحليل أحادي الجانب لمثل هذا النمط من السلوك فيه تجنٍّ على عوامل عدة منها أثر النص المقدس المؤسس للدولة العبرية، فعلى الرغم من علمنة المؤسسة الإسرائيلية وما يصاحبها من مظاهر الفعل العلماني، إلا أن الفعل الديني هو المحرك على الدوام في سلوك الظاهرة اليهودية.

والقاعدة الدينية تقول:

أ - "احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آتٍ إليها لئلا يصير فخاً في وسط". (سفر الخروج: ٣٤ - ١٢).

٢ - "احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض". (سفر الخروج: -٣٤ ١٥).

٣ - "لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم" (سفر التثنية:-٧ ٣).

إذن لا عهد عموم العهد (أي لا عهد ولا وفاء للعهد)، وأي أرض عموم الأرض، أي ناس عموم الناس. هذه هي الخلفية الشرعية وهذا هو السلوك الأخلاقي العام الذي يحكم العقل اليهودي قديماً وحديثاً، لذلك نرى عندما عاهد يعقوب وأولاده حمور وشكيم، أن حمور وشكيم قد التزموا بعهدهم مع يعقوب، ولكن العائلة اليعقوبية لم تفي بعهدها.

٤ - "فحدث في ذلك اليوم إذ كانوا متوجعين أن ابنيّ يعقوب شمعون ولاوي أخوي دينة أخذ كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف. ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة" (سفر التكوين: -٣٤ ٢٧،٢٥).
يا لها من نهاية مؤلمة؛ قتل الناس غدراً لمن له علاقة مصاهرة، إذا علمنا أن شكيم هو صهر يعقوب وزوج ابنته دينة، والأَمَرّ من ذلك أن القتل تم لمن وفى عهداً، ثم أعقب ذلك نهب وسلب لساكني المدينة. إنه السياق العام للتربية التوراتية للمؤمنين بها على الدوام.. سياق تربوي لإقناع اليهود بعدم الوفاء بالعهد. إن سلوك أبناء يعقوب أمر طبيعي، إذ على الرغم مما ذكر من رخص للانفلات في السلوك وعدم وجود ضوابط يؤكد العهد القديم على هذه الخاصية اليهودية:

٥ - "لا تأتمنوا صاحباً، لا تثقوا بصديق، احفظ أبواب فمك عن المضطجعة في حضنك. لأن الابن مستهين بالأب، والبنت قائمة على أمها، والكنة على حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته" (سفر ميخا: ٧- ٥،٦). على الرغم من الصفة التشاؤمية لمثل هذة الوصية، إذ افتقدت الأسلوب التربوي، وزرعت عوضاً عنه سلوك الريبة، إلا أن إقرارها بعدم الثقة بالصاحب والصديق والأب والأم والكنة والعمة، مما يجيز أصلاً عدم التعامل مع الآخرين وعدم الالتزام بكل عهد واتفاق. وفي الميثاق الذي تم بين نبي الله داود أن لا يقتل أولاد نبي الله شاؤل ولا يقطع نسله، فحلف له داود من أجل ذلك:

٦ - "فاحلف لي الآن بالرب لا تقطع نسلي من بعدي ولا تبيد اسمي من بيت أبي، فحلف داود لشاؤل" (صموئيل:٢٤ ٢١،٢٢-)). وكانت نتيجة هذة الإيمان من قبل النبي إلى نبي هي:

٧ - "فصلبوهم على الجبل أمام الرب فسقط السبعة معاً وقتلوا في أيام الحصاد في أولها ابتداء حصاد الشعير". (صموئيل:٢١ - ٩). وفي السيرة التوراتية حوادث تعبر عن الاستخفاف بالمواثيق والعهود مهما كانت بسيطة وجزئية. وفي حادثة العهد الذي تم بين داود وشمعي ابن جبرا تعبير عن مثل هذه الاستهانة بالعهود، تقول السيرة إن شمعي أغضب الملك داود خلال إحدى الحروب فخاف العبد الفقير من سيده وطلب منه الرحمة.

٨ - "ثم قال الملك لشمعي ابن جبرا لا تمت وحلف له الملك". (صموئيل ثان: ١٩-٤). إذن هو العفو، فنم رغداً يا شمعي لأنك عاهدت ملك اليهود،إلا أن المفاجأة كانت عندما أدرك داود الموت فأوصاه ابنه وقال له:

٩ - "هو ذا عندك شمعي ابن جبرا من يحوريم هو لعنتي لعنة شديدة يوم انطلقت إلى محانيم، والآن لا تتركه دون عقاب لأنك رجل حكيم فاعلم ما تفعل به واحذر شيبته". (ملوك أول: ٢-١٢). هذه هي النهاية المتوقعة لكل عهد وكل ميثاق؛ الغدر ثم النكث وعدم الالتزام. إنه الأثر التربوي للنص الديني، لخلق مناخ رافض لكل العهود، وخلق أجيال من المتشددين اليهود الذين يعتبرون نكث العهود تديناً وسلوكاً إيمانياً يعتز به اليهودي، ومن دون خوض في تفاصيل العملية السلمية ما لها وما عليها، فإن كثرة العقود وكثرة المواثيق من مدريد إلى أوسلو ثم ما تبعها عهود جديدة، في واشنطن، وشرم الشيخ، وواي

ريفر، وشرم الشيخ الثاني، والقاهرة، واتفاق تند، إضافة إلى عشرات الاتفاقات الأمنية وعشرات اللقاءات الثنائية.. كلها تعبير عن تفسير الظاهرة اليهودية كونها عينة لا تؤمن بالوفاء بالعهود، ومن غرائب التوراة أنها تنظر إلى السلام نظرة تختلف عن مثيلاتها من الأمم والشعوب، حيث توضح لنا التوراة هذا المفصل المختلف في موقفها من عملية السلام أو التعهدات مع الآخرين:

١٠- "حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك". (سفر التثنية:٢٠-١٠).

١١ - "وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة، بل تحرمها تحريماً". (سفر التثنية:٢٠-١٦). ففي العلاقات الدولية والاجتماعية تحدد التوراة خطين لا ثالث لهما، ففي حالة إقرار السلم من قبل دول الجوار والتي قبلت الصلح تكون مكافأة الصلح وعربون المحبة الذي يمنح لهذه الشعوب، كونها شعوباً مسالمة استجابت للسلم، بأن يكونوا عبيد ويقعوا تحت قانون السخرة، أيُّ إكرام توراتي هذا، وأي فضل وأي نعمة لشعوب المحبة للسلام تكون نتيجتها السخرة والعبودية.

إذن ماذا تريد منا إسرائيل بعمليتها السلمية؟ يجيب سفر إشعيا عن هذا السؤال بقوله: "ويقف الأجانب ويرعون غنمكم، ويكون بنو الغريب حراثيكم وكرّاميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب تسمون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتآمرون" (سفر إشعيا:٦١-٥،٦٩). لقد أغنانا النص عن البحث في دهاليز الاتفاقات السرية والعلنية، وبيّن أن عملية السلام بين فكي كماشة النص المقدس، لا التزام لأي ميثاق محلي أو إقليمي أو دولي، وإذا حدث التزام ما، فهذا يعني أن تتحول شعوب المنطقة إلى عبيد (مشروع الشرق أوسطية)، وبهذا تكون المعادلة التوراتية لا وفاء للمواثيق أو وفاء للمواثيق بشرط تبعية الموقّع لها.

إنها معادلة غريبة، وقد يستهجنها من يسمع بها، ويصل به الأمر إلى حد عدم تصديق مثل هذه الاستنتاجات، إلا أن متابعة بسيطة لعملية السلام توصل المراقب إلى مقاصد السلام التوراتية.

أمريكا وإسرائيل:
التماثل والتشابه في الولادة والسلوك

إن حالة الترابط وعلاقات المصالح بين الإمبراطورية الأمريكية والكيان الصهيوني تتجاوز الحد الاقتصادي، والتعويل على هذا الجانب، أو التعويل على اللعبة الانتخابية والرهان على هذه الورقة لتفسير مجريات الارتباط بين الظاهرتين، بل يصل الأمر إلى حالة من التماثل في النشأة والتكوين، ويمتد إلى التشابه في السلوك بين الظاهرتين.

فقد رافق تشكل الظاهرة اليهودية، كون اليهود اتجهان الأول الخوف من الآخر والثاني التعبير بالتعالي من خلال الدعوة المختارة، كونهم العرق المختار بين البشر، وكونهم الوحيدين الذين يمتلكون علاقة مميزة مع الله، واستمرت هذه الصفات معهم حتى العصر الحديث، بل وحتى تشكيل دولتهم الموعودة داخل الكيان الصهيوني؛ السلوك لم يتغير والاعتقاد لم يتبدل.

وكذلك التكوين الأمريكي رافقه اتجاهان ملازمان للنشأة، الأول ظاهرة التعالي على الآخر، فالتاريخ الأمريكي عبارة عن محطات تفوق نفسي، تحمل كل محطة تسمية لفعل ودالة لمرحلة حسب مسمى تلك المرحلة ومنها (الجمهورية الممتدة، السياق الاستثنائي الأمريكي، السعي الأمريكي للكمال، الشعور الدائم بالتفوق الأخلاقي الأمريكي، الجهاد المتواصل ضد الشر، السعي الأمريكي من أجل جمهورية الفضيلة، إمبراطورية الحرية، الطلب لخلاص العالم). والاتجاه الآخر هو الخوف من الآخر، وقد عبرت عنه الإدارات الأمريكية بالخوف الدائم من امتلاك الآخر قوة تهدد التفوق الأمريكي، وهي تعبيرات دينية ذات أثر توراتي بلبوس سياسي.

وأهم الصفات المشتركة ما طرحه ودعا له الصهاينة، من أن فلسطين هي أرض بلا شعب، وما هذا الشعار إلا صدى لدعوة المهاجرين الأوائل من البيض في أمريكا، لإحلال شعب محل شعب.

ومن القواسم المشتركة بين التكوينين هو ازدواجية المعايير، ففي عام ١٧٧٦ سنة استقلال أمريكا، تم الإعلان الشهير لحقوق الإنسان، والذي تضمن أن جميع الناس خلقوا أحراراً، ورغم هذا الإعلان، كيفت الجمهورية الوليدة نفسها مع تجارة الرق، وفي الكيان الإسرائيلي أعلنت إسرائيل عن نشوء دولة علمانية حديثة، ورغم ذلك كيفت نفسها مع الحركات الدينية المتطرفة.

ويعتبر التكوينيات الأمريكي والإسرائيلي حاملي الدعوة الليبرالية الحديثة والعلمانية الشاملة، ورغم ذلك فهما من أشد التكوينات دعماً للظاهرة الدينية المتطرفة (فالصهيونيون لا يدينون بدين، ولكنهم يستغلون الدين اليهودي في تحقيق أهدافهم السياسية، فهم يركزون على الدين اليهودي في خلق قومية يهودية لا وجود لها" . وكذلك الدعوات الفكرية الأمريكية، حيث لخص فيبر جوهر فلسفته في كتابه الشهير "الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية" ، بأن "العقلانية البروتستانتية هي وحدها، إذا ما استطاعت أن تحقق الهيمنة العقلية على العالم، القادر على تعميم المدنية والحضارة" إنها دعوة عقلية تغلف نزعة سيطرة عرقية آرية ومذهبية.

إذ فرضت أمريكا على نفسها عدواً لم تتقاطع معه في المصالح ولم تحصل معه أزمات، بل كان الخيار أمريكياً بالتوجه بالعداء للعرب، وكذلك اليهود هم أيضاً على طول تاريخهم مع العرب لم تحصل حروب وحملات تطهير عرقية اتجاههم، وقد اختار اليهود برغبتهم بأن يكونوا صهاينة، وأن يجعلوا العرب أعداء لهم.

ومن الملامح المشتركة صفة الفزع، فالفزع صفة مشتركة بين الكيانين رغم ما فيهما من إمكانيات.

وهذه الصفة تنتج حالة نفسية مشتركة هي عدم الاطمئنان للآخر، فبمقدار عدم اطمئنان الأمريكي الوليد لدول الجوار سابقاً والعالم الحديث حالياً، كذلك إسرائيل مرت وتمر بحالة التوتر نفسها.

ومثال ذلك تاريخياً، أن أمريكا طرحت عام ١٧٨٠ سياسة توسيع المجال أو ما يعرف أمريكياً بـ"الفضاء الأمريكي" ، والذي حمل تحت جناحيه مبادئ عديدة منها "الاستثنائية الأمريكية" والتي أطلق عليها مصطلح "الجمهورية الممتدة" ، إذ قامت عام ١٨١٩ بالاستحواذ

على فلوريدا تحت شعار "إمبراطورية الحرية"، كذلك قامت أمريكا بالتوسع في ممتلكات المكسيك وأعلنت الحرب عليها في عام ١٨٤٦).

وليست إسرائيل إلا تعبير عن التكوين الأمريكي، فإذا كانت أمريكا الجمهورية الممتدة، فإسرائيل هي الدولة الممتدة، والتي تصر على عدم تحديد حدود لها، وإذا كانت أمريكا إمبراطورية الحرية، فإسرائيل واحة الحرية وفق المفهوم الغربي الاستعماري في عالم متوحش هم العرب، وإذا تم التعبير عن الولايات المتحدة الأمريكية بالاستثنائية الأمريكية فهل هناك استثناء مثل الاستثناء الإسرائيلي، دولة فوق الإرادة الدولية. ومع أوائل إرهاصات التسلسل الصهيوني في عام ١٨٧٧ حيث تم إنشاء أول مستعمرة وهي (بتاح تكفا) في فلسطين، والتي أعقبتها مستعمرة (ريشون لتسيون) عام ١٨٨٤، وبعدها تعاقبت الهجرات حيث الهجرة الأولى عام ١٩٠٤، والهجرة الثانية عام ١٩١٤. قامت التجمعات المهاجرة بأول مجزرة هي مجزرة دير ياسين عام ١٩٤٨. والتي سبقها تأسيس المنظمة العسكرية الصهيونية (الهاجانا) في القدس عام ١٩٢٠، لتأمين الاستيطان الصهيوني، وما حرب ١٩٥٦ التوسعية وحرب ١٩٦٧، إلا تعبير عن الدولة الممتدة لضم أراضٍ جديدة.

لو كان عالم اليوم كعالم الأمس في بطء انتشار الخبر وعدم معرفة الآخر بقبح الفعل، لفعل الأبيض القادم من أوروبا المتمثل بـ(الأشكناز) في أرض فلسطين، كما فعل الأبيض المهاجر من أوروبا بالهنود الحمر في أمريكا، إلا أن هذه السمة التي يتمتع بها عصرنا الحالي لم تمنع التكوين الصهيوني من إحياء تراث المجازر في أرض فلسطين. الفعل هو هو لم يتغير. الهنود الحمر شعب جاهل، والفلسطينيون شعب جاهل، والهنود قوم ضد حركة التقدم ومسيرة الحياة الصاعدة المتمثلة بإبداع العنصر الأبيض، وكذلك العرب هم معوق لحركة التغيير والتقدم، والقوتان المهيمنتان لهما سمة الغرور وعدم احترام الأسرة الدولية.

سعت الولايات المتحدة الأمريكية ولا تزال، إلى أسلوب الإملاءات بتعاملها مع الأسرة الدولية عند حدوث المشاكل، وكذلك إسرائيل تمارس الأسلوب نفسه بتعاملها مع الطرف العربي.

رفضت الولايات المتحدة الأمريكية التصديق على المعاهدة الدولية التي تمنع إنتاج وبيع ونشر الألغام ضد الأفراد.

رفضت الولايات المتحدة الأمريكية التوقيع على معاهدة روما لعام ١٩٩٨ الخاصة بالملاحقة القضائية للمسؤولين عن ارتكاب أعمال القتل الجماعي والجرائم ضد الإنسانية، ونذكّر هنا بأسلوب إسرائيل بملاحقة المواطنين الفلسطينيون بحجة تهمة الإرهاب وقتلهم عبر طائرات الأبتشجي، وعدم انصياعها لكل النداءات الدولية حول حرمة قتل المواطنين.

خرجت الولايات المتحدة الأمريكية على إجماع "فينا" لحقوق الإنسان، لعام ١٩٩٣، والمتضمن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وحرصت أمريكا على أن تعارض في لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة جميع الإجراءات الرامية إلى إخراج الحقوق الاقتصادية والثقافية إلى حيز التنفيذ.

ومن علائم الغرور والغطرسة الأمريكية انسحاب أمريكا من اتفاقية "كيوتو" التي تتضمن الخفض التدريجي والمراقبة الدولية على انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون.

وفي عام ٢٠٠١ ألغى الرئيس بوش الابن بقرار من طرف واحد معاهدة الحد من انتشار الصواريخ العابرة للقارات، الموقعة مع الاتحاد السوفياتي عام ١٩٧٢.

لقد سعت دول العالم الثالث بحملة دولية قادتها منظمة الصحة العالمية ضد الأمراض المستوطنة كأمراض السل أو الملاريا أو ذبابة النوم أو الإيدز، للحد من نسبة الوفيات أو الإصابة بمثل هذه الأمراض، ثم أعقبتها الأسرة الدولية بمجوعة قرارات لحماية المواطنين في البلدان الفقيرة منها قرار تحديد أسعار الأدوية، ووقفت الإدارة الأمريكية ضد قرار تحديد الأسعار، ورفضت تقديم أي دعم مالي، لمنح ومساعدة الدول الفقيرة.

وبالمقابل لم تمتثل إسرائيل لأي قرار صادر عن الأمم المتحدة، إلا قرار التقسيم الذي أقر بوجود الكيان المزعوم، وما عداها من قرارات دولية لم تلتزم إسرائيل بها، بل حتى الاتفاقيات الدولية التي أبرمت برعاية دولية لم تحترم أياً منها.

إنه السلوك نفسه في العلاقات الدولية بين أمريكا وإسرائيل.

في استعراضنا للحالتين لا نقصد تحديد وربط كل العوامل بالفعل الديني، وعند استعراض الظاهرة الاستعمارية يجب علينا أن لا نغفل حركة رأس المال والتحولات الكبيرة في اقتصاد السوق، وما للنزعة الكولينالية من دور وأثر بدوام الظاهرة الاستعمارية في فلسطين متمثلة بإسرائيل، والعالم متمثلة بالإمبراطورية الأمريكية. والاثنان يشكلان منظومة استعمارية،

فأمريكا تسعى لتشكيل "كون افتراضي" لا تشابه بينه وبين العالم الجغرافي والتاريخي – التقليدي، وكذلك إسرائيل من خلال أمريكا تسعى لتشكيل "كون افتراضي" في عالمنا العربي لا تشابه بينه وبين العالم الجغرافي والتاريخي - التقليدي، ومثاله مشروع الشرق الأوسط الكبير، الذي لا يمت بصلة إلى كياننا العربي بشيء.

عندما يتحول الإرث الديني
إلى عقيدة عسكرية

من مخاطر السلوك العسكري في أراضينا المحتلة في فلسطين والعراق، الإفراطُ في استعمال القوة بسبب ومن دون سبب، وبتزامن مقصود أو غير مقصود نشرت وسائل الإعلام حدثين عسكريين مثيرين للانتباه.

الحدث الأول بتاريخ ١٧ / ١١/ ٢٠٠٤، صورة الجندي الأمريكي الذي أجهز على الجريح العراقي في أحد المساجد، والذي كان ضحيةً إلى جانب أربعة رجال مدنيين تم قتلهم بدم بارد من قبل قوات الاحتلال الأمريكي في مدينة الفلوجة الصابرة.

والثاني: هو الخبر الذي نشرته صحيفة "يدعوت آحرانوت" الإسرائيلية في ١٨/ ١١/ ٢٠٠٤ حول قيام عدد من الجنود الإسرائيليين بالتمثيل بمقاتل فلسطيني توفي على إثر عملية فدائية.

والحدثين هما تعبير عن عقلية عسكرية واحدة، ففي العراق هناك المسيحية الصهيونية، وفي فلسطين هناك اليهودية الصهيونية، وكلاهما تكوين سياسي واحد، إذ أن القاسم المشترك لكليهما هو العهد القديم، ورغم وجود هذا العامل المشترك، إلا أن الاثنين يمثلان تفكيراً أرضياً وليس لهما مساس أو علاقة بالمسيحية الحقة المتعارف عليها، أو اليهودية التاريخية.

نذكر القارئ بحدثين تاريخيين هما مرجعية لسلوك ما تم في العراق وفلسطين:

فمن غرائب القصص التوراتية، الصراع بين نبي الله شاؤل ونبي الله داود، وما أفرزه هذا الصراع من قيم ميكافللية تمتاز بالغدر، والتحايل، ومن أمثلة ذلك ما تذكره السيرة التوراتية عندما دب الخلاف بين النبيين، إذ قامت شريحة من المؤسسة الدينية بإعلان المؤازرة لداود، فما كان من شاؤل إلا أن أصدار الأمر المتوقع لحماية سلطانه وعرشه: "وقال

الملك للسعاة الواقفين لديه دوروا اقتلوا كهنة الرب، لأن يدهم مع داود ولأنهم علموا أنه هارب ولم يخبروني... فدار دواغ الأدومي ووقع بالكهنة وقتل في ذلك اليوم خمسة وثمانين رجلاً لابسي كتان، وضرب نوب مدينة الكهنة بحد السيف". (سفر صموئيل أول: ٢٢-٢١ ١٧،٢١).

إن عبارة شاؤل "اقتلوا كهنة الرب" عبارة لا تحتاج إلى تعليق، فهي رخصة بجواز قتل رجال الدين عند تحول موقفهم لصالح المعارضة، كما أن عملية ضرب مدينة الكهنة دلالة على استباحة كل محرم، وجواز استباحة المدن المقدسة.

وما تم في النجف الأشرف وجامع السهلة، قبل أحداث الفلوجة، خير دليل على الخلفية الأخلاقية للفاعلين.

كذلك فإن في فعلة النبي سليمان تأكيد على تجاوز المقدسات لضرورات الحكم والهيمنة.

فقد كان النبي سليمان أول نبي قتل أخاه طمعاً في السلطة. فبعد ثبوت العرش بيد سليمان التجأ أدونيا شقيقه إلى يتشبع أم سليمان يستشفع بها، معلناً رغبته في الزواج وعزوفه عن السلطة، وطلب الأذن في زواجه من بيشيج الشونمية. فكان عقد القران له بطعنة قاتلة، وقتل النبي أخاه. "كما تكلم: اليوم يقتل أدونيا. فأرسل الملك سليمان بيد ياهو ابن يهو ياداع فبطش به فمات". (الملوك أول: ٢ - ٢٥). فإذا كانت النبوة تتحلى بمثل هذه القابلية من أجل السلطة؛ قتل الأخ من أجل الحكم، فكيف بباقي البشر.. هل هناك قيمة والتزام أو احترام..؟

والأمر الأكثر خطورة في سلوك سليمان النبي، هو قتله المعارضين له في بيوت العبادة، فهو أول نبي يقتل أخاه الذي استجار به، وهو أول نبي يقتل حليف الأمس الذي استجار ببيت الرب. يحدثنا سفر الملوك أول (الإصحاح الثاني: ٣٠- ٣٢): "فهرب يوآب إلى خيمة الرب وتمسك بقرن المذبح، فأخبر سليمان بأن يوآب هرب إلى خيمة الرب وها هو بجانب المذبح... فقال له الملك افعل كما تكلم وابطش به وادفنه".

كما تحدثنا التوراة عن سخط موسى على وكلاء جيشه، لا لسبب إلا لكونهم لم يقتلوا الآخرين ويسبتيحوا دمهم. يذكر لنا سفر العدد (الإصحاح ٣١): "فسخط موسى على وكلاء الجيش، وقال لهم هل أبقيتم على كل أنثى حية، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل

امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها، لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات".

غضب مبرر، ومزيد من القتل لكل طفل ولكل امرأة. إنها تربية لم تسقط عبر الزمن، لأن ما نذكره ليس تراثاً ولا قصص شعوب منقرضة، لأن خطورة الأحداث تتمثل في أنها تمّت من قبل مقام النبوة، وكُتبت في كتاب يتعبد به الناس، وهناك من يُسلّم ويؤمن بحرفية النص، وقدسية النص، وشرعية النص.

فما العمل أمام عسكري ينظر بعين العهد القديم، فما يفعله في أي بقعة من العراق، سواء في سجن أبو غريب أو جامع الكوفة، تحكمه عقيدة متطرفة ذات سلوك عسكري لها جذور دينية. إن المسيحية الصهيونية التي أنجبت اليهودية الصهيونية لها منهاج تربوي متطرف وتعتمد على مزيد من العنف في تطبيق برامجها الاقتصادية أو السياسية.

وبنظرة سريعة، يمكن ملاحظة التوافق في الممارسة بين الجندي الصهيوني في الأرض المحتلة، والجندي الأمريكي في العراق، مع تزامن الإيقاع في السلوك الصهيوني والإسناد الأمريكي لها، وفي هذا تعبير حقيقي عن الترابط الفكري بين الظاهرتين.

مجزرة الحرم الإبراهيمي
والروح الصهيونية

من المخاطر الحقيقية التي تهدد الظاهرة اليهودية وتدفع بها إلى الانقراض، هي الصهيونية. فالحركة الصهيونية هي من المخاطر الفعليه التي بدأت تشكل معولاً من معاول الهدم للوجود اليهودي والتي تدفع به إلى الهاوية، لكون الحركة الصهيونية مبنية على آلية الفعل الدموي لتحقيق أغراضها السياسية.

والجذر العملي للمفاهيم الصهيونية هو مجموع السقطات التي وقع بها كتبة التوراة، ونقول "سقطات" لأن ما في العهد القديم وأسفار بني إسرائيل الكثير مما لا يقبله العقل ومما لا يتعايش مع المفاهيم الدينية، حيث تختلط المبالغة في الحدث مع الخيال إلى حد الأسطورة لرسم شخصية اليهودي، فإن كنت تبحث عن الصورة السلبية المرفوضة اجتماعياً فما عليك سوى أن تتصفح العهد القديم لتبدو أمامك ألوان من الفعل الميكافللي مع كم هائل من الاختراقات في السلوك وعدم التوازن، والذي نميل إليه أن مثل هذا الثقل في السوداوية للشخصية اليهودية، مردّه أن التوراة قد دُونت وكُتبت بعد السبي البابلي، فكانت الإضافات تعبيراً عن فقدان السلطان والمركز السياسي، وتعويضاً عن حالة القهر التي عانى منها اليهودي في ذلك العصر. والذي لم يُكتب في التوراة وأسفار العهد القديم لسبب من الأسباب كُتب في التلمود البابلي، ثم جاءت الطامة الكبرى بحرق المعبد ثانية وهدم الهيكل على يد الرومان (سنة ٧٠ بعد الميلاد)، فحدث التشظي الثاني مخلفاً وراءه تركات نفسية جديدة أشد من السبي البابلي الأول.

فبدأت الأقلام تكتب لتعطي لليهودي قوة مضافة عوضاً عما خسره، فكانت المبالغة في كل شيء؛ مبالغة في الحدث، ومبالغة في القتل، ومبالغة في الخطيئة تصل إلى حد الإفراط، مثل الإفراط في زواج المحارم والإفراط في الخطيئة الجنسية إلى حد الفحش. وكل هذه الروايات

لا تصمد أمام الوقائع التاريخية والبحث العلمي والذوق الديني، ونحن لسنا بصدد تصويب الرواية التوراتية بقدر ما نرغب في أن نلفت المراقب للظاهرة الصهيونية.

فالصهيونية تستثمر وبشكل فعال هذه الروايات، وتحوّلها من روايات تاريخية إلى حالة قدسية، حيث أن العمل بها جزء من العقيدة اليهودية.

"لقد قرر بن غوريون تدريس النصوص التوراتية التي تؤكد حق إسرائيل في أرض فلسطين والأردن ولبنان و أجزاء من سوريا حتى حماة، وأحياناً تمتد الحدود من النيل إلى الفرات، مستخدماً هذه التلفيقات التاريخية في المدارس الإسرائيلية لتنمية التعصب. ولقد قام العالم السيكولوجي تاماران من جامعة تل أبيب بوضع استبانة لألف طالب من المرحلة الابتدائية، وسأل الطلبة عما إذا كانوا يوافقون على أن يقوم الجيش الإسرائيلي بما قام به يوشع بن نون من حرب إبادة ضد أريحا وما حولها. وتراوحت الإجابات بنعم بين ٩٥ ٪ و ٦٦ ٪ بحسب المدرسة والمستعمرة (الكيبوتز) والمدينة". ومثل هذه الاستبانة من داخل المؤسسة الرسمية فيها دلالة على الأسلوب التربوي للعقلية الصهيونية لخلق قوى عدوانية لدى اليهود داخل فلسطين وخارجها، ومن شواهد ما يذكر ما حدث بتاريخ ١٩٩٤/٢/٢٤ حيث قام المستوطن الصهيوني غولدشتاين بمجزرة الحرم الإبراهيمي التي راح ضحيتها ٤٩ فلسطينياً كانوا يصلون صلاة الفجر في الحرم الإبراهيمي، ونتيجة الفوضى التي أعقبت المجزرة قام الجنود الإسرائيليون باستغلال الوضع وإطلاق النيران على مجموع المصلين مضيفين ١٩ قتيلاً في المكان نفسه، وبهذا الفعل تتشكل صورة قبيحة للشخصية اليهودية من خلال فعل المستوطن غولدشتاين وهمجية المجندين الصهاينة.

ففعل غولدشتاين هو فعل سياسي نابع من هيمنة الروح الصهيونية، وهو أيضاً فعل ديني، حيث هناك ما يبرر هذا الأمر، كون نبي الله سليمان قتل أخاه وقتل من يناصر أخاه في المعبد، حيث يذكر لنا العهد القديم هذا الفعل:

"ثم جاء أدونيا ابن حجت إلى بتشبع أم سليمان فقالت ألسلام جئت، فقال للسلام.". (سفر الملوك الأول:٢-١٣). وكان جزاء أدونيا القتل على دعوة السلام.

"وحلف سليمان الملك بالرب قائلاً..والذي صنع لي بيتاً كما تكلم إنه اليوم يقتل أدونيا، فأرسل الملك سليمان بيد بناياهو ياداع فبطش به فمات". (الملوك الأول ٢-٢٥).

والذي يهمنا في هذه الرواية التوراتية هو مقتل يوآب رفيق أخي النبي سليمان أدونيا، حيث هرب هذا الرجل إلى خيمة الرب وتمسك بقرن المذبح. وهذا المكان في المفهوم اليهودي هو قدس الأقداس، وهو المعبد الحقيقي للعبادة، ولا يجوز التجاوز على حرمته: "فأخبر الملك سليمان بأن يوآب قد هرب إلى خيمة الرب، وها هو بجانب المذبح، فأرسل سليمان بناياهو يا داع وقال له ابطش به". (الملوك الأول:٢-٣٠). فوفق المفهوم الصهيوني لا فرق بين قتل وقتل. وقد أصبحت هذه الرواية حكماً شرعياً لدفع اليهودي للقيام بمزيد من القتل، وهذا ما لوحظ من سلوك المجندين الإسرائيليين بإطلاق النار على المصلين بعد المجزرة في الحرم الإبراهيمي.

وليس من حقنا رسم ملامح دين أو فرض مفهوم ديني على دين له خصوصيته وشكله وأبعاده، إلا أن الأمر لا يمنع من وجود سقطات وتفلتات في الرواية التاريخية، فإذا اعتبر كل ما ذكر في العهد القديم والتلمود عقيدة صهيونية اليهودي ملزم بها في الممارسة بالقتل مع جواز استباحة مال الآخرين، ودوام الاستمرارية للقيام بمثل هذا الأمر، فهناك عشرات القصص، بل مئات الحوادث والروايات والوصايا في التوراة والتلمود، مما يلغي كل شرعية لأي قانون سماوي أو قانون أرضي، وهذا مما دفع غولدا مائير للتصريح لصحيفة لوموند الفرنسية قائلة:

"وجد هذا البلد إسرائيل تنفيذاً لوعد الرب ذاته، ولهذا لا يصح أن نسأله إيضاحاً عن شرعية هذا الوجود".

إن مقولة غولدا مائير هي أعلى استثمار صهيوني لنص ديني، حيث الإطلاق في الفعل، وإلغاء أي نوع من المساءلة لأن ما نراه وما نسمعه وما يحدث هو فعل إلهي، وعلى الرغم من ظهور ما يسمّى بقوى السلام داخل الكيان الصهيوني والمساعي الزائفة لجعل التكوين الصهيوني تكويناً اجتماعياً سياسياً مسالماً، إلا أن آخر إحصاء قامت به صحيفة "هآرتس الإسرائيلية"، ونشرته بتاريخ ٢٠٠٤/٦/٧، حول أحداث رفح، بين أن ٦٢ ٪ من أبناء الكيان الصهيوني راضين حول عملية هدم المنازل وقتل المواطنين داخل رفح، وأن استعمال القوة كان مبرراً،، كما اعتبر ٥٢ ٪ من المجتمع داخل إسرائيل بأن القوة المستعملة كانت ملائمة.

إن هذه الأفكار والأقوال التي تتطبق عملياً كل يوم، تلغي الصورة اليهودية كدين، لتحل محلها الصورة الصهيونية، فلا يوجد في الوقت الحاضر دين يهودي داخل فلسطين، بقدر ما

هنالك حركة سياسية تستثمر الدين اليهودي لتحل محله الحركة الصهيونية. إن صورة الدين اليهودي بدأت تنطوي شيئاً فشيئاً ليحل محله دين جديد مليء بالتطرف والفعل السياسي، هو الصهيونية. لذلك كان يقال "من يسكن فلسطين هو اليهودي"، ثم أصبحت المقولة "من يسكن إسرائيل هو اليهودي" ثم أعقب ذلك تصعيد أشد، هو "من يسكن المستوطنات هو اليهودي". إذن اليهودي هو مشروع سياسي بيد الصهيونية، وليس ديناً وفق المفهوم الديني له الشريعة وأحكام التوراة، بل الطاعة التامة للحركة الصهيونية، فكل ما نراه هو تصعيد سياسي يتبعه ممارسة سياسية، وليست مفاهيم دينية يتبعها فعل ديني.

إن المعادلة الحقيقية للخروج من هذا المأزق للتعامل مع الدين اليهودي هي:

"كل فعل سياسي بمفاهيم دينية داخل فلسطين هو دالة صهيونية؛ وكل مفهوم توراتي خارج فلسطين هو فعل يهودي ذو بعد ديني".

ولن تعود اليهودية لتتصالح مع نفسها ومع الإنسانية إلا بعد تحررها، وإلى الأبد، من الحركة الصهيونية.

"إسرائيليات"
العصر الحديث

لكل عصرٍ طريقته في التعامل مع المفردات الفكرية، لذا تبدو أمام التاريخ الإنساني كيانات فكريةً، بأبعاد دينية واجتماعية واقتصادية تتقاطع وتتصارع، لتستحوذ على عقول الناس، وكانت الاختراقات الفكرية، للكيانات الثقافية، هي أشد المعاول هدماً عبر التاريخ الإنساني، وقد لعبت "الإسرائيليات" عبر التاريخ الديني، دور المروّج للأفكار الدخيلة، وكانت "الإسرائيليات" ولا تزال، عنصر هدم للكيانات الثقافية للمجتمع العربي الإسلامي.

و"إسرائيليات" العصر الحديث لا يقصد منها طرح مفاهيم الحركة الصهيونية للدولة الإسرائيلية بقدر ما يقصد بها، الدلالة على الاختراق الفكري في العصر الراهن، فقد حاولت "الإسرائيليات" عبر التاريخ الإسلامي قدر المستطاع، اختراق التكوين الفكري والنفسي للشخصية العربية الإسلامية.

وإذا كان العصر القديم يمتاز بسمة الأثر الديني ودوره، فإن العصر الحديث لا يخلو من قوى الصراع الأشد والأعنف، حيث تعمل حرب المصطلحات دورها لتثبيت شرعية كل عمل من خلال ترويج المصطلح بين الناس، لذا يلاحَظ على الساحة الاجتماعية مجموعة مفردات تعبر عن مزاج الناس وأذواقهم، وبالمقابل نرى الظاهرة نفسها في عالم السياسة، حيث تعبر المفردة عن هموم المجتمع وتطلعاته الفكرية. وعند كل حدث كبير وتغيير سياسي كبير تظهر مصطلحات وتختفي أخرى، ومثالنا على ذلك أفول المعسكر الاشتراكي وتداعياته، إذ كان له كبير الأثر في رحيل قاموس كامل من المصطلحات المتداولة والتعريفات التي كانت معمولاً بها.

ولم يتوقف الأمر عند حد الابتعاد عن ما هو مستعمل، لدى مروجي "إسرائيليات" العصر الحديث، بل تعدى الأمر ذلك إلى إلغاء الحقوق، وترويج كل ما هو باطل وظالم بحجة فساد ما كان سابقاً.

إذ نرى تعميماً غير مبرر بتسفيه كل ما هو وطني أو حق مشروع لثوابت الأمة، واعتبار نجاح الإمبريالية الأمريكية، هو نجاح متفرد يلغي كل القيم الرئيسية و الثانوية المعمول بها، ويقابلها بالهزيمة اندحار كل القوى المناهضة للنظام الرأسمالي، وبما أن الإمبريالية الأمريكية مؤمنة بوجود ما يسمى بإسرائيل، إذن فإسرائيل دولة علينا التعامل معها والرضا بها، وبما أن النظام الرأسمالي قام بغزو العراق، علينا التسليم بشرعية هذا العمل وصوابه، وعلى الرغم من الأثر القوي لأمريكا على البعثات الدولية. إلا أنها لا تخلو من الصواب والنزاهة، ففي الوقت الذي تصرح به المنظمات الإنسانية الدولية أن أحداث السودان لا تعتبر أعمال تطهير عرقي، نرى دعاه النظام العالمي الجديد، يصرون على ما تصر عليه أمريكا من أن في "دارفور" تطهير عرقي، وليس أزمة داخلية اقتصادية ذات طبيعة قبلية.

أن نتائج ترويج المفاهيم، ودفع الناس إلى السير ضد تكوينهم الخاص بهم، من خلال التنازل عن تاريخهم الوطني، ثم هويتهم، إلى أن يتحول الإنسان إلى مسخ.. أشد خطراً وفتكاً من حرب تكسبها قوى العدوان، على عراقنا الحبيب أو في فلسطين السليبة.

ومن مظاهر ترويج "إسرائيليات" العصر الحديث أن يطل علينا الإعلام العربي بعبارة تقول: "قام مجهولون بضرب مواقع أمريكية في العراق"، وهي عبارة كثر استعمالها عوض عبارة "قام مقاومون بضرب مواقع أمريكية"، التي تعزز لتعزيز ثقة المواطن بقضيته، وتجعله على بينة من حقيقة الأحداث.

إن مثل هذا الاختراق الفكري والنفسي قد حدث سابقاً، إذ كان الحديث عن الصراع العربي الصهيوني والحديث عن حق الشعب الفلسطيني، تم اختزله بما يسمى أزمة الشرق الأوسط، وبدت هذه المفردة ديدن رجال السياسة، فلا ذكر للصراع العربي الإسرائيلي، وكل ما على الساحة أزمة اسمها أزمة الشرق الأوسط.

ومحصلة هذا الترويض أنه تم تجاوز مفهوم "مقاوم فلسطيني" وبدأ التعبير عنه بـ"إرهابي"، ولا حديث عن فلسطين، بل هناك حديث عن أراض فلسطينية، وحتى التسميات العربية يجب أن تلغى، فليس هناك قدس وما تحمل هذه المدينة من دلالة على عروبتها، حيث نرى "إسرائيليات" العصر الحديث تتكلم عن أورشليم، من خلال برامج تاريخية للترويض وقبول المفهوم الصهيوني للمصطلح. وحائط البراق وما يشدنا إليه من تاريخ وإرث ديني،

أصبح اسمه "حائط المبكى"، ولا توجد قرية اسمها حانون وعليها معبر باسمها، بل هناك معبر أريز، بل حتى أبناء جلدتنا من عرب فلسطين والذين كان يطلق عليهم عرب الأرض المحتلة، أصبحت تسميتهم "عرب إسرائيل"، وعند الحديث عن مواطن عربي من (عرب ٤٨) يكون التوصيف "إسرائيلي من عرب الضفة".

إنها "إسرائيليات" العصر الحديث بكل ما تعني الكلمة، ففي الوقت الذي حبا الله فيه هذه الأمة برجال دافعوا عن دينها وإرثها ونظفوا قدر المستطاع تاريخنا من "إسرائيليات" عصر فجر الإسلام، عليك أخي العربي أن تعي أن "إسرائيليات" العصر الحديث لا تقل خطورة عن سابقتها من حيث الأثر والنتيجة والفعل، فاحذر يا أخي من هذا الفخ، الذي يروج له ليبراليو العصر الحديث عبر فضائيات عربية وبلسان عربي وشكل عربي، فهو الخطر بعينه.

الإدارة الأمريكية والدولة الفلسطينية
بين الاعتقاد والخداع

كان من الممكن الحديث عن كثرة وعود وتعهدات إدارة الرئيس بوش الأب وإدارة الرئيس دبليو بوش الابن بقيام دولة فلسطينية. ولكن الحديث عن ذلك سيكون مبتوراً وناقصاً. ولأجل إلقاء بقعة ضوء حقيقية، كان لا بد لنا من معرفة حقيقة التفكير الأمريكي بشأن القضية اليهودية، والموقف الحقيقي من الفكر الصهيوني، أمريكي المنشأ والهوى.

إن المرء ليقف متسائلاً ولأكثر من مرة، كعربي، عن الدافع القوي الذي دفع الرئيس الأمريكي هاري ترومان للاعتراف بقيام دولة إسرائيل في ١٥ أيار ١٩٤٨، بعد ١١ دقيقة فقط من إعلان بن غوريون قيام الكيان الصهيوني.

ويزيد الاستغراب إذا علم المواطن العربي أن وعد بلفور قد تم استحصال الموافقة المسبقة على صدوره من قبل الرئيس الأمريكي (ولسون) بثلاث شهور من صدوره.

وقد أعقب هذه الموافقة، الاتفاق الأمريكي البريطاني عام ١٩٢٤ على وثيقة الانتداب البريطاني لفلسطين والمتضمنة إنشاء وطن قومي لليهود، مع إطلاق اليد للهجرة اليهودية إلى فلسطين. كما أن هناك حدثين مهمين في القرن المنصرم أولهما المؤتمر الصهيوني الذي انعقد سنة ١٩٤٢، والذي كان أهم قراراته:

× نقل مركز الحركة الصهيونية إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

× إلغاء الكتاب الأبيض الصادر سنة ١٩٣٩ المتضمن تحديد هجرة اليهود إلى فلسطين.

× أما الحدث الثاني، فهو تأييد الرئيس الأمريكي (روزفلت) عام ١٩٤٤ لإقامة دولة يهودية لليهود في فلسطين، هذا قبل إعلان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة.

وكلما أوغلنا في التاريخ الأمريكي تتضح لنا صور من التأييد والمثابرة على الدعم للظاهرة الصهيونية.

إذ لا يخفى على المتابع للتاريخ الأمريكي للمهاجرين الأوائل من دور في نقل المعتقدات الدينية وتشكيل البنية العامة للثقافة الأمريكية، وهذا الجانب يظهر بشكل واضح لدى الطهوريين الأوائل، الذين كانوا يعتبرون رحلتهم إلى أمريكا واجباً دينياً، وكانوا يتشبهون بكل فعل بمفردات العهد القديم ويمثلون أنفسهم باليهود، بالحركة والاسم والصفة، بل إن قسماً منهم راح يتكلم العبرية باعتبارها لغة شعب الرب، ويعتبرون معاناتهم هي عينها معاناة اليهود عند خروجهم من أرض مصر، وكان من الزعماء الأوائل لهذا التيار الديني "ويليم برافورد" عام ١٦١٩، فقد كان واعظاً وملهماً قوياً.. ومنهم "جون وينثرب" عام ١٦٢٩، اوكان هو وأمثاله يربطون بين الخطاب الديني والجغرافية المقدسة. وكان تأسيس "صهيون في القفار" يتطلب إدراكاً للمهمة المقدسة وإيماناً بها، كما كتب وينثروب مخاطباً أتباعه عام ١٦٢٨: "سوف نجد أن رب إسرائيل يمشي بيننا وسوف يتغلب عشرة منا على ألف من أعدائنا نمجده ونعبده". ولم يقتصر الأثر على الرحلة الدينية ومفهوم الجغرافية المقدسة، بل حتى على الحملات الانتخابية، حيث كان أثر التوراة ومفاهيم شعب إسرائيل واضحاً، مثلاً كانت المواعظ والمناسبات الانتخابية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحمل عناوين رمزية مثل "وسائل الخير لإسرائيل" بقلم جون وايتنغ -بوسطن ١٦٨٨، و"موسى وهارون" بقلم توماس باكينهام، نيو لندن عام ١٧٢٩، و"آمال مدينة القدس" بقلم ستايلز، نيو لندن عام ١٧٤٢.

ولم يتوقف الأثر عند هذا الحد، بل راح إلى حد تأبين الشخصيات والقادة ومنحهم سمات توراتية عامة أو يهودية مثل خطبة ناثانيال آبلتون في بوسطن ١٧٢٤ بعنوان: "رجل عظيم تفقده إسرائيل"، وخطبة صامويل ويلارد في تأبين جون هال، تحت عنوان: "خسارة عامة تستحق دموع إسرائيل".

بل بلغ الهوس مبلغه في إعادة صياغة المفاهيم المسيحية وتوجيهها نحو التعلق ببناء القدس الجديدة، حيث كان المبشر همفري في عام ١٨٢٩ الذي كان يسعى لإيجاد تماثل بين أمريكا والنبوءة، وأمريكا وإسرائيل، إلى حد أن آلاف الناس يلبون دعوته إلى كنيسته ويهرعون لمساعدة الرب وينادون بصوت واحد:

"من أجل صهيون لن نلزم الصمت

ومن أجل القدس لن نخلد إلى الراحة".

وإذا تركنا ماضي أمريكا ومضينا قدماً للغور في العصر الحديث لن تختلف الصور ولن تتغير القرارات.

فالرئيس ليندن جونسون، كان دعمه لإسرائيل مبنياً على الاعتقاد المسيحي المتطرف بمكانة اليهود في خطة الله وتدبيره للكون والبشرية.

والرئيس جيمي كارتر، قال في حملته الانتخابية عام ١٩٧٦: "إن تأسيس دولة إسرائيل هو تحقيق للنبوءة المقدسة". وفي خطاب ألقاه كارتر أمام الكنيست الإسرائيلي في عام ١٩٧٧ قال: "العلاقة الفريدة بين أمريكا وإسرائيل أصل وجودها في ضمير الأمة الأمريكية وأخلاقها ودينها ومعتقداتها. إضافة إلى أن الشعبين يشتركان بالتوراة". ويعد هذا الخطاب تعبيراً عن طبيعة التكوين الثقافي للمجتمع الأمريكي.

وحين كان رونالد ريغان، رئيساً للجمهورية عام ١٩٨٢ حدث الاجتياح البربري الإسرائيلي للبنان، فسأله أحد المراسلين عن رأيه فيما يحدث هناك، فأجاب بكل بساطة: "ربما كانت هذه معركة مجيدو". لقد برر الاجتياح وأعطاه غطاء دينياً توراتياً.

والرئيس بيل كلينتون، في خطاب له بتاريخ ٧/٢٩ / ٢٠٠٢ لقيامه بحملة تبرعات لإسرائيل، قال إنه مستعد لحمل السلاح والوقوف في الخندق الأمامي للدفاع عن إسرائيل إذا ما تعرضت للخطر.

والرئيس جورج بوش الابن في برنامج انتخابي (٢٠٠٠/١٠/١١) قال: "علاقتنا مع إسرائيل هي علاقات عقائدية وعميقة، وليست عابرة متغيرة بتغير الأحداث".

والمرشح آل غور: "علاقتنا مع إسرائيل هي من أقوى الروابط بين دولتين".

وهذه التصريحات لم تكن تصريحات سلبية تكتفي بالكلمة، أو التلميح لحالة، بل كان يتبع كل تصريح فعل سياسي يعبر عن الدعم الرسمي للكيان الصهيوني، ورغم عملية السلام والوعد المشلول بدولة فلسطينية،إلا أنه بفعل الدعم الأمريكي لم تقدم أمريكا للجانب العربي سوى مسكنات للأزمة، يقابلها منشطات للكيان الصهيوني.

إذ مع تصاعد الوعود الأمريكية بدولة فلسطينية عام ١٩٩١، فرضت أمريكا نفوذها في هيئة الأمم المتحدة بإلغاء قرار إدانة الصهيونية باعتبارها حركة صهيونية.

ومع الوعود المعسولة بدولة فلسطينية، تم في عام ١٩٩١ تهجير ما تبقى من يهود الفلاشا،

ثم بدأت الهجرة لليهود الروس بمباركة أمريكية ودولية.

رغم التعهد بالدولة الفلسطينية إلا أنه تم توقيع الاتفاق الاستراتيجي والعسكري بين الدولتين في نيسان عام ١٩٩٦ في عهد الرئيس كلينتون.

ورغم الوعد المشلول بالدولة الفلسطينية مارست أمريكا الفيتو في مجلس الأمن لمنع صدور قرار يدين إسرائيل لمصادرتها أرضاً عربية في القدس.

ورغم الوعد بالدولة الفلسطينية تم تصديق الرئيس كلينتون في عام ١٩٩٥ على قرار الكونغرس بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس.

ورغم الاتفاق على عملية السلام وأوسلو وواي ريفير وشرم الشيخ والتعهدات الأمنية الفلسطينية على أمل الحصول أو الوصول إلى الحلم الأمريكي، بإقامة دولة فلسطينية، فاجأت الإدارة الأمريكية دعاه السلام العرب بتبنيها التعريف الإسرائيلي للإرهاب في المؤتمر الدولي لمكافحة الإرهاب في ٢٩ آذار ٢٠٠٢ مما شجع إسرائيل على اجتياح الضفة الغربية وأراضي السلطة الفلسطينية.

إن الشواهد كثيرة إلى حد تحولها إلى ظاهرة، وتحول الظاهرة إلى حالة اجتماعية تمثل الشخصية الأمريكية، وقد ساهم على ترسيخ هذه الحالة العمق الزمني للظاهرة، مع عوامل أخرى مثل الأدب الأمريكي، والفن من مسرح إلى موسيقى، وبرامج تلفزيونية، إلى هوليوود.

كل ذلك يشكل خطاً بيانياً واضحاً للبناء الفكري للفرد الأمريكي، وترابط هذه الشخصية بالتكوين الإسرائيلي، إلى حد أن الخلفية العقائدية للإدارة الأمريكية تحكم تصرفات الفعل الأمريكي بأن تكون متزامنة ومترادفة مع الفعل الإسرائيلي، فالمنطوق نفسه الذي تمارسه القوات الأمريكية بمحاربتها للإرهاب في أفغانستان تمارسه بنفس القوة والشرعية إسرائيل بمحاربتها للانتفاضة الفلسطينية، فالقوتان تنطلقان من خلال غطاء جامع مغلوط لكليهما، رغم تباين آلية وأسباب كل دولة عن الأخرى، فالوضع في أفغانستان ليس شبيهاً بما يتم

بخصوص جدار الفصل العنصري في الضفة الغربية، ورغم ذلك فإن قتل متظاهر محتج على جدار العزل له من الشرعية ما للشرعية التي يقتل بها مواطن أفغاني عابر سبيل، بتهمة الإرهاب.

ليس من حقنا تهميش خيار ثقافي وفكري تكوّن لشعب من الشعوب، مثل ما حدث بخصوص تكون الظاهرة الصهيونية في المجتمع الأمريكي، إنما سؤالنا هو عن سبب استمرار التحالف العربي الرسمي مع من تبنى الصهيونية.

السياسة الأمريكية
بين الصدمة والبنتاغون

تعتمد سياسة التغيير الأمريكية على مبدأ التحولات الاجتماعية، التي تتبع أسلوب الصدمة لإحداث التحولات، وهذه التحولات يرجح لها التغيير القسري، الذي ينشد منه حالة تيه وفوضى، بعدها يدخل دعاه التغيير لهندسة التكوينات الفكرية وفق نمط المنتصر.

الصدمة: حدث كبير خارج عن المألوف بسبب حروب أهلية، أو حروب دولية، تسبب تداخلاً بين الجيوش الأجنبية وأبناء البلد، يتبعه دخول قيم جديدة لم تكن مألوفة، كما يرافق هذه العملية حركة سكانية على شكل نزح بشري بسبب البحث عن الأمان والاستقرار، نتائجها توليفة من القيم التي لم تكن مألوفة.

وتعتبر وسائل الاتصال الحديثة، مثل الفضائيات وشبكة المعلومات العالمية، من وسائل العصر لبث الأفكار الجديدة، أو لترويج نمط لسلوك اجتماعي، من خلال تضخيم الحدث (الصدمة) أو تهوينه حسب هندسة ترويج الأفكار.

والشخصية التي تعاني من الصدمة (الحدث) تكون شخصية مشوشة، فهي تحمل عاداتها وقيمها، وتحمل أثر وسلوكيات الجندي القادم، وما يحمل هذا الجندي من جهاز إداري (وتكنوقراط) يحمل معه قيم التغيير. وهذه الهشاشة والازدواجية في الشخصية تكون بسبب الحراك السكاني المتحرك من قبله (من الريف – البداوة إلى العصرنة)، أو من القادم (قوة محتلة، أو شركات عملاقة)، فيحدث اشتباك بين مظاهر المدنية الجديدة، والقيم القديمة الموروثة.

أهم ملامح الأثر هو الضياع الثقافي الاجتماعي، حيث ينتج عن هذه الحالة مظاهر ودالات على الضياع منها:

أ - تغيير السلوك الاجتماعي، بتفشي الحالة الانهزامية إلى حد القبول بتدمير الذات.

ب - زعزعة اليقين بالمسلمات الدينية والتاريخية.

ج - حمل سلوكيات مشوهة بين تحديث ناقص الأداة والوعي، وشد إلى الماضي غير مستقر، يتمظهر على شكل سلوكيات غير متزنة.

أي هو شخص، أو مجموعة أشخاص، أو ظاهرة، سمتها عدم القدرة على الاحتفاظ بسلوكياتهم وعاداتهم القديمة كما عاشوها قبل الصدمة.

وبين السبب المخطط له وهو الصدمة، وبين النتيجة المرجوة، تظهر مساعي رجالات السياسة الأمريكية، بأطيافهم المتنوعة ذات الاختصاصات المتنوعة، لرسم قيم العالم الجديد، ويأتي الدور القسري للبنتاغون لتثبيت هذه القيم.

إن عموم السياسة الأمريكية مبنية على احتضان تيارين متعارضين بالطبيعة؛ رجال العلم والمعرفة من علماء اجتماع إلى علماء نفس ورجال دين، فهؤلاء هم أقرب إلى الدعة والسلام (كونهم النخبة)، والبنتاغون الذي هو عالم الحرب والغلظة و الشدة.

إلا أن أمريكا ترى في هذين الأسلوبين وسيلة لخلق حالة التفتيت، لأن التفتيت نتيجة لحربين: حرب الأفكار، عبر هندسة الأفكار.. والحرب العسكرية عبر البنتاغون.

إن دعوات التغيير في عالمنا العربي جاءت بعد صدمات ومضاعفات كثيرة، ومن خلال سنوات طوال بدءاً بدعم الأنظمة الدكتاتورية من راعي الديمقراطية في العالم، إلى دعم وإسناد القوى المتطرفة من الأمريكي رائد دعوة الإصلاح، ودفع المنطقة لخوض حروب مجانية كحرب الخليج الأولى، والثانية، والثالثة، بالتتابع، وخلال أربعة وعشرين عاماً تخللها حصار قاتل، لشعب العراق. كل هذه الأحداث أرهقت المنطقة برمتها، وإن كان المقصود في الفعل هو العراق.

عالم تموج فيه حروب مجانية، وصراعات مفرغة من كل محتوى، إلا أمر واحد هو ديمومة تخلف المنطقة، وبقاؤها خارج دائرة العصر والتطور.

يقابل ذلك نمو مطرد لماكينة الإعلام وحركة رأس المال، في العالم الغربي عموماً، والأمريكي خصوصاً، مما جعل من ظاهرة الهيمنة الإعلامية ذراع أمريكا الضارب، لا في

رسم الأفكار وتوجيه الرأي العام فقط، بل برسم سياسة دول، وعلى الخصوص دول عالمنا العربي.

ورغم هذه المكنة والسيطرة، إلا أن الفزع من أقل الظواهر للتعبير عن الذات مرفوض، لذا نرى التباكي والتطيير يعلو لدى رجال الفكر الغربي من تلك الظواهر البسيطة. يحدثنا صموئيل هنتنغتون في "صراع الحضارات" : "إن الاتصالات العالمية هي واحدة من أخطر المظاهر المعاصرة للقوة الغربية"، هذه الهيمنة الغربية... ويستطرد متابعاً: "...مع مطلع التسعينيات فإن التحديث والنمو الاقتصادي في المجتمعات غير الغربية أخذ يؤدي إلى انبثاق صناعات وسائل إعلام، محلية وإقليمية تغذي الذوق العام المتميز لهذه المجتمعات". إنه يتألم ويفزع لوجود ذوق يميز هذه الشعوب، وفي ذلك دالة على خصوصية ثقافية، والخصوصية أمر مرفوض وفق منهج العولمة.

إن الفكر والممارسة الاستعمارية تتجلى بقوة في الحالة العراقية، حيث العلاقة طردية بين الاثنين، فكلما وضحت الحملة الإعلامية تجاه بلد ما فهناك فعل عسكري قادم، وقد مارس الإعلام أوسع دور عبر الصورة، والخبر، والحدث، من خلال صناعة الشريط السينمائي والتلفزيوني عبر الفيديو كليب (الأغنية السريعة والصورة السريعة)، وكذلك الصحافة، المسرح، الأدب، الموسيقى، وبحكم السيطرة الاقتصادية فالريادة للأفكار والصورة الأمريكية.

لقد خلق الإعلام الأمريكي الخطر العراقي. لقد قامت الماكينة الأمريكية، بجهد مفكري علم النفس والاجتماع، بحجب كل مأساة الشعب العراق، لم يَرَ العالم بؤس الحصار، ولم يمسح العالم دمعة طفل عراقي، بل انشغل بأسلحة الدمار الشامل، الكذوبة، ولم تشكل الأسرة الدولية لجان تحقيق بمقابر اليورانيوم المنضب على أطفال العراق.

كل هذا لم يتم، بل كل الذي حدث قرارات غزل من الأسرة الدولية لتفسح الدور والفعل لراعي البقر الأمريكي، كي يأتي دور البنتاغون لينقض على الجريح.

يقول صموئيل هنتنغتون في كتابه "صدام الحضارات": "إننا نعرف من نحن فقط عندما نعرف من لسنا نحن، وفي أغلب الأحيان، عندما نعرف أولئك الذين ضدنا". نعم

يا صموئيل، أدركنا من نحن عندما علمنا مقدار الهجمة لتفتيت كياننا، ووعينا من نحن، عندما استوعبنا الخوف والفزع من ثقافتنا وتاريخنا من قبلكم.

وعهداً للتاريخ الذي رسم لنا هويتنا وثقافتنا، لن ولن نفرط بما تركه لنا الأجداد من خير. ولن ننساك يا عراق.

عربي مهوَّد لا يكفي

منذ أواخر القرن الحادي عشر، تاريخ بداية حروب الفرنجة حسب ما تسمّيها المصادر العربية، والتي تصر المصادر الغربية على تسميتها بالحروب الصليبية، حتى شاعت الصفة الغربية على التسمية العربية وأصبحت هذه الصفة سمة للمشروع الاستعماري الغربي.. منذ ذلك التاريخ حتى عصرنا الحاضر وخلال قرون تسع مرت بها الأمة عموماً ومنطقتنا العربية خصوصاً، مرت معها تلاوين من الأثر والموجات الفكرية منها فاعل ترك أثر ومنها مر مروراً سريعاً وزال بزوال الموجة الاستعمارية.

وعلى الرغم من شدة الهجمات كانت الأمة تحمل من مقومات الممانعة والمقاومة الفكرية والنفسية ما يعطيها القدرة على البقاء وتلقي الكدمات رغم توالي المحنة وشدة الهجمة، إلا أن

أخطر ما في الهجمات ما حدث ويحدث لأمتنا مع بدايات القرن العشرين ولحد عصرنا الحالي حيث الهجمة ليست تلك الهجمة.

كما أن إدارة الدولة الإسلامية لم تكن هي المثال في الشفافية والإدارة الحسنة، بتصرفاتها مع رعيتها وكثيراً ما كانت المؤسسة الرسمية تتخلى عن رعاياها (عن خدمة المجتمع المسلم) فكانت البدائل يفرزها المجتمع حيث كان يقوم بدوره في تسيير حياته بترابطه وتكافله من خلال الوقف، والقاضي، ومختار البلدة،وشيخ الجامع، والتنظيمات الحرفية التي كانت تمثل نمط الإنتاج في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن المنصرم.

وكان من مهام الاستعمار القديم إزالة هذه الكيانات قسراً أو على شكل نصيحة تقدم للمؤسسة الرسمية العربية.

فكان الهم الرئيسي للمشروع الغربي والهجمة الأخيرة اجتثاث كل المؤسسات و الركائز القديمة التي تشكل مجتمعةً ظواهر المجتمع المدني العربي، من خلال استغلال سلبياتها

المرافقة لها بحكم عامل الزمن والترهل، أومن خلال حاجة تطور الدولة الحديثة وقدرتها على استيعاب التكوينات القديمة،أو عدم قدرة التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية من منافسة المنظومة الرأسمالية الوافدة وما تملك من قدرات جبارة وفاعلة في التغيير، فعوض ما يتم التطوير لإعادة إنتاج تلك المؤسسات العربية المنشأ والثقافة،تم إبعادها عن أداء دورها في رسم سياسة المجتمع، فلم تنل حظوة في الجانب التعليمي لأحياء تراث عملي مهم تكون تاريخياً مع تكون المجتمع الإسلامي، ولم تنل رعاية الدولة الحديثة بإعادة بناء تلك المؤسسات وتطويرها..

ومر قرن من الزمن على سياسة الإلغاء والتهوين والتحجيم، كل حجة حسب فترتها، فبين اتهام للمؤسسات العربية بالترهل، إلى اتهام بالفساد،ثم اتهام بعدم قدرتها للاستجابة إلى متطلبات السوق، وبعد ذلك عدم قدرتها على استيعاب الحداثة، ثم مرحلتنا التي تمثل نموذجاً للاستبداد كان اتهام كل الكيانات العربية والتشكيلات العربية المخالفة لإرادة المشروع الإمبريالي بالإرهاب.

وتم فعلاً أفراغ المجتمع العربي من كل كياناته الطبيعية ووقع تحت طائلة الاحتواء، أما من خلال احتواء السلطة ومركزية الدولة، أومن خلال احتواء خارجي عن طريق الدعم المالي لما يسمى بالمنظمات الغير حكومية. وبين هذا وذاك. فقد الشارع العربي مناخه الطبيعي الذي يتنفس منه.

وأمام ظاهرة الهدم للكيانات العربية التي كان يحيى بها ومن خلالها المجتمع العربي كوسائل عمل، كانت هناك عملية بناء للتوجهات الهدامة التي تشكل معاول خطر على الوجود العربي بدءً بدعوات التغريب، إلى محاربة اللغة العربية الحاضنة لهذه الأمة، مروراً بوفرة من التشريعات الدستورية والقانونية لفرض مسحة من الحداثة تصل بشكل الدولة والمجتمع إلى مظاهر التغريب، ((كما لا يخفى على المتابع الفرق الشاسع بين التحديث والحداثة)).

ثم السعي المحموم والمبرمج من قبل المؤسسة الرسمية على إجهاض كل الكيانات السياسية الشعبية التي أفرزها المواطن العربي.

ومن مظاهر فعالية المواطن العربي خلال القرن المنصرم هو التواصل الثقافي والمنتديات الفكرية حيث الصالونات الأدبية والمجاميع الثقافية وأتساع دور النشر ثم دخول الفن المعترك

القومي فكانت الأغنية خير طريق لوصول المشاعر القومية وبقاء التواصل العربي، لقد كان استمرار الحياة الثقافية من قبل المثقفين والفنانين والنخب الرائدة للمشروع القومي نوع من الإصرار للرد على القطرية، ثم بدأ الالتفاف على هذه الظاهرة حتى وصلت إلى حد الموات، حيث حل الأدب المحلي عوض الأدب ذو البعد الثقافي المشرق. وتم تشجيع اللهجات المحلية في المسرح والأدب والقصة والشعر، وكلها أمور تصب في مصلحة البعد القطري على حساب البعد العروبي الأوسع ولأكثر رحابة في المفردات والأفق والهم العام.

ويمكن رصد الثلاثين سنة التي مضت على المنطقة العربية بكونها تمتاز بحالة تهويد الشكل العربي ومن خلال متابعة للتطورات الداخلية في الأسرة العربية خلال العقود المنصرمة يتبين أن هذا الاتجاه (اتجاه تهويد البناء العربي) ،يسير بسرعة تفوق سرعة الصهيونية المسيحية التي دخلت قرنها الخامس، فعالمنا العربي يمر في حالة قسريه قهرية إجبارية إلزامية لتبني المفاهيم الصهيونية من خلال إلغاء الكيان العربي الإسلامي (دين ـ ثقافة ـ تاريخ ـ مفاهيم ـ اقتصاد) وهذه الركائز للأمة العربية الإسلامية لا تتحقق بدون وجود من يروج للفكر الصهيوني فليس مهمة ظاهرة، العربي المهود، في المجتمع العربي الحفاظ على

إسرائيل بقدر ما تكمن خطورته وعمله بممارسات شتى تشكل النخر الحقيقي في كيان الأمة.

ومن معالم هذا الهدم و النخر لوجود الأمة، أن هناك يافطة طويلة عريضة من دعاة اللبراليون الجدد، مفادها نحن أمة لها تاريخ ووجود، لم الخوف من بعض أفراد يشكلون دولة إسرائيل!!

أليست لنا الحضارة العربية الإسلامية وأرثها المبارك؟ نعم لنا ذلك ولكن حقيقة الأمر نحن نمتلك حضارة مكبلة ليس لها الحق بالتعبير عن نفسها.

إذ لا يجوز لنا الحديث عن المقاومة ومن حق الأخر تدريس سفر يوشع. لا يجوز لنا الحديث عن تاريخ الأجداد فهو أمر أصبح بالي مر عليه الزمن أنما من حق الأخر الحديث عن تاريخ وهمي له في أرضنا ووجودنا، لا يجوز الحديث عن صلاحية ديننا وقدرته على الاستجابة للمتغيرات ولكن يجوز الحديث عن العولمة وخصائصها الفريدة، لا يجوز الحديث عن الديمقراطية لأن الظرف لم ينضج بعد ولكن للأخر الحق في الممارسة الديمقراطية إلى حد التصويت بعدم تشكيل الدولة الفلسطينية، لا يجوز تبني المدارس الدينية ودعمها

لأن مناهجها لا تلبي حاجة العصر وعند الأخر ازدياد عدد المدارس الدينية المتطرفة، لا يجوز الحديث عن تكامل الاقتصاد العربي ولكن يجوز الحديث عن الشرق أوسطية، لا يجوز خروج احتجاج عن جرائم الكيان الصهيوني ولكن يحق للمستوطنين القيام بكل وسائل الاحتجاج ضد العرب، لا يجوز تقصي الحقائق في أرضنا المحتلة ولكن يجوز التقصي الأمني لكل ظاهرة وطنية، لا يجوز أحياء المناسبات لإدانة وعد بلفور المشئوم ولكن يجوز للكيان الصهيوني الاحتفال بتأسيس الدولة المزعومة، لا يجوز الحديث عن حق العودة للاجئين الفلسطينيون ولكن من الجائز والممكن الحديث عن حق اليهود بالسكن في أرض لم بطؤوها، لا يجوز الحديث عن المقاطعة ولكن من حق إسرائيل مقاطعة أي بلد عربي وذا أطلنا الحديث فأن الذي يجوز و الذي لا يجوز سيطول بنا و يكثر و يزيد، من أجل حالة من القبول للكيان الصهيوني ولو مشوشة ومن أجل إلغاء الذاكرة عسى أن يخرج جيل مشوه مبتور لا يعرف من تاريخه شيء وعسى أن يدخل الوجود الصهيوني الوجدان العربي مثل ما حدث في التجربة الغربية، بقبول الصهيونية في الوجدان الغربي، ومما ذكر من ممارسات هي بذور صهينة المنطقة العربية.

كل هذه الممارسات لنتائج مهمة للمشروع الإمبريالي هو تغيير بنية المنطقة وشكلها الاجتماعي وهذا لا يتم إلا من خلال أيجاد حكومات التعين المتواطئة (المثال العراقي)) مع بريق ديمقراطي يمكن تسميته بديمقراطية التواطؤ ((مشروع الإصلاح الأمريكي))، وهاتان الركيزتان حكومة التواطؤ، وديمقراطية تواطؤ كفيلة بإيجاد مناخ مناسب لتمرير العربي المتصهين، إذ أن العربي المهود الذي تحمل عبء تمرير مشاريع التسوية، وتمرير سياسة التشكيك والتشويه لتاريخ المنطقة، ولثقافة شعوبها وما تحمل من أرث ديني.

قد انتهت مرحلته فلم تعد حاجة الإمبريالية الصهيونية لعربي مهود.

أكذوبة ذهب الأسنان
ومصداقية ملجأ العامرية

التاريخ الإنساني حافل بدعوات وترويجات، منها ما يمتاز بالغرابة، ومنها ما هو ساذج مما يسقطه من دائرة الاهتمام العام. ورغم الغرابة والسذاجة في بعض الدعوات، إلا أن هناك فعلاً خارج دائرة التحليل والاستنتاج الجاد، وهو مافيا الإرهاب والمال ومراكز القوى، التي أضحت هي البديل الذي يقرر مسار الأحداث السياسية والتاريخية، لتكون نتائج مراكز الضغط هي المعطيات السياسية.

ومن غرائب ذلك "سرقة الجنود الألمان خلال الحرب العالمية الثانية، ذهب الأسنان الاصطناعية الموجودة لدى المتوفين اليهود في غرف الموت، حيث بلغ مجموع ما سرق من ذهب الأسنان من اليهود ما قيمته سبعة مليارات دولار"، فهذه أكذوبة من أكاذيب الهلوكست المصطنعة، حيث رافقت ذلك حملة صحافية وإعلامية حتى تم تحويل الوهم إلى واقع مع التأكيد على ترغيب المواطن اليهودي بأنه سيستفيد من هذه التعويضات.

ولسنا هنا بصدد تأكيد أو تكذيب ظاهرة الهلوكست، ولكننا أمام حالة من حالات الابتزاز المالي والسياسي، وكيف يتم استثمار الفعل والحالة وتحويلهما إلى رصيد مالي لا ينضب وفعل سياسي دائم الفعالية والأثر.

إلا أن السؤال هو: هل كان كل اليهود يمتلكون أسناناً اصطناعية؟ وتحديداً من الذهب!!

وهل كل أسنان اليهود الطبيعية أو الاصطناعية ذهب؟ بحيث تبلغ قيمتها التقديرية سبعة مليارات دولار، مع الأخذ في الحسبان أن هذا الرقم هو في أواسط القرن الماضي، وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار فروقات القوة الشرائية مع الوقت الراهن سيتضاعف الرقم عشرات المرات، مما يوضح مقدار المبالغة، والابتزاز.

وأمام الأكذوبة التي تحولت إلى واقع، وما نتج عن هذا الواقع من تعويضات ومسؤولية مالية وأخلاقية والتزام سياسي، كان ولا يزال يدفع ثمنه الشعب الألماني.. نرى هناك حقائق

تم تجاهلها، بل والسعي الحثيث والأكيد على نسيانها وإلغائها من ذاكرة الشعوب، ومن هذه الحقائق القريبة لدينا، حيٌّ فعلها، دائمةٌ نتائجها، فاجعة العامرية.

وبناءً على الشك وعدم التوثيق من تصرف الجنود الألمان بأنهم دخلوا غرف الغاز بعد قتلهم مجموعةً يهودية، فمنهم من يدخل دون قناع واقٍ، ومنهم من يدخل دون احتراز للأثر المتبقي من الغاز المتواجد في الغرف، فقد دفع هذا المراقبين إلى الحكم بموت من يدخل لاقتلاع أسنان الذهب من الموتى، مما دفع المراقبين والمحللين بأن يضعوا دائرة الشك حول الحدث برمته، بل إلى نسف الواقعة جملةً وتفصيلاً.

ولكن فاجعة العامرية هي فعل مخطط له مع سبق الإصرار لتحقيق هلوكست فعلي حي، وبمرأى العالم الحديث للتعبير عن عنجهية وغرور الإمبريالية الأميريكية.

أول صور العامرية نراها في طريق الموت عندما أعلن العراق عن وقف إطلاق النار، حينها انهالت قوى الدمار والموت لتحصد شباب العراق في طريق الموت بين البصرة والعبدلي، فحصدوا الآلاف بل عشرات الآلاف من الجنود الذين تراجعوا عن خط المواجهة، بدم بارد، لتعبر هذه الحادثة على نزعة الموت ورغبة القتل بشعبنا.

العامرية كانت مقدمة للحصار الظالم الذي كان ثمنه مليون ونصف المليون عراقي، تم قتلهم بسبب نقص الدواء والغذاء.

العامرية رسمت صورتها بحصار ظالم لم يشهده التاريخ الإنساني قديماً أو حديثاً.

العامرية نتائجها مئات الآلاف من الأطفال الذين قتلوا باليورانيوم المنضب.

تحدثنا العامرية عن الغارة الأليمة التي فتكت بمن احتمى بجدران القوانين الدولية وتحت سقف الأسرة الدولية متمسكاً بكل خيط وقانون من قوانين العلاقات الدولية لتكون له سفينة النجاة، إلا أن العامرية تحدثنا بأن هناك أكثر من ٣٥ ألف غارة على أطفال العراق وشيوخه ونسائه، وكل هذه الغارات تمت بعد مجزرة العامرية وخلال فترة الحصار فقط.

للعامرية وجوه كثيرة أخرى، كان الوجه الأول منها "عاصفة الصحراء"، والوجه الآخر وليس الأخير، ما يعرف بعمليات الغضب على أهلنا في الفلوجة الصابرة.

للعامرية ملامح كانت في "ثعلب الصحراء"، وامتدت إلى مجزرة النجف وجامع السهلة.

كان هناك ملجأ حدثت فيه هذه المجزرة، وبعد الحدث حوى المكان على ذاكرة بسيطة لمجموع من قُتل من أطفال ونساء وشيوخ، إلا أن هذه الذاكرة تم إلغاؤها وتم تحطيمها.

آه يا عراق.. لست أنا فقط من تم تحطيمه، بل أصلُ كل المتاحف، وجامع كل الذكريات، متحف بغداد، حدث له أكثر مما حدث لي.. سرقوا تاريخنا، وحرقوا كل ذكرياتنا.

انشغلوا بالفاسد وحلموا بالتغيير، فجاء الأفسد، ونسوا العراق وما حل به.

لم يحسبوا حساب العراق الذي ألغي، والعراق الذي تم إلغاؤه، بقدر ما كان جل تفكيرهم كيف يتم الاستحواذ على السلطة.

بعد نصف قرن من اقتلاع أسنان الموتى، نجحت مافيا الإرهاب السياسي ومراكز قوى المال.

فمظلومية ذهب الأسنان أنتجت دولة، ومظلومية القضية العراقية ألغت الدولة العراقية.

مظلومية ذهب الأسنان أعادت وأحيت تاريخاً ليس له مصداقية ومرجعية، والعراقيون ألغوا تاريخهم.

مظلومية ذهب الأسنان جعلت من اللغة غير المتداولة لغةً رسمية وحية لمئات القوميات داخل كيانه، والعراقيون بدأوا يتداولون لغة المحتل ويرون ذلك فخراً.

كل هذا يتم، ولا أحد ينادي ويقول لبيك يا عراق...

الدولة الفلسطينية
تجارة لن تبور

لا توجد قضية واضحة المعالم والحق كالقضية الفلسطينية؛ شعب يمتلك تاريخاً ووجوداً وجذراً وتكويناً حضارياً وثقافياً وإنسانياً، وكل مقومات البقاء والاستقرار، ثم تأتي قوة دولية لتجتثه ليحل محلة أقوام متنوّعو الأعراق واللغات لا تجمعهم ثقافات مشتركة، أو تاريخ مشترك، ليشكلوا كياناً جديداً بديلاً عن الكيان التاريخي لشعب فلسطين.

ومن لحظة الإقرار الدولي لتغير الظواهر الطبيعية للمنطقة، ظهرت على الساحة الدولية قضية تعرف بالقضية الفلسطينية، وظهرت معها المساعي الدولية لحل مشكلة الصراع العربي - الإسرائيلي.

وبين البدء واللحظة الراهنة مرت قضية الشعب الفلسطيني بتجار كثر، كل تاجر حسب حاجته وما يريد منها، وكانت القضية المظلومة تقاس وتُطرح بتلاوين مختلفة، حتى ثقلت وأصبحت من كثرة المدافعين عنها، والمروجين لها، من أعقد مشاكل العصر رغم وضوحها.

وقد سمحت ضراوة القضية للساحة العربية بأن تمتلئ بمثل هؤلاء، فكانت الأحكام العرفية، وقوانين الطوارئ، وسلطة الحزب الواحد، وحرمان المنطقة من التجربة الديمقراطية، وصولاً إلى الفساد الإداري وتبذير أموال الدولة، بحجة "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة".. إلخ من التخريجات التي أثقلت المواطن العربي ليصل إلى مبتغى المشروع الصهيوني، المتمثل في التسليم بعد اليأس.

بعد كل هذا وغيره يطل على القضية الفلسطينية تجار جدد، يختلفون من حيث الموقع والأداء، إلا أنهم الخطر الحقيقي على قضية الشعب الفلسطيني، هؤلاء هم المحافظون الجدد، هؤلاء تبنوا القضية، وبدأ الحديث ليس عن مشكلة فلسطينية، بل عن الدولة الفلسطينية، فما هو سر هذه الدعوة من صقور المشروع الصهيوني في العالم الغربي؟

هل بدا على المشروع الصهيوني ضعف يتطلب مساعي من قبل هؤلاء؟ وهل هناك جهود من المحافظين الجدد لإنقاذ المشروع الصهيوني من مأزق لا نراه نحن العرب؟

أم إن القضية تتحمل تجاراً جداً؟؟؟

في البدء إن تقديم مشاريع وخطط سلام أنجلو - أمريكية، يعني أن تتفق هذه المشاريع والخطط تماماً والمواقف الإسرائيلية القائمة على توفير حد أعلى من الأمن للجانب الإسرائيلي، وحد أدنى من حقوق الإنسان والحاجات اليومية للجانب الفلسطيني.

وقد عبر الرئيس جورج بوش عن ذلك في ٢٠٠١/١٠/٢، حيث أعلن "أن فكرة دولة فلسطينية كانت دائماً جزءاً من التصورات، طالما تم الحفاظ على حق إسرائيل في الوجود". إذن هي تصورات، وليست حاجة، وهي جزء من تصور، وليست من أوليات المهام الإنسانية في الفكر الغربي.

إن أول الوعود كان في سنة ١٩٩٠ أثناء غزو العراق للكويت، حيث وعد الرئيس بوش الأب العربَ بدأ "نظام عالمي جديد" يتم فيه حل القضية الفلسطينية، وإنهاء أسلحة الدمار الشامل من الشرق الأوسط.

وتم للرئيس بوش الأب ذلك، وبعد انتهاء الحرب مع العراق بإخراجه من الكويت، قامت الإدارة الأمريكية بالدعوة إلى مؤتمر قمة شرق أوسطي في مدريد، تحت شعار "الأرض مقابل السلام"، ولكن المؤتمر لم ينتهِ إلى شيء، إذ بيعت الدبابات والصواريخ والطائرات للعرب ولإسرائيل أكثر مما تم بيعه في ٣٠ سنة مضت، ولم يذكر أحد أسلحة إسرائيل النووية.

في أوائل سنة ٢٠٠٤، ومع تأكيد الرئيس بوش الابن بدولة فلسطينية، نراه يقوم بتقديم تعهدات خطية لرئيس وزراء إسرائيل أرئيل شارون، تتناقض مع ما تم الوصول إليه. وهذه التعهدات تتناقض مع كل المرجعيات والشرعية الدولية، ابتداءً من قرار التقسيم رقم ١٨١ عام ١٩٤٩، ومروراً بقرارات الشرعية الدولية ٢٤٢، و٣٣٨، وبمرجعية مؤتمر مدريد واتفاقات أوسلو وطابا، وانتهاءً باتفاقية خارطة الطريق عام ٢٠٠٢، وكلها مرجعيات تقوم على أساس مبدأ "الأرض مقابل السلام".

وفي عهد وعد السراب للرئيس بوش بدولة فلسطينية، وخلال الفترة الرئاسية الأولى، قامت إدارته باستخدام الفيتو لسبع مرات لحماية إسرائيل من كل مساءلة دولية، ومنذ عام

١٩٦٧ استُخدم الفيتو بهذا الخصوص ٢٧ مرة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية.

وما بين بوش الأب وبوش الابن كانت إدارة الرئيس كلينتون تستثمر مفاوضات أوسلو، من أجل تحقيق أكبر مكسب سياسي للكيان الصهيوني، إذ استطاعت إدارة كلينتون تأهيل الدولة العبرية بعلاقات سياسية مع ستين دولة كانت قد قاطعتها حتى يمنح الفلسطينيون حقوقهم، كورقة ضغط على تلك الدول.

بل أوفدت إدارة كلينتون أحد وزرائها لجامعة الدول العربية لمطالبتهم رسمياً بإلغاء المقاطعة الاقتصادية العربية، على الرغم من أن المفاوضات لم تنته، وكذلك لم تسفر عن حصول الطرف الفلسطيني أو العربي على أي مكسب، وتخلى الطرف العربي عن كل أوراق الضغط دون مقابل.

لقد تناسى المسؤولون العرب ما قامت به المؤسسة الرسمية العربية من التزام أخلاقي وسياسي للغرب، طيلة القرن الماضي، ولم تجن المؤسسة الرسمية العربية، أو تحقق أي مكسب من وعود الغرب، ولم يقدم الغرب أي فعل يدلل على مصداقية تجاه القضية الفلسطينية.

ففي الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) أعطى البريطانيون وعوداً للعرب بالاستقلال، لكنهم لم ينفذوها؛ بل أعطوا على العكس من ذلك، وعد بلفور بوطن لإسرائيل.

زقامت الإدارة الأمريكية بعهد الرئيس الأمريكي روزفلت عام ١٩٤٤ (حرصاً منه على انتزاع امتيازات أمريكية من النفط السعودي مع انتهاء الحرب) بوعد المملكة السعودية أنه لن يسمح بتشريد الفلسطينيون من ديارهم. وعندما تحقق ذلك لم تفِ الإدارة الأمريكية بعهودها، وتم تشريد أربعة ملايين فلسطيني.

كما قام الرئيس الأمريكي هاري ترومان بالاعتراف بقيام دولة إسرائيل في ١٥ أيار ١٩٤٨، بعد ١١ دقيقة فقط من إعلان بن غوريون قيام الكيان الصهيوني.

كما إن وعد بلفور قد تمّ استحصال الموافقة المسبقة على صدوره من قبل الرئيس الأمريكي ولسون قبل ثلاثة شهور من صدوره.

بل إنه في السنة التي صدر فيها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان قامت الدولة العبرية بالقوة على أرض فلسطين، رغم مناقضتها للمبادئ الخمس لميثاق الأمم المتحدة، وإن دل

هذا التصرف على شيء فإنه يدل على مدى إصرار الغرب على دعم الكيان الصهيوني على حساب الحق العربي.

نتيجةً للوعود الكاذبة بتأسيس الدولة الفلسطينية، بدأنا نرى الفعاليات العسكرية المشتركة والتي كانت تسمى بـ"النجم الساطع" بين مصر وأمريكا، وكذلك تمت أول مناورة عسكرية مشتركة بين اليمن والولايات المتحدة الأمريكية في آذار عام ١٩٩٧، والتي تزامنت مع موجة زيارات غير معهودة لخبراء عسكريين أمريكيين لصنعاء وعدن.

وهذه الوعود المقدمة من التجار الجدد أفقدت قناة السويس سلطتها الوطنية وأصبحت تحت قرار الفعل الأمريكي في حركتها وانسيابيتها.

وعد المؤسسة الغربية الجديد أدخل القوة العسكرية الأمريكية، من مضيق هرمز مروراً بالكويت ثم العراق، لترتبط بالقوة العسكرية الأمريكية في تركيا.

وعد التجار الجدد للقضية الفلسطينية أنتج أهم الاتفاقيات الأمنية بين المؤسسة الرسمية العربية والمؤسسات الأمنية الأمريكية بتلاوينها وتشكيلاتها، خدمة للكيان الصهيوني قبل كل شيء وبعد كل شيء.

وعلى المسار الفلسطيني حقق وعد الدولة الفلسطينية كل الجهود الأمنية لإسرائيل بدءاً من أوسلو١ واحد، وأسلو٢ ثنين، وواي ريفير، وطابا، وشرم الشيخ، وتفاهمات تنت الأمنية، واتفاق واي بلانشتين.

وعد التجار الجدد أنتج الجدار العازل لخنق شعبنا في أرضه المحتلة.

وعد التجار الجدد أنتج احتلال أفغانستان.

وعد التجار الجدد أنتج احتلال العراق.

الوعد الجديد للمشروع الغربي بدولة فلسطينية أفقد الحد الأدنى من التعاون العربي، ووفرت الوعود للتجار الجدد بالقضية الفلسطينية اتفاقية الكويز، بين مصر والكيان الصهيوني، كبديل عن التعاون التجاري العربي.

إن الذي يجري على الساحة العربية عموماً، والفلسطينية خصوصاً، عبرت عنه صحيفة يدعوت أحرنوت في ٣١ / ١٢ /١٩٩٩ بقولها: "إن دولة إسرائيل قوية بما فيه الكفاية في نهاية

هذا القرن للتخلى عن ذهنية الدولة المحاصرة، ولتتجرأ على السلام بكل ثقة ومن دون خوف من المخاطر". نعم، ولم لا، فإذا كانت مخاوف إسرائيل من الجانب العربي بسبب الخوف الأمني، فإن ما قام به ويقوم به المحافظون الجدد وتجار القضية المظلومة عبر التاريخ الإنساني سيحقق لإسرائيل الأمن المنشود.. وعلى حساب تاريخنا وديننا وشعبنا.. فهل وعت المؤسسة الرسمية العربية ما يدور، أم أنها جزء من اللعبة؟

الكويز

المعادل السلبي للمقاطعة

تعتبر ظاهرة المقاطعة العربية من حيث النتائج الاقتصادية والفعل السياسي دالةً من دلالات الفعل القومي الوحيد الذي ميز القرن العشرين للصراع العربي الإسرائيلي.

ولسنا بصدد رصد الأرقام التي ترتبت على هذا الفعل تجاه الآخر، ومدى فعالية المقاطعة، إلا أن تتابع الأحداث يرسم لنا مدى خطورة وفاعليه المقاطعة العربية تجاه عدو لم يترك شاردة إلا وعملها لخلخلة الموقف العربي وإنهاء البعد القومي لحقيقة وطبيعة الصراع.

وقد بدأ تاريخ المقاطعة العربية للكيان الصهيوني رسمياً عام ١٩٤٥، عندما اتخذت جامعة الدول العربية قرارات وتوصيات بضرورة المقاطعة الاقتصادية للكيان الصهيوني، وتم إنشاء جهاز المقاطعة الاقتصادية للدولة العبرية من خلال جامعة الدول العربية. ويعد هذا الإنجاز للجامعة العربية، الإنجاز الوحيد الذي عمل بكفاءة وفاعليه منذ بدايته في عام ١٩٥٥.

وإذا كان هناك من مأخذ على الأجهزة الاقتصادية العربية والعقل الإداري العربي بعدم فاعليه المقاطعة خلال العشرين سنة المنصرمة، فهو بسبب القصور في إيجاد آليات للمتابعة والوقوف أمام التطور الاقتصادي المهول الذي حدث في عالم المال وحركته ومنها الشركات المتعددة الجنسيات والتي استطاعت إسرائيل التخفي خلفها، وأصبح من الصعوبة بحال تحقيق أكبر قدر من دقة المقاطعة، إلا أن هذا العجز لم يُلْغِ قوة قانون المقاطعة وفاعليته، مما دفع بالدول صانعة القرار إلى القيام بمزيد من الضغط والفعل لإجهاض ما يعرف بالمقاطعة الاقتصادية للكيان الصهيوني والذي هو بطبيعته ونتائجه فعل قومي، لأنه فعل رسمي تحول إلى فعل شعبي يمارسه المواطن العربي من مشرق الأمة إلى مغربها دون إذن رسمي، ودون توجيه حزبي. وأصبحت المقاطعة الشعبية العربية دالة قومية أكثر من كونها فعلاً رسمياً.

والمعروف تاريخياً أن فكرة المقاطعة للكيان الصهيوني تعود إلى عام ١٩٢٢، وذلك حينما قاطع أبناء فلسطين السلع الإسرائيلية، وكان ذلك رداً على مقاطعة اليهود للسلع العربية.

إلا أن رصاصة الرحمة لظاهرة المقاطعة بدأت وبشكل حقيقي بعملية السلام، وبعد مؤتمر مدريد عام ١٩٩٠ وما تلاه من اتفاقيات مع الكيان الصهيوني وتنازلات نحو إنهاء المقاطعة وفتح العديد من الأسواق العربية أمام البضائع الصهيونية.

ثم تلا ذلك التخريجات الغربية لخرق المقاطعة باسم عملية السلام، ومن أجل تهيئة الأجواء لمفاوضات السلام وبناء جسور الثقة بين الطرفين، ومنها ما يحمل رسائل ابتزاز لإظهار الطرف العربي على أنه طرف عنصري، حيث قامت فرنسا بإصدار قانون في عام ١٩٩٧ يرفض مبدأ المقاطعة، ولعل أحدث مثال على ذلك ما قامت به الرابطة المناهضة للعنصرية ومعاداة السامية في أيار ٢٠٠٠، من حملة ضارية ضد المقاطعة العربية للشركات الأجنبية التي تتعامل مع العدو الصهيوني، بحجة أن المقاطعة وجه من أوجه معاداة السامية ودالة على سلوك عنصري.. إلى غير ذلك من التسويف للحق العربي متناسيةً هذه القوى أن الجانب العربي هو طرف في الصراع، وأنه المتضرر من الوجود الصهيوني، وأن التصرف العربي لم يكن بدوافع عنصرية أو عرقية أو دينية.

ونتيجة ضغط خارجي يقابله وهن عربي، واستعداد عربي للتنازل، وصل قطار التسويف للقضية العربية إلى البديل السلبي.

البدائل السلبية:

وبعد الشوط الطويل الذي مرت به قضية الصراع العربي الإسرائيلي يتم تحويل أولويات الفعل العربي إلى فعل متصهين، أي فعل في خدمة المشروع الصهيوني، حيث تمكنت سياسة التطبيع واتفاقيات السلام المجتزأة بين بعض الدول العربية وإسرائيل، من تحقيق تفوق بارز على سياسة المقاطعة العربية، وذلك من خلال دخول الاقتصاد الإسرائيلي كمكون بالغ الأهمية في المراكز الصناعية العربية.

وقد لعبت المؤسسات السياسية العليا في الولايات المتحدة، دوراً كبيراً في حصول هذا التطور، إذ تم اتخاذ القرار المعروف بالكويز من خلال الكونغرس الأمريكي سنة ١٩٩٦، والذي يمكن من خلاله تلمس دور أصدقاء إسرائيل، وتأثيرات اللوبي اليهودي في الكونغرس، بهدف كسر طوق العزلة المفروضة على دولة إسرائيل، وإدخالها قسراً في الجسم العربي. أو الأدق إنه قرار لإنهاء حالة العزلة لعملية السلام الرتيبة، والتي لم تحقق أي مكسب لخرق الكيان الاجتماعي العربي تجاه الدولة العبرية.

فالذي حدث في اتفاقية الكويز هو بحقيقته عكس المقاطعة العربية ١٠٠ ٪.

فمن شروط الاتفاق دخول مكونات اقتصادية أجنبية تشارك المكونات الاقتصادية المصرية في القطاع الصناعي، من أجل أن تحظى المنتجات الصناعية المصرية، وخصوصاً النسيجية وصناعة الملابس، بمعاملة تفضيلية من حيث الحصص والرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب في السوق الأمريكية الضخمة، ووفق الاتفاقية الأمريكية الإسرائيلية المصرية تم الاشتراط لتحقيق الاتفاق القيام بفعل اقتصادي، وبنسب فاعلة لدخول الكيان الصهيوني إلى الاقتصاد العربي المصري، إذ تم تحديد أن يتضمن المنتج نسبة مكون إسرائيلي لا تقل عن ٪٨ وتصل إلى ٪١٧ ويضاف إليها مكون أمريكي يصل إلى ١٥ ٪، وهذا يعني وجود ٣٢ ٪ من الاقتصاد الخارجي ضمن التكوين الاقتصادي المصري.

ويكفي أن نعلم أن بداية الاتفاقية حسب المصادر المصرية التي تم اختيارها تمثل نحو ٪٦٠ من إجمالي المنشآت الصناعية، كما تستوعب ٪٦٣ من إجمالي العمالة يضاف لها مجموع الاستثمار الصناعي بحوالي ٪٥٨ من إجمالي الاستثمارات.

إن هذه البداية التي تعكسها هذه النسب يمكن اعتبارها تحولاً هو في حقيقته أكثر خطورة من اتفاقية كامب ديفيد.

فأهم مخاطر الاتفاق هو تحول الحماية العربية للاقتصاد الفلسطيني إلى حماية عربية للاقتصاد الصهيوني، إذ كانت المقاطعة تهدف إلى توفير عمق اقتصادي عربي وتكوين وشائج مادية بين العرب وابن الأرض المحتلة. الآن أصبح الاقتصاد الفلسطيني غير محمي، فهو غير كفؤ لتقديم تسهيلات لدول الجوار، ولا يحمل حماية دولية له، وكل قدرته تتمثل في وجود الاقتصاد المنزلي، وفي معامل بسيطة أكثرها يدوية. وقد تشكل هذا الاقتصاد وتروض على مر السنوات ليواجه قرارا ت العزل والمنع والطوارئ الإسرائيلية، فهو اقتصاد يتيم لا سند له ولا نصير.

وإن تحقيق هذه الاتفاقية ونجاحها يعني اعتماد الاقتصاد العربي على التسهيلات والإعفاءات الخارجية الممنوحة له، وعند ذلك سيبدأ المشروع الصهيوني مستقبلاً بفرض شروط جديدة ليزيد من عزل الوجود الفلسطيني.

لقد كتب الكثير عن الكويز، ونحن نرى أن الكويز هي بمثابة كامب ديفيد اقتصادي لاختراق الكيان العربي أكثر من ذي قبل.

فاتفاقية كامب ديفيد الأولى سلمت الكيان المصري سياسياً وجعلته فاقد القرار، في حين جاءت الاتفاقية الثانية التي هي الكويز بمثابة كامب ديفيد اقتصادي، ستظهر نتائجها على الساحة العربية، وسيتضح الخلل القاتل لها على القضية الفلسطينية قريباً.

فأهم ثمار عملية السلام هو وجود ساتر أمني عربي لحماية الكيان الصهيوني، وقد بدأت نتائج الحماية الأمنية العربية للكيان الصهيوني تتضح بمرور الزمن.

والكويز ستحقق ساتراً اقتصادياً عربياً للكيان الصهيوني على مر السنوات القادمة.

ففي الجانب السياسي، أيّ حديث الآن عن حق عربي فلسطيني يعتبر من معوقات عملية السلام، وأي تصرف لإثبات الحق العربي يعد اختراقاً للعملية السلمية.

وسنرى في المستقبل القريب أن أي حديث عن البضائع الإسرائيلية هو اختراق لعملية السلام، وسنرى أن أي حديث عن إجراءات اقتصادية عربية مناهضة للاقتصاد الصهيوني هي تجاوز لعملية السلام، بل تصرف إرهابي يجب قمعه.

سيصبح الاقتصاد العربي امتداداً للكيان الصهيوني، وسيصبح الوطن العربي العمقَ الجغرافي لإسرائيل.

وليس فيما نقول تطير ومبالغة.. هل هناك عمق استراتيجي عربي للقضية الفلسطينية لمن وقّع اتفاقية سلام مع الكيان الصهيوني؟؟؟

وبالمقابل سوف لن نرى عمقاً اقتصادياً لقضيتنا التي بيعت بثمن بخس؛ بضعة دراهم معدودات!

الأصولية اليهودية
والإرهاب الصهيوني

الإرهاب الصهيوني سمة من سمات المجتمع الإسرائيلي، ومن الخطأ التركيز على الظاهرة الشارونية، وكأن المجتمع الإسرائيلي مجتمع حمائم، وتجاهل كون هذا المجتمع حصيلة الأصولية الدينية للعقلية لليهودية.

على الرغم من خصوصية مصطلح (أصولي) كونه مفهوماً غربي الصنعة وغربي البيئة، إلا أن التصدير القسري لعموم هذا المفهوم على الظاهرة الإسلامية، بل على المجتمع العربي الإسلامي، سبب تعتيماً وعدم وضوح للفكر الإسلامي المعاصر في أذهان الكثيرين، بينما الفعل السياسي لعالمنا العربي الإسلامي هو السمة الملازمة للظاهرة الثقافية والفقهية خلال القرن الماضي تحديداً بعد سقوط الخلافة العثمانية.

فكان قرناً حافلاً بالأفكار والاجتهاد، وخلفت هذه الفترة الطويلة تراثاً تنظيمياً واسعاً، كما أنتجت مع طول الممارسة كماً هائلاً من الشخصيات الفكرية والبحثية، فكان هناك العالم المسلم، والأكاديمي المسلم، والباحث المسلم، إضافة إلى الفقيه المحدث المجدد.

وعلى الرغم من هذا الكم الذي أنتج كماً هائلاً من البحوث والحلول لمشكلات المجتمع، إضافة إلى الأدبيات والكتب متنوعة الاختصاصات، إلا أن الفصام الحاصل من قبل النخبة الحاكمة مع الظاهرة الثقافية (النخبة؛ عربية علمانية أو إسلامية) سبب الإهمال المتعمد لمثل هذه الثروة الفكرية والتنظيمية.

كما لا يخفى أن هناك تفلتاً فقهياً من بعض حركات الإسلام السياسي التي جعلت الممارسة العنيفة طريقةً من طرق التعبير عن ذاتها ووجودها، إلا أن هذا الفعل كان محدوداً ومحصوراً بتجمعات محدودة، ولا يمثل الظاهرة الصحية الواسعة لفعل الإسلام السياسي في المجتمع المسلم.

إضافة إلى أن بعض أجهزة الإعلام العربي ساهمت مساهمة فعالة بلصق التعريف الغربي للظاهرة الإسلامية. وفي الوقت ذاته نرى هناك تهويناً من فاعليه الجالية المسلمة في الغرب بتصوير المواطن المسلم في أوروبا أو الأمريكيتين إما أشخاص فاشلين أو رجال خدمات لا يتجاوزن كونهم عمال تنظيف في مطعم، أو شارع، غافلين عن الكم الهائل من العلماء وأساتذة الجامعات والأطباء و المهندسين، إلى غير ذلك من الكفاءات العلمية العالية في كل من أوروبا والأمريكيتين.

كما أن عودة الفعل السياسي الإسلامي والحركات الإسلامية والمجتمع المسلم إلى الأصول هو الفلاح بعينه، إذ يعني هذا الالتزام بالقرآن والسنة، وهذه الأصول هي الكفيلة بالبناء الاجتماعي، وهذه الأصول هي الدعامة الحقيقية لحماية الإنسان، إذ أن الشخصية الإنسانية وبناء الفرد هي مدار القرآن والسنة. بينما مثل هذا البناء لا نراه في الأصول اليهودية، إذ أن العودة إلى الأصول اليهودية من خلال العهد القديم و أسفار بني إسرائيل وتحويل مفاهيمها إلى فعل سياسي جعلت الحركة الصهيونية هي الإفراز الطبيعي لها.

ومن سمات الأصولية اليهودية، حسب ما يحكمها النص المقدس وما ينتج من فاعليه هذا النص في سلوك الشخصية الصهيونية، هناك ظاهرة تهوين الصفات الإيمانية وتحويل الأخلاق الدينية إلى فعل نفعي.

حيث يلاحَظ أن من أهم صفات العمل الديني هو الوفاء، وعلى الرغم من شمولية هذه الميزة أو هذه الصفة حيث توضح هذه الخصلة المباركة تفرعات عدة لتشكل صورة من البناء الاجتماعي، إذ ينتج عنها التزام أخلاقي في التعاملات اليومية، من بيع وشراء إلى التزام بعقود... إلخ..ويفرض أيضاً التزاماً سياسياً من قبل المتعاقدين، حيث توجب المعاهدات التزام الوفاء بها عند إقرارها من الأطراف الموقعة والملتزمة، وهذا ما لا نراه في العقلية اليهودية، أو بما يسمى بالأصولية اليهودية.

حيث يوصي النص الديني بعدم الوفاء بكل عهد مهما صغر أو كبر، فيذكر لنا النص المقدس مثلاً: "احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض". (سفر الخروج: ٣٤-١٦). ونرى التأكيد على هذا السلوك بأمرها المكرر: "احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصير فخاً في وسطك". (سفر الخروج: ٣٤-١٣). إذن هي وصية بعدم التزام بأي عهد، ثم تضيف التوراة لتقول: "لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم". (سفر

التثنية :٧ – ٣). وماذا يحدث في فلسطين؟! عهود وعهود تبرم وتوقّع. ولكن مع من؟ مع من لا يفي عهداً، لأن النص الديني يأمره بعدم الوفاء.

كذلك تروي لنا التوراة بكل فخر إحدى معارك بني إسرائيل في سفر صموئيل: "وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج وحديد وفؤوس حديد وأمرهم في أتون الآجر، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم". (سفر صموئيل ثانٍ :١٢-٣١). أمام هذا النص الذي يدرَّس وتعمَّق مفاهيمه إلى الجنود الصهاينة، ماذا يحدث للمتلقي وهو يقوم بواجبه العسكري، هل ستظهر الجوانب الإنسانية في شخصيته؟ أم مزيد من النزعة الدموية؟ لنتأمل قائد الأركان موفاز وهو يتعبد ويتقرب إلى ربه بهذا النص ومن حوله العباد شارون وائليعازر. إن النتيجة الطبيعية لمثل هذا النص هو مجزرة جنين ومجزرة نابلس. وكما حدث بالأمس القريب حيث قسسة محاصرون ورجال مهددون بالموت في كنيسة المهد في بيت لحم، فإن مثل هذا الأمر له سابقة تشريعية في الأصولية اليهودية.

حيث تروي لنا التوراة قتل النبي سليمان من احتمى بالمعبد وهدر دمه: "فهرب يوآب إلى خيمة الرب وتمسك بقرن المذبح. فأرسل سليمان بناياهو قائلاً اذهب ابطش به، فدخل ناياهو إلى خيمة الرب وقال له يقول الملك اخرج، فقال كلا ولكني هنا أموت. فقال له الملك افعل كما تكلم وابطش به وادفنه وأزل عني وعن بيت أبي الدم الزكي الذي سفكه يوآب". (الملوك أول: ٢ – ٢٩، ٣١). وماذا يحدث في كنيسة المهد؟ رجال قالوا نقتل في بيت من بيوت الله، ولن نستسلم. وجواب الأصولية اليهودية هو الحصار والتجويع لمن في الكنيسة على أمل الاستسلام أو الموت البطيء أو الموت المحقق، ولا يغيب عن بالنا مسعى الجنود الصهاينة بحرق أحد مباني دير الرهبان وسعي أحد المواطنين لإطفاء الحرائق، وعوضاً من أن تمد يد العون، أُطلق عليه الرصاص وقتل في الحال بحجة دم زكي أُهدر من اليهود.

من معالم الاجتياح الصهيوني العدواني على أراضي الضفة الغربية هناك ظاهرة السلب والنهب والعبث بممتلكات الناس الآمنين: "فحرمناها كما فعلنا بسيحون ملك حشيون محرمين كل المدينة الرجال والنساء والأطفال. لكن كل البهائم وغنيمة المدن نهبناها لأنفسنا". (سفر التثنية: ٣ – ٧). يا لها من تعليمات تورد وتذكر بسياق يوحي بسلاسة الفعل وشرعيته.

ويذكر لنا سفر العدد، الإصحاح:٣١-٩، ١٠: "وسبى بني إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار". وماذا نرى في رام الله ومدن الضفة غير النهب وحرق المنازل وهدم البيوت على أصحابها. أليست هذه الأصولية هي الأصولية الإرهابية المنظمة التي تتفاعل مع النص الديني؟ ومن المبالغة بشيء إذا اعتبرنا أن كل ما يحدث هو فعل عسكري، ونتناسى المدارس الدينية وأثرها في تشكيل النزعة العدوانية لدى الجندي الإسرائيلي.

وتستمر صور البطش التوراتية فتذكر لنا: "وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف". (سفر يوشع: ٦-٣١). ويذكر لنا سفر يوشع تشريعاً بجواز حرق المدن ونهب أموال الناس: "واحرقوا المدينة مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة الرب". (يوشع: ٦ - ٢٥). أليس ما يحدث في أرض فلسطين هو حرق مدن وسلب أموال الناس والعبث بما لدى الآخريين، من دون أي رادع، وما أكثر الصور التي نراها من سحق الدبابات للسيارات الواقفة في الطريق، ودخول الجنود إلى المستشفيات، والعبث بالأمور الطبية ومنع المؤسسات الطبية عن القيام بدورها.

ووصل الغلو في النزعة العدوانية إلى حد منع مياه الشرب، وأبسط مستلزمات الحياة اليومية. مثل هذه التوجيهات لا تنقطع، فأسفار بني إسرائيل تنتقل من تعليم إلى آخر، إلا أن السمة العامة الرابطة لهذه النصوص هي مزيد من القتل ومزيد من النهب والسلب. ومن أمثال ذلك ما ذكر في سفر صموئيل: "فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة طفلاً رضيعاً بقراً وغنماً جملاً وحماراً". وماذا نرى؟ ألم تقتل الطفلة الرضيعة إيمان بنت دجو؟ ألم يتبعها عشرات من الأطفال؟ ألم يقتل برعم من براعم فلسطين هو محمود الدرة وتبعه عشرات البراعم؟ ألم يقتل الشيخ الكبير المقعد أحمد ياسين؟ ألم تقتل النساء البريئات؟ ألم تحدث ولادات في سيارات الإسعاف ولم تسمح القوات الصهيونية بالذهاب إلى مراكز العلاج مما سبب وفاة كثير من الولادات ظلماً وعدوناً؟

وهل نرى هناك بصيص عفو أو مساعي للعفو؟ إنها القاعدة السوداء التي تحكم العقلية الأصولية: "ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة وطفلاً رضيعاً". وهل ما حدث في دير ياسين هو ظاهرة شارونية، وما تبعها من مجازر خلال تاريخ الكيان الصهيوني من ممارسات يومية

ومن سلوك الأصولية اليهودية، التي عبرت عن ذاتها من خلال الحركة الصهيونية، وهل ما حدث في مجزرة قانا هو أيضاً ظاهرة شارونية. بل العقل هو هو، والممارسة هي هي، لا ولن تتغير.

ومن مفارقات الأمور أن أي فعل عسكري دموي أو أي فعل إرهابي تقوم به المؤسسة العسكرية الصهيونية نرى التأيد له من رجال الكهنوت والحاخامات اليهود، وخير مثال على ذلك ما أعلنه الحاخام (عوناديا يوسف) رئيس طائفة الأرثوذكس اليهود الشرقيين من فتاوى بضرورة إبادة العرب ومحوهم من وجه التاريخ إلى تصريحات عرقية بوصف العرب بأنهم أفاعٍ، وأن الله قد ندم لأنه قد خلق العرب.

بل نرى رجال الدين يتجاوزون التأييد إلى حد المشاركة في الفعل من خلال ما نراه من التفاف اليمين المتطرف حول كل حكومة عسكرية، وبالمقابل عند الطرف الآخر، عند حدوث أي ظاهرة اختراق لحقوق المجتمع المدني الآمن، نرى الاستنكار والشجب من قبل علماء الدين المسلمين. وليست مقالتنا هي بحث لمقارنة الأديان، بل للحق. والحق أحق أن يتبع. لا يوجد نص واحد في القرآن بجواز النهب أو السلب أو قتل الأطفال أو حرق المدن أو هدم المنازل على ساكنيها، ولم تحفل سنة نبينا والحمد لله بمثل هذا الأمر، فلا يوجد في صحيح سنة رسول الله ما يؤكد أو يجيز أو يبيح قتل الأطفال أو قتل النساء أو حرق الصوامع أو دور العبادة أو حرق المدن، ولم تعرف الإنسانية قوانين الحرب إلا من خلال الإسلام.

آن الأوان أن تتكشف حقيقة الأصولية اليهودية وما تحمل، فليس في ديننا ما يعيب، وليس في أصوليتهم ما يدعو للفخر والاعتزاز.

المسيح
والصهيونية المسيحية

عيسى ابن مريم راعي إنجيل المحبة والسلام، حدد منذ يوم مولده في كنيسة المهد صفات المؤمنين بما عنده وبما يريد. لم يكن في دعوته الغموض والطلاسم، بل كانت دعوة مشرقة شروق الشمس، ورقيقة رقة شغاف القلب.

ولنا سياحة بسيطة ومتواضعة مع بعض ما قال، وليس كل ما عنده، عسى أن يرق قلب ويبصر مخدوع، فيعود إلى غصن الفضيلة لسيدنا المسيح، فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً.

"ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل، فقال... طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى للحزانى لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاشى إلى البر لأنهم يشبعون. طوبى للرحماء لأنهم يرحمون. طوبى للأنقياء القلب،لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون. طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات". (إنجيل متى، الإصحاح: ٥-٢،١١). أفي هذه الكلمات أسرار؟ هل نقرأ فيها ألغازاً، أم هي كلمات ناموس المحبة، فيها من البساطة لشدة رقتها، وفيها من القوة والصعوبة لمن لا يفهم معاني المحبة والسلام، لذلك قال المسيح في الموقع نفسه:

"طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السماوات. فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين من قبلكم". (إنجيل متى: ٥ - ١٢). إن في هذه الدعوة تحذير لمن سيقتل ويحارب، فعلى الرغم من البشائر السبع التي قيلت لمن يعمل بها، هناك البشارة الأخرى، أي الجنة، لمن صبر والتزم بهذه الأخلاق والفضائل، ثوهناك إشارة إلى أن من يقتل ومن يحارب هذه الدعوات للمحبة هم قتلة الأنبياء اليهود، وليس من باب المصادفة أن يتبع سيدنا عيسى هذة البشائر بلعنات سبع لليهود بعد أن تيقن بأن لا فائدة من هؤلاء ولا نفع منهم، فكانت كلماته كالصاعقة المحرقة والكاشفة لزيفهم: "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الناس يدخلون. ويل لكم أيها الكتبة

والفريسيون المراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً. ويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم. أيها الجهال العميان أيها أعظم الذهب أم الهيكل؟ ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تعشرون النعنع والشبث والكمون وتركتم أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان، كان ينبغي أن تعملوا هذه. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون لأنكم تنقون خارج الكأس والصفحة وهما من الداخل مملوءان اختطافاً ودعارةً. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من الخارج جميلة وهي من الداخل مملوءة عظاماً. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين وتقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناكم في دم الأنبياء، فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء". (إنجيل متى: ٢٣ - ٢٨، ١٤).

ودون الغوص في كتب أهل التاريخ وعلماء علم الاجتماع في وصف الشخصية اليهودية، إلا أن قراءة سريعة لما ذكر في إنجيل متى على لسان المسيح تبين لنا ما يلي:

١ - غلق أبواب الإيمان الروحية، وهذا مسعى من مساعي بني صهيون.

٢ - أكل أموال الأرامل وحقوقهن، للدلالة على أكل حقوق الآخرين.

٣ - السعي الحثيث حول العالم من أجل إيجاد شخص يحمي اليهود أو رجل يهودي دخيل.

٤ - الاهتمام بعشر الوردات الماليات وترك ناموس الحق المتمثل بالرحمة والإيمان.

٥ - الاهتمام بالظاهر وداخلهم نجس مثل مثال القبور المذكور.

٦ - الاهتمام الزائف بسيرة الأنبياء والصالحين وإظهار أنفسهم بمظهر المدنيين، وهو اهتمام لفظي كلامي فقط.

٧ - إنما حقيقة أمرهم أنهم قتلة الأنبياء والصادقين من خلال شهادتهم على أنفسهم، ومن يقتل نبياً وصديقاً يهون عليه قتل عامة الناس.

بقي أمر ثالث نود ذكره من جواهر سيدنا المسيح عيسى ابن مريم:

"يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا، هو ذا بيتكم يترك لكم

خراباً.. فقال لهم يسوع أما تنظرون جميع هذه.. الحق أقول لكم إنه لا يترك ها هنا حجر على حجر لا ينقض". (إنجيل متى: ٢٣-٢٩،٢٧). إذن لا عودة لأورشليم ثانية، ولن تكون هناك مملكة أورشليم الأرضية.

في عرضنا للنصوص الثلاثة نحاول أن نوضح نقاطاً ثلاث. أولها سمات وصفات الملامح المطلوبة للشخصية المسيحية التي ذكرها سيدنا عيسى واعتبر أن كل خصلة من هذه الخصال الحميدة جزاؤها الجنة، والأمر الآخر الذي حذر منه رسول الله عيسى ابن مريم العالم والإنسانية من الشخصية اليهودية، حيث رأى بنور النبوة ما هي العقلية اليهودية، إذن هناك عدم تجانس بين الصفتين أو الفئتين، فهما خطان متوازيان لا يمكن أن يلتقيا، لاختلاف السلوك والمفهوم والنتيجة، ففي الأولى رحمة ومحبة، وفي الثانية اللعنة والويل. والأمر الثالث هو عدم عودة مملكة أورشليم الأرضية الوضعية، وهو قَسَم من نبي معصوم.

إذن من الذي جمع الصفتين المتناقضتين لتشكيل ما يسمى بالصهيونية المسيحية، وإذا كان هذا وعد المسيح وقسمه أن لا تعود مملكة بني صهيون، إذن ما الذي يدفع المسيحي على توطين اليهودي في فلسطين ويسعى جاهداً لبناء مملكة أورشليم؟ الجواب قاله سيدنا عيسى في الأناجيل:

"أنتم ملح الأرض، ولكن إن فسد الملح فماذا يملح لا يصلح بعد لشيء". (إنجيل متى: ٥-١٤، ١٥). والحديث هنا بحق أصحابه والمؤمنين به وبأخلاق هو ذكرها، وسنحاول جاهدين التكلم عن الملح الذي فسد الذي حذر منه سيدنا عيسى، ومن إفرازات الملح الفاسد، الصهيونية المسيحية.

إن الظلام الذي كانت تحياه أوروبا في القرن الخامس عشر خلق المبررات الفاعلة والأرضية الخصبة للتغير، بل والجو العام لقبول كل فعل إصلاحي، فكانت حركة الإصلاح البروتستانتية الاستجابة الطبيعية لأجل التغيير، إلا أن حركة الإصلاح لم تكن فعلاً إصلاحياً للبناء الكنسي بقدر ما كانت فعلاً تغيرياً ذا أبعاد عقائدية، حيث بدأت الطروحات منذ القرن السادس عشر بوضع اليهود تحت مظلة من القداسة الدينية المسيحية كشعب مميز ميزه الله عن باقي شعوب العالم.

فكانت مقولات القس مارتن لوثر سنة ١٥٢٣ في كتابه "عيسى ولد يهودياً" : "إن الروح القدس أنزل كل أسفار الكتب القدس عن طريق اليهود وحدهم.. إن اليهود هم أبناء الله،

ونحن الضيوف الغرباء، ولذلك فإن علينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل مما يتساقط من فتات مائدة أسيادها كالمرأة الكنعانية تماماً". وتعد مجموعة الكلفانيين (نسبة إلى جون كلفن)، والتطهريين من الذين يقولون بالتفسير الوضعي لنبوءات التوراة، أشد المجاميع تطرفاً في دفع اليهود للسكن في فلسطين، وكان ملخص ما يعتقدون به "إن المسيح سيظهر للمرة الثانية، وإن ظهوره لا محالة حاصل بين اليهود، أي بين شعب الله فمسيح الله سيظهر ويحكم بين شعب الله، وهذه الأسطورة لا بد لها من أرض تتحقق عليها كل هذه الأعمال والأحداث، وهذه الأرض هي فلسطين، والمنطقة التي سيظهر بها المسيح هي جبل صهيون في القدس، فاقترن الحدثان (الموقع وهو جبل صهيون، ومدار الحدث: المسيح) فسميت هذه الظاهرة بالصهيونية المسيحية. ومن أجل إقامة مملكة صهيون لا بد من إعادة اليهود إلى فلسطين حتى ظهور المسيح في صهيون، وعملية إعادة اليهود فيها تعتبر عملاً دينياً مقدساً. وهذه العقيدة كانت ولا تزال هي ديدن ومحرك كل الجمعيات المسيحية المساندة للظاهرة الصهيونية، كما أن الظاهر الصهيونية ليست من الظواهر الميتة وغير الفاعلة في العقل الأوروبي عموماً، والأمريكي خصوصاً، فهناك أحداث في مجرى التاريخ بعثت الحياة والاستمرارية لمثل هذا المفهوم الجديد.

ومن ذلك هزيمة القوات الكاثوليكية، وقيام جمهورية هولندا على أساس المبادئ البروتستانتية الكلفانية سنة ١٦٠٩.

كما يعد انفصال الملك هنري الثامن عن روما مفتاحاً لحركة الإصلاح الديني لبريطانيا والتمركز بها، وتعد أمريكا التي اكتشفت سنة ١٤٩٢ المكان الطبيعي لنشوء الفكر الصهيوني بكل فاعليته، كما تعد بريطانيا الركيزة الدينية والسياسية الفكرية الأولى للصهيونية المسيحية، كما يعتبر الانتصار الذي تحقق في هولندا عام ١٦٠٩ الركيزة الثانية، وتعتبر هاتان الركيزتان الدعامة القوية لانتشار الدعوة البروتستانتية في عموم أوروبا والقوة الفاعلة لنشر تيار الصهيونية المسيحية في أوروبا، أما تعامل هذة الدعوة الجديدة على الأرض الأمريكية فقد كان أكثر تطرفاً وأكثر وضوحاً في علاقة التوراة والعهد القديم بالفكر المسيحي الجديد.

"وتعد العقيدة البيوريتانية (أو التطهيرية) عقيدة المستوطنين البيض في أمريكا الشمالية، هي أولى الأيديولوجيات الإمبريالية الإبادية التي كانت تغطيها ديباجات دينية

كثيفة، فكان هؤلاء المتطهرون يشيرون إلى هذا الوطن الجديد باعتباره (صهيون الجديد) أو (الأرض العذراء) فهي أرض بلا شعب، وكان المستوطنون يشيرون إلى أنفسهم باعتبارهم (عبرانيين) وللسكان الأصليين باعتبارهم (كنعانيين) أو (عماليق) وكلها مصطلحات توراتية إبادية، استخدمها معظم المستوطنين البيض فيما بعد في كل أرجاء العالم متجاهلين القيم المسيحية المطلقة مثل المحبة والإخاء". وكان الاتجاه السائد في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد بين المفكرين والفلاسفة الإنجليز أن على شعب الله الإنجليزي أن يستعجل التدبير الإلهي بتجميع يهود العالم في فلسطين.

وتتمحور أفكار النزعة الصهيونية التي ظهرت مع بداية هجرة الإنجليز إلى الأرض الجديدة (أمريكا) بأن مثل هذا التدبير هو سر من أسرار يوم القيامة وباب نهاية الزمان، وعلامات هذا السر الإلهي هي قيام إسرائيل، فهي علامة من علامات نهاية التاريخ. صحيح أن قيام إسرائيل من عمل البشر، إلا أنه يشارك القدرة الإلهية من خلال مفهوم استعجال الإرادة الإلهية لتحقيق أمر عزيز على قلب الله.

ومن ثم قيام عظام اليهود من القبور لتشهد على انتقام الرب من أعداء اليهود عبر التاريخ، حيث سيحطمهم الله أشد تحطيم ويصب عليهم غضبه ويسوقهم للذبح والدمار وأولهم بابل الزانية، التي سقاها الله كأس غضبه، ويعتبر إنشاء إسرائيل وحرق بابل صورة من صور آخر الزمان، فلا يتحقق الأمان لإسرائيل وتتحقق نشوة نصرها إلا بحرق بابل (العراق).

ويعد هذا التلازم أساساً من أسس العقيدة الصهيونية المسيحية التي كانت دعوات سفر حزقيال وأرميا وأشعيا والدلالات الرمزية في أسفار بني إسرائيل، هي المرجعية الحقيقية لها، منذ تأسيسها لدى العنصر الأبيض. "وأن شعار أرض بلا شعب لشعب بلا أرض هو الشعار العملي للمستوطنين البيض عند دخولهم أمريكا. لقد سعوا جاهدين لإحلال شعب بشعب واستبدال ثقافة بثقافة، فكانت المفاهيم الصهيونية المسيحية قد سبقت المستوطن الإسرائيلي في فلسطين بأكثر من ٤٠٠ عام، والظاهرة الأمريكية هي النموذج العملي للكيان الإسرائيلي، فالظاهرة الأمريكية قد حوت كل أطروحات الصهيونية العالمية قبل نشوئها".

بل إن الظاهرة الصهيونية هي امتداد طبيعي وأثر من آثار الصهيونية المسيحية، وكان الإنجيليون الأوائل يسقطون على أنفسهم كل نص توراتي، فكان خروجهم من إنجلترا هو مثل خروج العبرانيين من مصر، و دخولهم أمريكا هو مثل دخول العبرانيين أرض كنعان،

وقتلهم للهنود الحمر هو كقتل العماليق وقتل الكنعانيين. إذن لا مرجعية لإنجيل المحبة لسيدنا عيسى عليه السلام، ولا خصوصية لمفاهيم راعي الكنيسة.

إن الصهيونية المسيحية هي دين سياسي جديد يحمل من المسيحية اسمها فقط، ويأخذ من المرجعية الوضعية ما تراه النفس والمصلحة والسياسة واقتصاد السوق، وليس سعينا هو اجترار ما كتب بخصوص هذا الموضوع، وإعادة ما تم كتابته، إلا أن مرور أكثر من ٤٠٠ عام على مثل هذه الأفكار مع تراكم عامل الخبرة والزمن والفعل الاقتصادي المتصاعد ودور الظاهرة الاستعمارية في استثمار العامل الديني لتحقيق أغراض سياسية، خلق حالةً من القبول العام لدى عموم الناس، فأصبحت الظاهرة الصهيونية جزءاً من الوجدان الشخصي لدى المواطن الأمريكي والأوروبي، وأصبحت مقولة إن الأمة التي تحمي اليهود إنما تحمي نفسها من غضب الله هي المقولة السائدة في الوسط السياسي والاجتماعي في عموم أوروبا والقارة الأمريكية، كذلك المواطن العادي غير المسيس ذو السلوك العلماني، بل الذي يمتلك سلوكاً من الانحلال والإباحية البعيد عن التفسير الديني للظاهرة الصهيونية، لديه شعور داخلي ضمن وجدانه الشخصي بقبول إسرائيل، بحكم مجموعة عوامل أهمها الأساس الديني للكنيسة الحديثة، الذي له جذر تاريخي عميق.. ثم ظهور الحركة الصهيونية الحديثة، إلى قيام الحرب العالمية الثانية، ثم تبني الإمبريالية العالمية للمشروع الصهيوني.

إن هذه العوامل دفعت برياح التغير إلى عالمنا العربي، وتجد لها من يسوّق مفاهيمها في الكيان العربي، وإن متابعة للتطورات الداخلية في الأسرة العربية خلال العقود المنصرمة تبين أن هذا الاتجاه يسير بسرعة تفوق سرعة الصهيونية المسيحية التي دخلت قرنها الخامس. وعلى الرغم من النشأة المسيحية لهذا الاتجاه والبيئة الغربية لهذا التكوين، إلا أن إيقاع هذا البناء كان بطيئاً، إلا أن عامل الزمن الطويل شكل له تراكماً من القوة في محيط نشأته.

إلى أولئك الذين باعوا الوطن بثمن بخس دراهم معدوادات، نقول: لا تنسوا قول مسيح المحبة حول هذه الظواهر في إنجيل محبته:

"لا تعطوا القدس للكلاب ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها".

ثم يعقب على من لا يسمع لمثل هذه الوصية قائلاً:

"هل يقدر الأعمى أن يقود أعمى إلا يسقطان معاً في حفرة؟" (إنجيل لوقا: ٦ - ٢٨).

سلام على سيدنا عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً.

رغم كل الأصوليات

فأنا علماني

من العلامات البارزة للمشروع الصهيوني تبنيه للعلمانية غطاءً ومبرراً ليكون له موقعٌ بين الحركات الديمقراطية في العالم الحر.

وعبر نظرة غير متأنية لأجندة المشروع الصهيوني والقوى الفاعلة فيه، يجد المرء أنه لا يحتاج إلى جهد ليتبين له أن الأصولية الدينية المتطرفة والمشروع الصهيوني سيان لا يفترقان. لأن أصل المشروع الصهيوني مبني على وعد ديني، ومرجعيته لتبرير حقه أسفار بني إسرائيل والتوراة، وأدواته القوى الدينية داخل التكوين اليهودي صاحبة المصلحة الدينية بتحقيق الوعد، وهم ما يعرفون بالصهيونية اليهودية، أو القوى الدينية المتطرفة خارج الدائرة اليهودية والتي ترى بضرورة تكوين الدولة العبرية الدينية، لتحقيق نتائج دينية تخص معتقد الحركات الإنجيلية لما يسمى بالمسيحية الصهيونية.

والقاعدة التي تجمع هذه القوى من يهودية صهيونية والمسيحية الصهوينية هي التوراة، فبمقدار تحقيق الوعد (أي إنشاء إسرائيل) يكون مقياس التقوى، فليس المقياس هو مقياس أخلاقي وتعبدي، بل مقياس نفعي براغماتي، ومثالنا على ذلك ما ذكر في سفر القضاة عن شخصية يفتاح الجلعادي حيث يوضح لنا سفر في الإصحاح ١١، ١: "وكان يفتاح الجلعادي جباراً ذا بأس وهو ابن امرأة زانية".

وعند الحاجة لمثل هذه الشخصية لم ينظر لمقياس التقوى له، إنما المقياس هو مقدار الحاجة إليه، فيذكر لنا الإصحاح نفسه ١١ - ٧، ١١: "وكان بعد أيام أن بني عمون حاربوا إسرائيل.. فذهب شيوخ جلعاد ليأتوا بيفتاح من أرض طوب، وقالوا ليفتاح تعال وكن لنا قائداً فنحارب بني عمون... فقال يفتاح لشيوخ جلعاد إذا أرجعتموني لمحاربة بني عمون ودفعهم الرب أمامي فأنا أكون لكم رأساً..". والأمثلة كثيرة ووافرة حول انعدام التقوى والصلاح في الشخصيات الصهيونية في عصرنا الحالي، والتي تحقق للتكوين الديني العبري الحماية، فلا ينظر إلى صلاحها وإنسانيتها، بقدر ما ينظر إلى قدرتها على تحقيق أكبر قدر ممكن من الحماية الأمنية لهذا الكيان.

إن إظهار طبيعة الصراع الديني، من قبل الأصولية اليهودية، لا يلغي الأسباب الأخرى التي تتخفى وراءها، سواء أكانت اقتصادية لتقاسم المصالح دولياً أو إقليمياً أم لصراعات قومية أو سياسية.

فالسمة العامة للفعل السياسي الديني داخل إسرائيل هي الإيمان بالصهيونية السياسية، وما يترتب من نتائج عن هذا التوجه، فقد تختلف التوجهات وتختلف السبل لتحقيق ذلك الهدف. إلا أن التيار الديني لدى اليهود خلال القرن المنصرم، وبداية القرن الحالي، قد تضمن توجهين رئيسين، أحدهما جناح صهيوني ديني، والآخر أصولي ديني رفض للصهيونية، ولكنه متعايش معها، متواجد داخل الكيان الذي أنشأته الصهيونية وهو إسرائيل، فهو رفض شكلي غير عملي. ومثالنا على الحركات الدينية المتطرفة أو ما يسمى "حركات دينية معتدلة" ما يلي:

١- حركة (حباد) الحسيدية: لها أكبر التجمعات في الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، ويقدر عدد أنصارها بمليون يهودي في العالم، وتهتم بتدريس التوراة وإعمال العقل في الأمور الدينية، ترفض الفكر الصهيوني بما يسمى مرحلة الاستعجال بخلاص اليهود، وترى أن خلاص اليهود من مهمة المسيح المخلص وعند ظهوره، ورغم تحفظها على الفكر الصهيوني فمقرها إسرائيل ولها دور مهم بتغذية الحركات المتطرفة اليهودية، خصوصاً مع قدوم (الشنيور روسن) الذي أعلن أن إنشاء دولة إسرائيل، فضل من الإله والتفاتة منه نحو اليهود من أجل خلاصهم.

٢- حركة الطائفة الحريدية: تأسست عام ١٩٢٠، ويقدر عدد أتباعها بثلاثين ألفاً، ويسكن معظمهم في أحياء القدس عند بوابة المائة، وما يميز هذه الحركة بعض تعليماتها الصارمة:

أ- مقاطعة مدارس تعليم اللغات الأجنبية، وإرسال أبنائها إلى المدارس المجازة من الطائفة، والتي غالباً ما تستعمل اللغة اليديشية.

ب- عدم تناول الطعام والشراب غير المصرح من قبل الطائفة.

ج - المحافظة على اللباس الشرعي لليهودية.

وطبيعة هذه الحركة وممارساتها لا تتوافق مع علمانية الدولة المزعومة.

٣- حركة ناطوري كارتا، أي حركة حراس المدينة: التي تأسست عام ١٩٣٥ بعد انشقاقها عن حركة أغودات إسرائيل، ولها موقف هو الأكثر وضوحاً عن باقي الحركات الدينية المتطرفة تجاه الصهيونية، على اعتبار أن الصهيونية تريد أن تعرّف الشعب اليهودي باعتباره وحدة قومية، وتعد الحركة هذا الموقف من قبل الصهيونية هرطقة، إذ أن حقيقة اليهود تكوين ديني أكثر منه قومية محددة... إلا أن هذا التحفظ لم يُلْغِ مجاميع هذه الحركة بالتواجد داخل إسرائيل والعيش فيها.

وبين هذه التكوينات الدينية مجاميع تنشق من هنا وهناك لتشكل كتل دينية،

٤ - طائفة ساطمر الحسيدية.

٥ - حركة بوعالي أغودات.

٧ - طائفة المفدال.

٨ - منظمة النشيطون (يد الأخوة الحريدية): وهي تحارب كل من يشكّل خطراً على الدين اليهودي، وتقف ضد مظاهر تسرب العناصر الحريدية إلى العلمانية والتنصر.

٩- حركة كاخ.

١٠ - حركة ميماد، وتسعى إلى تعزيز وتفعيل دور الحاخامات، والتوسع في التعليم الديني، وعدم مخالفة الأنشطة الاقتصادية لتعاليم التوراة.

١١ - حركة غوش أيمونيم (الاستيطانية). وتعتبر الحركات الثلاث الأخيرات من التجمعات الدينية الصهيونية.

١٢- تنظيم كاهانا حي: مقرها مستعمرة كفارتبواح في نابلس، وهو أحد التنظيمات الفرعية لحركة كاخ، ولهذا التنظيم فروع في الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، تسمى "نوعير مائير" أي فتيان مائير. وحركة كاخ وفروعها حركة سياسية دينية عنصرية هدفها الرئيس طرد العرب من أرضهم وقتلهم بكافة الوسائل.

١٣ - ومن التجمعات اليمينية المتطرفة حزب الليكود: إذ تشكّل هذا الحزب نتيجة عدة تحالفات واندماجات حزبية عبر مراحل زمنية متتابعة، وقد ضم عدة تجمعات منها:

حزب حيروت (الحرية) الذي تأسس سنة ١٩٤٨، والحزب الليبرالي، وكذلك حزب الأحرار، وحركة أرض إسرائيل الكاملة، والقائمة الرسمية، والمركز الحر، ومن ثم حركة سلام صهيون.

وكذلك هناك بعض الأحزاب الدينية المتطرفة مثل (حزب معاً – ياحد-) الذي حصل على ثلاثة مقاعد في الكنيست سنة ١٩٨٤. و(حركة تجسيد الصهيونية –تلم-) التي تأسست سنة ١٩٨١. و(حركة النهضة البعث –هتحيا-) وهي من الحركات الرافضة لكامب ديفيد، والتي تأسست سنة ١٩٧٩. و(حزب الصهيونية المتجددة: تسوميت) و(حزب الوطن: موليد بيت). إن هذا الكم من الأحزاب هو ما يميز الساحة السياسية الداخلية في إسرائيل، فتظهر كيانات وأحزاب سياسية، ثم تتبخر وتنضوي هذه الأحزاب، لحسابات خاصة بالوضع الداخلي لإسرائيل، فلم يلاحظ عن سعي أي مؤسسة رسمية داخل إسرائيل أو قيامها بحملة تصفية أو خنق نشاط لأي حزب ديني داخل إسرائيل، بتهمه التطرف أو التدين والتشدد أو لأي مسمى أصولي. وهو ما يميز الساحة السياسية في إسرائيل عن الوطن العربي، كونها داعمة وحاضنة للقوى الأصولية.

وكذلك فإن الملفت للنظر لطبيعة هذه الأحزاب داخل إسرائيل، أنها ليست مجرد أحزاب سياسية تسعى إلى الفوز بالانتخابات أو الوصول إلى السلطة، إنما تقوم بعدة نشاطات تشمل مجالات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وفنية ورياضية وترفيهية، فالحزب يدير الحملات الانتخابية، ويقدم مرشحيه، ويوفر السكن لأعضائه، ويدير الشركات والأعمال التجارية، بل إن بعض الأحزاب تقوم ببناء مستوطنات للمتطرفين اليهود للتعبير عن حملتها الانتخابية، فلا تستطيع هذه الأحزاب القيام بمثل هذه النشاطات والفعاليات لو كان التوجه داخل إسرائيل علمانياً على غرار التجربة العلمانية في عالمنا العربي والإسلامي.

إن الحركات الدينية المعتدلة داخل إسرائيل، حالها حال حركات السلم الإسرائيلية، لا تظهر أو يتفعل دورها إلا عند الحاجة الإسرائيلية، فعند أشتداد المقاومة وعند حدوث أمر ما داخل الساحة الداخلية الفلسطينية يفعّل الانتفاضة أو يشد أزر المقاومة، يظهر على السطح ما يسمى "معسكر السلام الإسرائيلي"، فيبدأ التباكي بعبر وسائل الإعلام العربية والغربية ليصور للعالم أنه لا توجد إسرائيل واحدة، وأن هناك قوى سلام حقيقة علينا التعامل معها، وكذلك هناك معسكر وهمي يسمي نفسه القوى الدينية المعتدلة الرافضة للصهيونية. هاتان

القوتان، لا تتحركان إلا عندما يكون هناك فعل فلسطيني فاعل.

إن إفراز شكل الحكومة الإسرائيلية من خلال نتائج الانتخابات للدورة السادسة عشرة، حيث أسقطت حكومة باراك سنة ٢٠٠٠، وجاءت حكومة شارون، ثم التأكيد على خروج حكومة شارون من أزمتها في الكنيست عام ٢٠٠٣، بسبب سيطرة الأحزاب الدينية المتطرفة متمثلةً بحزب المفدال وشاس ويهودت هتوراة.. لهو تعبير حقيقي عن طبيعة المجتمع الأصولي المكون لإسرائيل.

إن حقيقة القوى الدينية داخل إسرائيل، والقوى الأصولية الدينية اليهودية، أنها تفسر الظواهر السياسية (الصهيونية) على أساس ديني، ويتم التعامل مع الظاهرة الصهيونية بمنطق ديني.

وفي المحصلة إن الصهيونية هي تأطير سياسي لفعل ديني، فلا تخرج الصهيونية من حيث طبيعة تفكيرها، كونها فعلاً دينياً، فهي ذات طبيعة دينية، وليس حكمنا على علاقتها التي تحكمها عوامل سياسية ومصالح اقتصادية، حتى لتبدو وكأنها فعل علماني بسبب سعة علاقاتها وتشابك مصالحها.

مكونات علمانية
لوجه عنصري

الصهيونية كظاهرة هي بنت المجتمع الأوروبي الذي أنجب العلمانية، والتي هي ثقافة المجتمع الأوروبي، وكذلك فهو المجتمع نفسه الذي انحدرت منه الحركات والنظريات العنصرية من النزعة الشوفينية إلى الظاهرة النازية وكل الامتدادات الفكرية العنصرية الأوروبية.

فلا يمكن اعتبار دولة جنوب أفريقيا نظاماً دينياً، بل هو نظام علماني، إلا أنه ابن ثقافة استئصالية، لذا كانت محصلة دولة جنوب أفريقيا دولة عنصرية رغم علمانيتها.

وكذلك دولة روديسيا المبنية على العزل العنصري، هي ليست دولة دينية أو مبنية في سياسة عزلها العنصري على مستندات دينية، بل نظام علماني، إلا أنه ابن ثقافة متعالية مبنية على العرق المختار، فكانت محصلة هذه المعتقدات دولة علمانية مبنية على العزل العنصري. وهو المجتمع نفسه الذي دفع بالكيانات البشرية لتقوم بعملية الإبادة العرقية في أمريكا من خلال إبادة الهنود الحمر.

وقد تميزت بعض مظاهر الاجتثاث العنصري بأشكال أخرى غير الاجتثاث البشري كما حصل في أمريكا واستراليا، منها الاجتثاث الثقافي، وهذا ما نجد شواهده فيما حصل في أمريكا اللاتينية والجنوبية، حيث اجتثت اللغة الوطنية لهذه الشعوب وحلت محلها لغة المحتلين الإسبانية والبرتغالية.

هذه العنصرية المتناهية التي تعاملت بها الثقافة الغربية مع شعوب العالم، هي نفسها ثقافة التكوينات الاجتماعية التي انحدرت منها الصهيونية، بحيث يمكن اعتبار ثقافة هذه المجتمعات العنصرية هي ثقافة مكتسبة لذات العصابات الصهيونية. ومما فاقم من عنصرية اليهود وتهميش علمانيتهم، ثقافتهم التوراتية التي تستبيح دماء المجموعات البشرية الأخرى وتدعو إلى اقتلاعهم.

وعليه، فإن اجتماع هذه المصادر من ثقافتهم الدينية وتكوينهم في المجتمعات الغربية جعل من علمانيتهم صورة أسوأ من علمانية المجتمعات الغربية التي انحدروا منها، خصوصاً وأنهم مستوطنون في أراضي الآخرين المنهوبة.

إن المشكلة الرئيسة لليهود أن ولاءهم الأول والأخير هو لقوميتهم الدينية التي لا تستند إلى سند عقلي وموضوعي. فكانت مساعي التنويريين اليهود تتمثل بإخراج اليهود من هذه الدائرة إلى دائرة الولاء للوطن، الذي ينتمون له ويعيشون فيه، ولا يتم ذلك إلا بخلق وعي لدى عموم اليهود بفصل الدين اليهودي عما يسمى بالقومية اليهودية، حتى يتلاءموا مع الدولة العلمانية القومية في أوروبا. وكان من لوازم هذه الدعوة الهجوم على الأفكار البالية القديمة التي تحيط بالتكوين الفكري للشخصية اليهودية أسيرة الغيتو وأسيرة المدارس الدينية التقليدية مثل (بيت همدراش) ورجالات (الربانيم) الذين هم الحاخامات التلموديون، والتي رافقها تسفيه لدعوة المخلص لليهود، وانتظار ما يسمى بالمسيح، والهجوم على دعوة الحنين إلى جبل صهيون، واعتبار الخلاص الحقيقي من خلال الفرد اليهودي نفسه، عبر دخوله حياة العمل والزراعة والمعرفة والسعي الحقيقي للخلاص بسعيه هو، بأن يخلق مملكته دون الموقف السلبي للانتظار. ورغم قوة هذه الدعوة من استنارة، إلا أنها كانت تحمل بين ثناياها مقومات الفعل الصهيوني، ففي الوقت الذي هاجمت الحالة السلبية لدى اليهود، أزالت الحاجز النفسي بين اليهودي والصهيوني، حيث أصبح من الممكن العودة لأرض الميعاد دون تضييع الوقت لقدوم المخلص. ومن مساعي حركة التنوير قيامها بجهود حثيثة لإحياء اللغة العبرية كلغة أدبية.

وبإذكائها نيران الحب لصهيون وتمجيدها للأسلاف، وفي الوقت الذي كانت تدعو فيه الحركة التنويرية لدخول اليهودي المجتمع الأوربي بعلمانيته الجديدة.. كانت خطاها تتسارع لتكون أقرب الأفعال للحركة الصهيونية، وذلك من خلال حرصها على الحفاظ على خصوصية اليهودي دون اندماج اليهود في المجتمع الجديد، وقد عبر (غولد مان) رئيس المنظمة الصهيونية العاليمة السابق، عن هذا الاتجاه في خطاب ألقاه في ١٦ - آذار ١٩٦٣ بقوله:

"إن الاندماج هو الخطر الكبير الذي يهددنا منذ اللحظة التي خرجنا فيها من الغيتو ومن المعتقلات، ومعنى هذا من المنظور الصهيوني أن خروج اليهودي من قوقعة

الغيتو يعرضه لعوامل التطور، التي إما أن تحيله إلى كائن جديد وإما أن تقضي على ذاتيته اليهودية".

إن إشكالية الحركة الصهيونية أنها تتنكر لجذرها الديني، وتسعى جاهدةً للظهور بمظهر القوى العلمانية، وتجعل من هرتزل مثالاً علمانياً. لقد كان من محصلة كل ذلك زعماء من مثل بن غوريون و عزرا وايزمن وإسحاق شامير. ورغم هذا البرقع العلماني، إلا أنها لم تستطع أن تخفي وجهها العنصري، كحركة مبنية على العرق المختار والنقاء العرقي، وسعيها الحثيث لتحويل الدين إلى قومية مختارة.. كل هذه المنطلقات الفكرية والممارسات حولت، وبشكل ملموس، الظاهرة الصهيونية المتمثلة بإسرائيل، إلى دولة عنصرية حالها كحال جنوب إفريقيا ودولة روديسيا.

رغم قناعتنا الفكرية والأخلاقية أنه لا يوجد هناك غرب واحد، فالعالم الغربي الذي أنتج نابليون وهتلر وموسوليني وستالين، أنتج أيضاً فولتير وبرتراند رسل ونيتشه... إلا أن الذاكرة الجمعية للشعوب تبقى على الدوام شاخصةً أمامها. إن العالم الغربي هو الذي أنتج سياسة التطهير العرقي مع الهنود الحمر وسياسة التمييز العنصري مع السود الأمريكان، وقدمت للإنسانية حربين عالميتين مدمرتين، وهي التي قدمت للإنسانية جريمة هيروشيما وناجازاكي.

وهي الحضارة نفسها التي قامت باستعمال اليورانيوم المنضب ضد شعبنا الصابر في العراق.

وهي الحضارة نفسها التي تصدّر لنا اليوم مفاهيم صراع الحضارات، وتسوّق لنا بالإكراه النظامَ العالمي الجديد المبني على مبدأ البقاء للأقوى ومحق وتفتيت إرادة الشعوب.

وكذلك هي الحضارة نفسها التي قدمت للإنسانية سياسة الفصل العنصري، وسياسة الاستيطان الصهيوني لإلغاء أمة لتحل محلها موجات بشرية ليس بينها رابط لغوي أو تاريخي بقدر ما هم إفرازة من إفرازات الثقافة الأوروبية لتشكل دويلة إسرائيل.

حاضرنا بين المطرقة الهمجية الصهيونية
وسندان العربي المتصهين

لم تعد الساحة العربية هي تلك الساحة وما تحمل، حيث كان إيقاعها متزناً، وأشخاص الحدث واضحين، فكان التقييم على الحدث، من خلال الشخص وما يحمل من تاريخ ومواقف، وكان الشخص يكتسب احترام الدائرة السياسية وأهل الفكر من خلال مواقفه.

فكان الترابط بين الموقف والفكر، والعلاقة بين السلوك الشخصي والانتماءات السياسية، هو المعيار الحقيقي لتلك المرحلة، مرحلة ما قبل الانهيار.

إلا أن أحداث القرن الماضي وما حمل من انهيارات، ألغت الصورة المعتادة، وأصبح غير المتوقع وغير المألوف، سمة الساحة العربية.

ومن ضمن التدليس المشوه تلميعُ المشروع الصهيوني وإظهاره وكأنه الراعي الحنون للإنسانية جمعاء، وأن أشد الناس عداوة لقضية شعبنا العربي الفلسطيني، هم أبناء جلدتهم وأبناء عمومتهم، وما عليهم إلا بالصدر الحنون الذي تناسوه خلال هذه السنوات الطويلة؛ وهو ذلك الصهيوني، الذي قدم من يهود الخزر وبولونيا مع جنسيات عدة تتجاوز الخمسين لغة وقومية وعرق، ليسلبوا داره ويأخذوا أرضه ويقتلوا طفله ثم يسلبوا شرف ابنته أو زوجته.

فتشمر أقلام عن ساعديها، كنا نحسبها في يوم ما أن لها وقفة، لتتباكى مع الباكين وتظهر لنا رقة المنظمات الصهيونية وحرصها الشديد على الفلسطيني الذي لم يجد من يدافع عنه.

وبعد كل ذلك يتمظهر ذلك الصهيوني المفترس على شكل حمامة يحمل لنا اسم منظمة "يهود من أجل العدالة للفلسطينيين"، وعلى الرغم من وضوح برنامج المنظمة كونها تؤيد

حق الإسرائيليين في العيش بحرية وأمان ضمن حدود ١٩٦٧، هناك من يدافع عنها ويصفها بأرق الأوصاف حتى لتبدو للقارئ أنها الزاد والمنقذ لذلك الفلسطيني البائس الذي لا نجاة له إلا من سلَب أرضه، فهو الداء وهو الدواء.

ولم يسأل المدافع عن المنظمات الصهيونية المدافعة عن حقوق الفلسطينيون، أن عدد الأطفال الذين قتلوا برصاص الجندي الإسرائيلي بلغ ٨١١ طفلاً، منهم ١٩١ من الإناث، وتناست تلك المنظمات أن أكثر من ١٠٣ من المرضى فقدوا حياتهم بسبب العراقيل التي وضعتها نقاط التفتيش العسكرية، إذ لا يستطع المواطن الفلسطيني المريض من الوصول إلى مراكز العلاج، فيفارق الحياة وهو ينتظر.

ولم تستطع تلك المنظمات على كثرتها داخل إسرائيل وخارجها لتلميع الكيان المغتصب، من إيقاف العجلة العسكرية، التي حولت ٤٣ مدرسة إلى ثكنات عسكرية، ولم تمنع إغلاق ١١٢٥ مدرسة، أصبحت خاوية من تلاميذها، بل إن المداهمات العسكرية لقوات الاحتلال اعتقلت١٢٥٢ تلميذاً منهم ٤٣٧ طفلاً.

وعلى الرغم من النضال الأسطوري لشعبنا في الأرض المحتلة، وما يقوم به من كشف لحقيقة الممارسات اللاإنسانية، لا تزال أقلام عربية وجهات إعلامية تتحدث عن ذلك الصهيوني المدافع عن الفلسطيني، إذ يتحفنا الإعلام العربي بمساعي منظمات حقوق الإنسان الصهيونية للدفاع عن الفلسطينيون، حيث صال وجال الإعلام العربي بتوصيف المنظمات التي اعترضت على هدم منازل الفلسطينيون في رفح بتاريخ ٢٨ ١- ٢٠٠٥- وهذه المنظمات هي:

١ - مركز المعلومات الإسرائيلي لحقوق الإنسان في الأرض المحتلة. ٢ - مركز حماية الفرد. ٣ - الجمعية الدولية لحقوق الأطفال. ٤ - اللجنة الشعبية لمكافحة التعذيب في إسرائيل. ٥ - أمنستي أنترنشنال – فرع إسرائيل. ٦ - حراس القانون – يهود من أجل حقوق الإنسان. وتحدث الليبراليون العرب عن مساعي المنظمات الإنسانية أو بما تسمى "إنسانية"، ولم يتحدث هؤلاء عن حلول الجيش الإسرائيلي على هدم منازل الفلسطينيين. إن الاعتراض الذي قدم لإيقاف هدم المنازل كان بإيجاد ثلاثة حلول لمنع تسرب السلاح لرفح عبر حفر قناة من المياه، وهي قناة تؤدي إلى هدم ثلاثة آلاف منزل، أو قناة تؤدي إلى هدم ٧٠٠ منزل،

أو حفرة تؤدي إلى هدم ٢٠٠ منزل. أي بكل الأحوال الضرر واقع على ابن الأرض، ولا راد له إلا صبره وصموده في الداخل، وليس دموع التماسيح الكذوبة لتلك المنظمات.

وهل منعت هذه المنظمات الموهومة من إيقاف حملة التصحر للضفة والقطاع، إذ بلغ عدد الأشجار التي تم اقتلاعها مليون شجرة، وتم تجريف ٦١٦٨٥ دونماً من الأراضي الزراعية، وتم هدم أكثر من ٤٥٨ مزرعة دواجن. وقامت قوات الاحتلال بقتل ٨٣١ بقرة، وتم ردم ١٠٠٤ بركة ماء.

وليس ما يقوم به الجيش الإسرائيلي بمستغرب، فعموم الموقف الرسمي الإسرائيلي يمتاز بهذه الميزة، حيث تعلن إسرائيل منفردة أن اتفاق جنيف والقانون الدولي لا ينطبقان على الأراضي الفلسطينية، وهي التي رفضت ٢٨ قراراً دولياً صادراً عن مجلس الأمن، وأكثر من مئة قرار صادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، وهي الدولة التي ترفض التحقيق في جميع الوقائع الموثقة في تقارير منظمات حقوق الإنسان وتحديداً منظمة مراقبة حقوق الإنسان حول مأساة مخيم جنين، وهي الدولة الوحيدة في العالم خارج المساءلة القانونية حول أسلحة الدمار الشامل.

وأصبح الشغل الشاغل للصحفي العربي المتصهين إظهار الدور الإنساني لتلك المؤسسات اليهودية، التي تقوم بعمل ما هنا وهناك، ولكنها في كل الأحوال أداة من أدوات المشروع الصهيوني.

ومن الإعلام المكتوب إلى الإعلام المسموع، إذ تبث إذاعة "صوت السلام الإسرائيلية" برامج مشتركة بين الفلسطينيون والإسرائيليين، وتعتبر هذه المشاركة مثالاً للحرية والسلام للفلسطيني. وتستشهد المذيعة الإسرائيلية (أورلي نوي) التي تعمل في البرنامج العبري، لهذه الإذاعة، بأن الشخصيات الفلسطينية تستطيع أن تصف الجيش الإسرائيلي كونه جيش احتلال، من خلال إذاعة صوت السلام دون الحاجة إلى الإذاعة الرسمية التي يهيمن عليها شارون، وهي تعتبر هذه المشاركة وهذه الكلمات المكسب الذي ليس بعده مكسب.

إن توصيف حالة لا يلغي الحالة بذاتها، ويكفي أن مجلس الأمن والأمم المتحدة، لم تصف ،بل أقرت أن القوات الأمريكية في العراق هي قوات احتلال، ورغم ذلك فإن قرار الأسرة الدولية لم يمنع القوات الأمريكية من جريمة الفلوجة والنجف الأشرف وتلعفر ومدينة الثورة.

وهل ستمنع كلمات من مشاركين في إذاعة السلام الإسرائيلية، قوات الاحتلال من الامتناع عن جرائمه. حيث التجاوز لأبسط الخدمات الإنسانية، إذ بلغ عدد الاعتداءات على سيارات الإسعاف ٣٤١ مرة، وعدد الشهداء من الطاقم الطبي ٢٩ شهيداً، والسيارات التي دمرت كانت ٣٦ سيارة.

كما لا يخفي بأن هناك جانباً ثقافياً لمصلحة الوجود الصهيوني في هذه الإذاعة، إذ تضيف المذيعة (أورلي نوي) أن من حق الفلسطينيون أن يوصلوا كلمتهم باللغة العبرية، وكأن الحديث بلغة المحتل، والتخلي عن اللغة القومية للعربي الفلسطيني في أرضه المحتلة من قبل العبرانيين الجدد مكسب.

ومها حاول مروجو المشروع الصهيوني التخفي وراء حجب وأستار، إلا أن محور الصراع يبقى واحداً، وهو حقنا التاريخي المشروع في معرفة حقيقة الأشياء في أرضنا المحتلة.

إن مساعي بعض الإعلاميين العرب والمنافقين الجدد بالسعي الحثيث بتفتيت الترابط العضوي للأمة العربية، وتزيف الأحداث ببناء هالة كذوبة من الحرية في الكيان الصهيوني، وجو ديمقراطي يتمتع به العربي رغم ممارسات الإله العسكرية الصهيونية، لهو تعبير عن الانهيار الذي تحدثنا عنه، ودالة على السقوط أكثر مما هي دالة على حالة فهم الآخر.

إن فهم الآخر هو بكشف فعله، وفضح أسلوبه من تغيير واقع الأرض وسلب التاريخ. والترويج للمشروع الصهيوني هو السقوط بعينه والانهيار بعينه.

فهل هناك من يسمع ويتذكر؟؟؟

العنصرية الأمريكية

لمعاداة العرب

تتشكل في حياة الشعوب مظاهر اجتماعية متنوعة، منها ما يحمل نسقاً إنسانياً يتبلور ويأخذ مساره مع حركة الشعوب، ومنه ما يحمل نسقاً غير إنساني وغير طبيعي، كالظواهر العنصرية داخل المجتمعات، فهي نتاج التثقيف الخطأ، لأغراض سياسية أو ردود أفعال تطرف ديني أو تطرف سياسي.

ففي هذا السياق تبنى الكونجرس الأمريكي بتاريخ ١٠/١٠/ ٢٠٠٤ وبشكل جماعي، قانون يحمل اسم "قانون مراقبة انتقاد اليهود العالمي" أو "مراقبة الأعمال المعادية للسامية حول العالم"، وقد أعلن الرئيس دبليو بوش عن هذا القانون مباشرة بعد صدوره خلال حملته الانتخابية في جنوب فلوريدا بتاريخ ١٦/١٠/ ٢٠٠٤، في الولاية التي تضم ثالث أكبر جالية يهودية في العالم بعد إسرائيل ومنطقة نيويورك.

ويطالب القانون وزارة الخارجية بوضع تقرير سنوي حول معاداة السامية في العالم، ونشره في إطار تقريرها حول حقوق الإنسان، كما ينص على إنشاء مكتب داخل وزارة الخارجية مكلف بإحصاء الأعمال المعادية للسامية ووضع استراتيجيات لمكافحتها، وتتضمن مهام المكتب رصد جميع أعمال العنف الجسدي الموجهة ضد اليهود أو أملاك يهودية وأعمال تدنيس مقابر أو معابد يهودية، فضلاً عن إحصاء حالات الدعاية المعادية لليهود. ونص القانون على أن يجري تقديم التقرير السنوي الأول عن "الأعمال المعادية للسامية حول العالم" في الخامس عشر من نوفمبر لسنة ٢٠٠٥.

من حيث المبدأ، فالقانون الذي يحرم نقد اليهود ويعتبر ظاهرة النقد جرماً عليه تبعات قانونية وحسابية، يحوي على الصفة العنصرية رغم دعوته لمحاربة العنصرية، وكذلك اسم القانون. فقد تمت صياغته بنزعة عنصرية عالية لكونه يميز طائفة اليهود على شعوب

العالم، ويجعل من اليهود تكويناً خارج دائرة المساءلة الإنسانية.

كما يسعى القانون الجديد إلى توفير الإطار القانوني لتقنين شرعية معادة الحق العربي، فالقانون يسعى إلى إسكات الوعي العام المناهض للصهيونية وإسرائيل، في أوروبا وأمريكا، الذي بدأ يأخذ ملامحه بعد انتفاضة الأقصى، وتمسك الجانب الفلسطيني بعملية السلام رغم التسويف الصهيوني له.

على الرغم من تضمين القرار بمهمة متابعة ظاهرة معاداة السامية للخارجية الأمريكية، وأن يكون تقريرها ضمن تقرير حقوق الإنسان، إلا أن القرار موجه وبشكل مباشر للمنطقة العربية وللتكوينات الفكرية والحزبية وللقوى المعادية للتطبيع، فهو قرار ذو صفة عالمية، ولكن خصوصيته عربية الفعل والجدولة، وهذا ما ستثبته الأحداث في المستقبل القريب.

هناك خلط للأوراق أمام النخبة الفكرية والسياسية، واعتبار إسرائيل هي الممثل الوحيد عن اليهود، واعتبار النقد الذي يمتد إلى إسرائيل هو في حقيقته نقد للوجود اليهودي في العالم، حيث جاء في المادة الثانية من القانون الفقرة العاشرة ما يلي: " ١٠ - اتخذت الحركات المعادية للسامية في بعض الأحيان أشكالاً لتشويه الصهيونية، والحركة القومية اليهودية، والتحريض ضد إسرائيل ".. إن تحقيق مثل هذا المطلب هو في حقيقته نصر للحركة الصهيونية أكثر مما هو مكسب لليهودية، فالظاهرة الصهيونية مؤقتة ومأزومة، ومهما طال بها الوقت فرياح التغيير قادمة.

أما اليهود فهم وجود ديني، فالاتفاق أو الاختلاف معهم لا يلغي وجودهم ضمن المجموعة الإنسانية، وفي رأينا رغم الهيمنة والسطوة لهذا القانون، إلا أن فصل اليهودية عن الصهيونية هو المكسب الأهم والأبقى لليهودية.

كما استعرض القانون خلال فقرات عديدة من المادة الثانية مظاهر المعاداة للسامية في العالم، ورغم رصد الإدارة الأمريكية لمثل هذه الظاهرة، إلا أنها لم تستطع أن تحدد أي مظاهر للعنف المنظم تجاه اليهود في العالم العربي. رغم قوة الحيف اليهودي الصهيوني، للحق العربي طوال فترة الصراع، فإن الجانب العربي الشعبي ظل ملتزماً أخلاقياً بالتعامل مع اليهود كونهم مواطنين في البلدان العربية، ولكنه استشهد بمثالين هما مسلسل "فارس بلا جواد" و "الشتات"، واعتبر مثل هذه الظواهر الإعلامية دالة على معاداة للسامية،

وتناسى القرار أو أهمل متعمداً أن العربي طرف في صراع، وليس تصرفه من منطلق عداء ديني مثل "ما تتحلى بها المسيحية خلال تاريخها".

كما ألزم القرار الخارجية الأمريكية القيام برصد ما يكتب وما يرسم من كاريكاتير، وما يصدر من أفعال سياسية أو سلوكية أو اجتماعية لرصدها، واعتبار كل الممارسات الرسمية والفردية أو التجمعات والجمعيات، تجاه اليهودي، ممارسات معادية للسامية.

ليس هناك هفوة، أو سوء تقدير من قبل الذين قاموا بصياغة مسودة القرار للكونجرس بقدر ما هناك مؤشر جديد لتحرك جديد سينفذ خلال الفترة القادمة لتثبيت المشروع الصهيوني في المنطقة العربية. فالمرحلة القادمة تتجاوز الدائرة الرسمية العربية، فهذه الدائرة أصبحت جزءاً من الهيمنة الأمريكية، ومتواطئة معها ولا تعصي لها أمراً.

والقرار موجه على الخصوص إلى الوسط الثقافي من عموم النخبة ورجال السياسة وكوادر الأحزاب العربية والوطنية، وإنْ أخذ القرار صفة الإلزام والعقوبة، فهو تلويح للمؤسسات الرسمية، إذ عليها الطاعة لتنفيذ قرارات الخارجية الأمريكية، وما يصدر عنها من عقوبات بحق الأصوات المدافعة عن الحق العربي الفلسطيني، وما سيتخذ في المستقبل القريب من قرارات من قبل المؤسسة الرسمية العربية سيتتابع إيقاعه مع قرارات الخارجية الأمريكية، فسنرى مكتباً هناك يغلق، أو مدرسة خاصة تلغى، وحزباً يحظر نشاطه، ومركز دراسات هنا وهناك يغلق امتثالاً لأمر الراعي الأمريكي الحامي لإسرائيل بقوانين جائرة.

فأول التخريجات والترويجات ما ذكرته المنظمات الصهيونية من أن وسائل الإعلام العربي معبأة بمظاهر العداء للسامية، مدعية أن المواد الإعلامية في العالم العربي تمثل مظهراً من مظاهر معاداة السامية، بينما هي في حقيقتها ليست كذلك، فما هي إلا تعبير عن نقد خجول موجه ضد إسرائيل كدولة محتلة، وبسبب ممارساتها غير الإنسانية تجاه الفلسطينيون.

ليس في استنتاجاتنا مبالغة، فأوليات هذا القرار كانت من فرنسا، حيث طلبت المحاكم الفرنسية محاكمة إبراهيم نافع نقيب الصحفيين المصريين رئيس مجلس إدارة صحيفة الأهرام في حينها، ولكن القضاء المصري استطاع إلغاء قرار الاستدعاء في أوائل الشهر الثامن لسنة ٢٠٠٢، وإنابة القضاء المصري بالتحقيق في قضية اتهام إبراهيم نافع بمعاداة السامية.

إن مجرد استدعاء شخصية إعلامية بارزة بسبب مقال نشر من صحفي يعمل في الأهرام، هو عادل حمودة، يعد إرهاباً فكرياً وتسلطاً ليس له مبرر، فلم يكن المقال يتناول السياسة الفرنسية، ولا الشخصية الفرنسية، بقدر ما هو سعي صحفي لتبيان النزعة العدوانية لدى شارون.

إن أسلوب التباكي والشكوى والمبالغة في إظهار المظلومية، هو سمة ملازمة للتكوين اليهودي، ولو ملكوا العالم، إذ يذكر مكرم محمد أحمد أنه أثناء توليه منصب نقيب الصحفيين المصريين، جاء وفد من الحاخامات إلى مصر، وقابل الرئيس المصري مبارك، وعرض عليه شكوى مما يُكتب في الصحف المصرية ضد إسرائيل، وقد أرسلهم لي الرئيس، فقمت بدوري بتسليم كل واحد منهم ملفاً بالمقالات والرسومات التي نُشرت في الصحف الإسرائيلية ضد مصر، وتسخر من المصريين بشكل لا يمكن قبوله، وقلت لهم جملة واحدة: "لا يوجد حب بالقوة".

وبين شكوى وضغط ثم التلويح بالعصا الغليظة، توج القرار الأوروبي بغلق قناة المنار دعماً لإسرائيل، فإذا كانت الحماية واجبة للإعلاميين من خلال وجود منظمات دولية للدفاع عن الصحفيين والإعلاميين، فإن هذه المنظمات تخلفت عن دورها ووقفت مكتوفة الأيدي تجاه غلق قناة المنار في أوروبا. إن خطورة هذا الحدث تتمثل في رفع الغطاء والحماية عن أجهزة الإعلام، والتهمة الموجه للقناة هو كونها معوقاً لعملية السلام، وهذا بالمفهوم الأمريكي مغاير للبنية الفكرية للصهيونية.

فهي من حيث المضمون لا تختلف عن التهمة الموجهة لإبراهيم نافع، ولن تختلف في طبيعتها تجاه التهمة التي وجهت إلى مركز دراسات الشيخ زايد في دولة الإمارات العربية، وسنسمع المزيد مثل هذا وغيره غداً.

فإن استصدار مثل هذا القرار من قبل الكونجرس الأمريكي ما هو إلا مؤشر على تحرك جديد سينفذ خلال المرحلة القادمة، وذلك في تنفيذ المرحلة التالية من المشروع الصهيوني من خلال صهينة العرب كافة، والتي بدأها السادات في اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩، مروراً باتفاقية وادي عربة واتفاقية أوسلو، وانتهاءً باتفاقيات شرم الشيخ الأخيرة بين الفلسطينيون والإسرائيليين. وبمعنى آخر هو قبول العرب كافة باستيطان اليهود في أراضيهم الفلسطينية،

والتطبيع الشامل والكامل مع إسرائيل، وقبولها عنصراً فاعلاً ومؤثراً في مشروع الشرق الأوسط الكبير تحت الرعاية الأمريكية، وسيوفر هذا القرار التربة الثقافية لصهينة المنطقة العربية، وذلك بالتخلي كلياً عن معاداة المشروع الصهيوني.

ثقافة النسيان

عشية توقيع اتفاقيات السلام مع إسرائيل بدءاً من كامب ديفيد ومروراً بوادي عربة وانتهاءً بأوسلو وليس نهاية لها ، استمد التطبيع شرعيته كقوة سياسية ضاغطة على الساحة العربية لتشكل معادلة مردها كل خطوة من خطوات التطبيع يقابلها تجهيل متعمد للكيان التاريخي والفكري والسياسي للشخصية العربية وما تحمل.

لذا حرص المشروع الصهيوني على مزيد من التطبيع، الذي محصلته مزيد من التجهيل، وكلما نجحت خطوة من خطوات التطبيع، يتم طوي صفحة من صفحات الحق العربي مع صفحة من صفحات الفكر النهضوي العروبي، فهدف التطبيع هو تغييب للماضي. التطبيع يعني الهيمنة الصهيونية على الحاضر. التطبيع يعني رسم المستقبل وفق الرؤى الصهيونية لإنتاج ثقافة صهيونية ليس فيها بعد قومي وليس فيها للعربي شيء.

إن الصراخ الذي ملأ الدنيا لما يسمى بالواقعية هو في حقيقته انتهازية رخيصة لأولئك الذين يكتبون التاريخ بعين أمريكية وبرؤى صهيونية، فمن البديهيات التاريخية أن المسلمين العرب لم يرد في سلوكهم مع الآخر حملة تطهير عرقية. نعم المسلمون العرب مثلهم كمثل شعوب العالم، لديهم فترات حرب كما لديهم فترات سلم، وهناك من الاحتكاكات الكثيرة إلا أنها لم تدخل ضمن التكوين الفكري الإسلامي كظاهرة عقدية مسلّم بها، يحققها المسلم كجزء من عقيدة. وبقي العربي يتمتع بصفة المعايشة وقبول الآخر عبر أربعة عشر قرناً. حتى في أحلك ظروف الصراع العربي الصهيوني، وما نال العربي من حيف حقيقي في هذه القضية، إلا أنه لم يمتد لمعالجة الأطراف اليهودية في العالم العربي بجريرة اليهودية الصهيونية، ورغم هذه السمة التي تحولت إلى صفة من صفات الشخصية العربية في العصر الحديث اكتسبها وتعززت لديه من خلال الإسلام، يتم إعادة كتابة التاريخ وبوجه آخر، من خلال مساعي انتقائية وسعي مقصود لإخفاء حقائق تاريخية، وذلك بتصوير العربي أنه رجل دم وصاحب تاريخ أسود في قتل الآخرين، وهو الذي لا يمكن معايشته، وهو الذي في عوز حضاري، وهو الذي بحاجة إلى العون الغربي لتهذيب سلوكه وتقنين حياته.

إن ثقافة النسيان أساسها مجموعة عوامل داخلية تخص الوعي القومي والوعي الديني وعجزها عن الارتفاع إلى مستوى متطلبات المعركة، وعلينا أخذ الدرس من الوعي القومي لحركة شعوب أوروبا، وكيف حرصت على مشروعها النهضوي، ثم يأتي دور العدو الخارجي وطابوره الذي بين ظهرانينا من فاسدي الضمير والموهومين بالمشروع الغربي.

إن قوى التحرر العربي، والتي شكلت خطراً على المشروع الصهيوني أطلق عليها الغرب مسمى "العناصر الهدامة"، واليوم، القوى المناهضة للمشروع ذاته يطلق عليها الغرب مسمى "الإرهاب"، وتحت هذه المسميات حارب الغرب بلا هوادة قوى النهوض والتحرر. وشاركت وتشارك الأنظمة العربية الغرب في حربه هذه، لأنها هي الأخرى مهددة من قبل هذه الحركات، وكذلك قوى سياسية وتنظيمية واسعة تضع جهودها تحت مختلف التسميات لمحاربة كل القوى السياسية التي تناصر الشعوب المضطهَدة والمظلومة، في الوقوف بوجه السياسات الاستعمارية التي هدفها إحكام السيطرة على العالم الآخر، والهيمنة على مقدراته السياسية والاقتصادية.

إن الأمانة التاريخية والسياسية توجب علينا تشخيص العجز المزمن في التشكيلة العربية، والتي لولا عجزها وتهاونها لما تمكن المشروع الصهيوني أن يحقق له أي موقع قدم على الساحة العربية.

وبسبب هذا العجز تم التنازل عن الحقوق التاريخية للعربي في أرض الأجداد، والتنازل عن أعز المقدسات عند العربي في القدس الشرقية. إن النتائج التدميرية على الوجود العربي كبيرة، بسبب الإفراط في سياسة التنازل ومن طرف واحد ، وقد تكون هذه النتائج التدميرية على البنية الفكرية والاجتماعية من ضمن حسابات المشروع الصهيوني ، وقد لا تكون ، إلا أن قوة اندفاع المشروع الصهيوني بهذا الاتجاه وبهذه القوة بسبب الوهن والعجز مما سهل ليس عملية التطبيع، بل سهل له إلغاء تاريخ أمة.

إن ثقافة النسيان يسعى لها، ومن دون كلل، مثلث أطرافه الرئيسة النظام العربي الرسمي والمثقفون العرب ومؤسسات الرأي السياسية، وخصوصاً مروجو المشروع المتصهين ، والقوى الدولية صاحبة المصلحة الحقيقية من عملية تفتيت الأمة.

إن البعد الخفي والحقيقي لثقافة النسيان، وعبر مراحل، هو دفع الأمة إلى التخلّي عن هويتها، من خلال إيهام الناس بمظاهر شكلية، فهناك مساعٍ بدأت تطرح نفسها، من خلال مؤسسات بحثية جديدة أو أحزاب كنا نحسبها حريصة علىً ثوابت الأمة (أحزاب يسارية أو قومية)، نراها قد غرقت في بحر المساعدات المالية باستلامها المساعدات المالية من سفارات البلدان الأخرى، بحجة تدعيم الديمقراطية، بينما نراها تروج وتشجع المواطن للتمسك بشكليات تراثية لا تمت للأمة بشيء، واعتبار العصبية الطائفية أو المناطقية، بل القبلية، دالة على تراثنا، مع مزيد من مظاهر التغريب والشعور بالدونية بحجة التحضر والتفاعل مع الآخر، كلها مساعٍ ليكون هناك هجين مسخ لا يمت للأمة بصلة إلا اسمها، ولا يحمل من تراثها شيء، عند ذلك ستكون هذه الأمة أمة مهزومة لا قدرة لها على الدفاع عن نفسها. عندها ستبدأ المرحلة التي هي أساسية في المشروع الغربي العام والأمريكي، بالتعبئة الشعبية لكره كل ما هو عربي، ليكون العربي القادم هو البديل الأمثل لليهودي.

الشتات، أي مرحلة عرب الشتات، فيتم إسقاط كل ممارسة تعبوية كانت ضد اليهود ليكون الرجل المسخ المستهان به وموضوع السخف من قبل الحضارة الغربية والتفكير الآري العنصري هو العربي عوضاً عن اليهودي.

عندها تكون النزعة العنصرية لمروجي ثقافة النسيان وأصحاب المشروع الصهيوني قد أخذت مداها لتحقيق جملة مسائل أهمها:

١ - صياغة التاريخ العربي بصورة انتقائية.

٢ - تحقيق الانفصام الخطير بين الإنسان العربي وجذره التاريخي.

٣ - تحقيق الغياب الكامل للثقافة العربية، من خلال تغييب الدين أو إفراغه من مضمونه.

إن تكرارنا لمثل هذه الموضوعات هدفه تذكير الشارع العربي، الذي هو رهاننا الأول والأخير أمام هذه الهجمة الشرسة القاسية على وجود أمتنا، بعد هزيمة المؤسسة الرسمية العربية وانهيارها وتحالفها مع المشروع الصهيوني واستسلامها لأجندة المشروع الغربي بالكلية، ومن دون ممانعة.